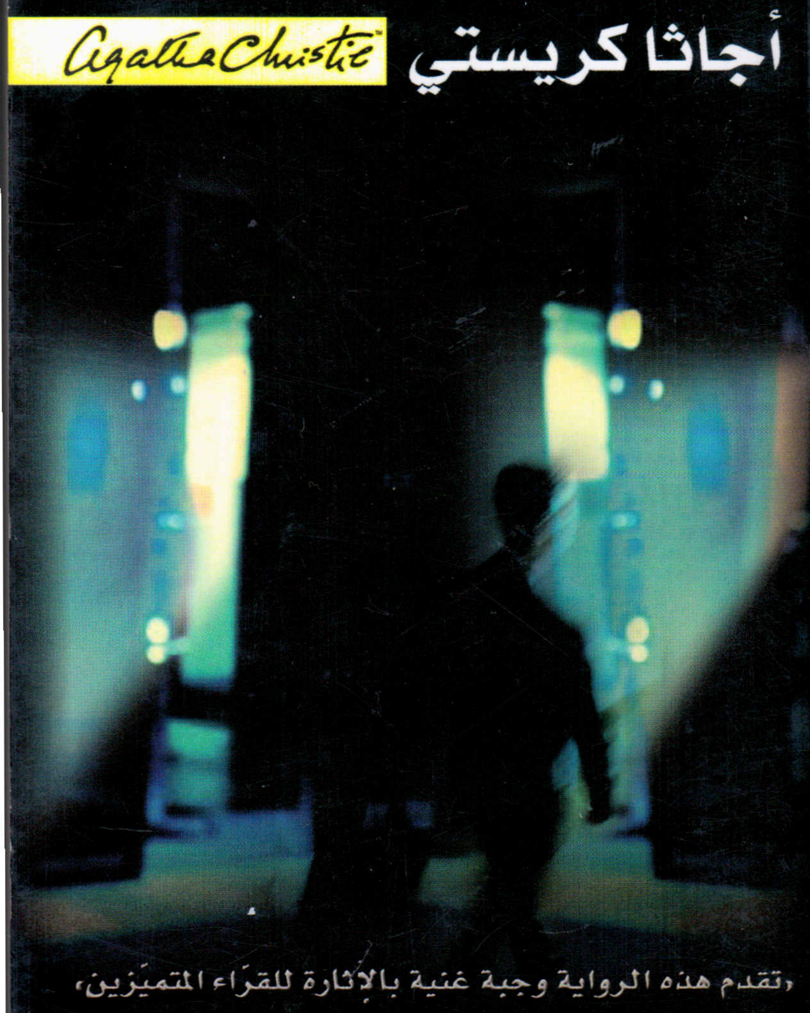
Agatha Christie

أجاثا كريستي



«تقدم هذه الرواية وجبة غنية بالإثارة للقرّاء المتميّزين»

صحيفة «نيويورك تايمز»

السيد كوين الغامض

أجاثا كريستي

السيد كوين الغامض

"تقدم هذه الرواية وجبة غنيّة بالإثارة للقرّاء المتميّزين".

صحيفة «نيويورك تايمز»





المحتويات

السيد كوين الغامض

تُعرف أجاثا كريستى فى كل أنحاء العالم باسم " ملكة الغموض " . ولقد حققت مبيعات كتبها ما يربو على مليار نسخة باللغة الإنجليزية إضافة إلى مليار نسخة أخرى ترجمت إلى مائة لغة أجنبية . وهى تعد أكثر كاتبة نشرت لها كتب على مر العصور على مستوى كل اللغات . ولم يفقها فى المبيعات إلا كتب شكسبير . وقد قامت بتأليف ثمانين كتابا . ما بين روايات ومجموعات من القصص القصيرة فى الجريمة . كما قامت بتأليف تسع عشرة مسرحية ، وست روايات تحت اسم مارى ويستماكوت .

ولقد كتبت أجاثا كريستى روايتها الأولى " السر الغامض فى ستايلز " قرب نهاية الحرب العالمية الأولى ، والتى كانت تعمل خلالها فى الجيش كممرضة . وقد قامت فى هذه الرواية بابتكار شخصية هيركيول بوارو ، ذلك المحقق البلجيكى ضئيل الجسم الذى صار أشهر محقق فى روايات الجرائم بعد شيرلوك هولمز - وقد نشرت الرواية أخيرًا بواسطة دار نشر Bodley Head فى عام ١٩٢٠ .

وفى عام ١٩٢٦ . وبعد أن اعتادت تأليف رواية واحدة كل عام ، قامت أجاثا كريستى بتأليف روايتها

العظيمة " من الذى قتل السيد روجر أكرويد ؟ " ، تلك الرواية التى كانت أول رواية تنشرها لها دار النشر " Collins " والتى أسست علاقة ربطت بين الكاتب والناشر دامت لخمسين عامًا ونتج عنها ما يزيد على سبعين رواية . كما كانت رواية " من الذى قتل السيد روجر أكرويد ؟ " هى أولى رواياتها التى يتم تمثيلها مسرحيًا ـ تحت عنوان " Alibi " ـ واستمر عرضها بنجاح على مسرح " ويست إند " فى " لندن " لمدة طويلة . وقد تم افتتاح مسرحية ـــ " مصيدة الفئران " ـــ أشهر مسرحياتها على الإطلاق فى عام ١٩٥٢ وهى المسرحية المعروفة بكونها صاحبة أطول فترة عرض فى التاريخ .

وقد منحت أجاثا كريستى لقب " فارسة صاحبة مقام رفيع " فى عام ١٩٧١ ، وتوفيت فى عام ١٩٧٦ . ومنذ ذلك الحين ظهرت عدة مؤلفات لها منها تلك الرواية التى حققت أعلى المبيعات " Sleeping Murder " وظهرت لاحقًا فى نفس عام وفاتها . بعد ذلك نُشرت السيرة الذاتية لها ، ثم مجموعة القصص القصيرة " Miss Marple's Final Cases " و" Problem at Pollensa Bay " و" While the Light Lasts " وفى عام ١٩٩٨ تم تحويل أول مسرحية لها وهى " Black Coffee " إلى رواية بواسطة مؤلف آخر هو " تشارلز أوزبورن " .

الفصل ١

قدوم السيد كوين

إنها عشية العام الجديد .

كان أفراد الأسرة الأكبر سنًا فى منزل رويستون مجتمعين فى الردهة الكبيرة .

كان السيد ساترثوايت سعيدًا لأن الصغار قد خلدوا للفراش بالفعل . إنه لم يكن مولعًا بالأطفال . لقد كان يعتقد أنهم مملون وغير مهذبين . فهم يفتقرون إلى الكياسة التى ازداد ولعًا بها مع تقدم العمر به .

كان السيد ساترثوايت فى الثانية والستين من عمره . كان مقوس الظهر بعض الشىء ونحيفًا ، وذا وجه يشبه وجه الجنى ، ومهتمًا بشكل كبير وغير عادى بشئون الآخرين وحياتهم . فطوال حياته تقريبًا ظل جالسًا فى المقعد الأمامى يشاهد العديد من دراما الطبيعة الإنسانية تعرض عليه . وقد اقتصر الدور الذى كان يلعبه دومًا على دور المتفرج . الآن فقط ، بعد أن وقع فى براثن التقدم فى

العمر ، وجد نفسه قد أصبح انتقاديًا إلى حد كبير للدراما التى تعرض عليه . فقد أصبح يطالب الآن بشىء غير مألوف قليلاً .

وهو ، بدون شك ، كان يمتلك حاسة تمييز حادة إزاء هذه الأمور . فقد كان يعرف بديهيًا وقت توافر عناصر الدراما . وصار مثل حصان الحرب ، يمتلك حاسة شم قوية . فمنذ وصوله إلى رويستون ، فى ظهيرة هذا اليوم ، استحثته هذه الحاسة الداخلية الغريبة على أن يكون مستعدًا . قدومًا هناك شىء مثير يحدث ، أو على وشك أن يحدث .

ولم يكن عدد قاطنى المنزل كبيرًا . كان هنالك توم إيفزهام ـ مضيفهم اللطيف وصاحب الحس المرح ـ وزوجته السياسية الجادة ، والتى كانت تسمى قبل زواجها الليدى لورا كين . وكان هناك السير ريتشارد كونواى ، وهو محارب ورحالة ورياضى . كما كان هناك ستة أو سبعة أطفال لم يستطع السيد ساترثوايت حفظ أسمائهم ، وكان هناك عائلة بورتال .

وعائلة بورتال هى التى جذبت اهتمام السيد ساترثوايت .

وهو لم يلتق بالسيد أليكس بورتال من قبل ولكنه كان يعرف كل شىء عنه . فقد كان يعرف أباه وجده . وكان أليكس بورتال يشبههما إلى حد كبير . كان رجلاً يناهز الأربعين ، وذا شعر فاتح اللون وعينين زرقاوين مثل

جميع أفراد عائلة بورتال ، وكان مولعًا بالرياضة وماهرًا بالألعاب ، لكنه يفتقر إلى الخيال . فلم يكن أليكس بورتال يتمتع بأى سمات غير معهودة ، فكان يبدو كأى مواطن إنجليزى صالح آخر .

ولكن زوجته كانت مختلفة . فقد كانت ـ على حد علم السيد ساترثوايت ـ أسترالية . فقد سافر بورتال إلى أستراليا قبل عامين وقابلها هناك وتزوجها وأحضرها معه إلى الوطن . وهى لم تكن قد أتت إلى إنجلترا قط قبل أن تتزوج . وكذلك لم تكن مثل أية امرأة أسترالية أخرى كان السيد ساترثوايت قد قابلها .

إنه يراقبها الآن ، خفيةً . يالها من امرأة مثيرة . إنها هادئة وبالرغم من ذلك فإنها تنبض بالحيوية . نعم ، نابضة بالحيوية ! إن هذا هو أكثر ما يميزها حقًا ! إنها ليست جميلة للغاية ، وأنت لا تستطيع أن تقول إنها جميلة ، ولكن كان بها نوع من السحر لا يمكنك أن تغفله ـ وهو السحر الذى لا يمكن لأى رجل ألا يراه . وكانت تلك هى السمات التى أثارت إعجاب الجانب الذكورى من السيد ساترثوايت ، أما الجانب الأنثوى لديه (والذى كان يمتلك السيد ساترثوايت قدرًا كبيرًا منه) فكان مكترثًا بمسألة أخرى تمامًا ، *لماذا تقوم السيدة بورتال بصبغ شعرها ؟*

وأى رجل آخر لم يكن ليلاحظ على الأرجح أنها تقوم بصبغ شعرها ، ولكن السيد ساترثوايت يعرف ذلك . لقد

كان يعلم كل شيء عن هذه الأمور . وقد كانت تثير حيرته . فالعديد من النساء السمراوات يصبغن شعرهن ليصبح أشقر ، ولكنه لم يسبق له أن رأى امرأة شقراء تصبغ شعرها باللون الأسود .

إن كل شيء بها كان يثير اهتمامه . فبشكل بديهي غير مألوف كان واثقًا من أنها إما سعيدة للغاية وإما تعيسة للغاية . ولكنه لم يكن يعرف أي الشعورين هو المهيمن على حياتها ، وقد أزعجه للغاية جهله هذا . علاوة على ذلك ، كان هناك تأثيرها الغريب هذا على زوجها .

يُحدِّث السيد ساترثوايت نفسه قائلاً : " إنه يعشقها ، ولكنه في بعض الأحيان ـ نعم ، يخشاها ! إن ذلك مثير للغاية ، مثير إلى حد كبير " .

إن بورتال يفرط في تناول الخمر ، هذا شيء أكيد . كما أنه يحدق في زوجته بطريقة غريبة حينما تنظر باتجاه آخر .

قال السيد ساترثوايت : " يا له من شخص عصبي ، إنه عصبي حقًا . وهي تعلم ذلك أيضًا ولكنها لن تفعل شيئًا حيال ذلك " .

لقد كان يشعر بفضول عارم إزاء كل منهما . ثمة شيء ما يحدث ولكنه لم يستطع سبر أغواره .

وقد أفاقته من تخيلاته حول هذا الموضوع الدقات الكئيبة للساعة الكبيرة الموجودة بالركن .

قال إيفزهام : " إنها الساعة الثانية عشرة . لقد حلت السنة الجديدة . أتمنى لكم عامًا سعيدًا جميعًا . في الواقع ، هذه الساعة متقدمة خمس دقائق ... أنا لا أعرف لماذا لم ينتظر الأطفال ليحتفلوا معنا بالعام الجديد ؟ " .

قالت زوجته بهدوء : " أنا لم أعتقد للحظة واحدة أنهم قد خلدوا بالفعل إلى الفراش . إنهم على الأرجح يضعون فرش الشعر أو شيئًا من هذا القبيل فوق أسِرَّتنا . إن مثل هذه الأمور تروق لهم للغاية . وأنا لا أعرف السبب في ذلك . إن آباءنا لم يسمحوا لنا قط بالقيام بمثل هذه الأمور حينما كنا صغارًا " .

قال كونواي وهو يبتسم : " *جيل آخر ، أخلاق أخرى* " .

لقد كان كونواي رجلاً طويلاً له هيئة الجندي . وكان هو وإيفزهام ينتميان لنفس الطراز من الرجال ـ رجال نزهاء ومستقيمون لا يدعون العبقرية .

استكملت الليدي لورا حديثها قائلة : " حينما كنا صغارًا كنا نمسك بأيدي بعضنا البعض في دائرة وننشد أغنية " العهود الخالية القديمة " ، إننا ننسى دائمًا أحباءنا القدماء " ـ إنها أغنية مؤثرة للغاية ، ودائمًا ما كنت أعتقد أن كلماتها مؤثرة " .

تحرك إيفزهام بشكل ينم عن الضيق .

تمتم قائلاً : " كفى يا لورا ، *ليس هنا* " .

مشى بخطى واسعة عبر الردهة حيث كانوا يجلسون وأضاء مصباحًا آخر .

قالت الليدى لورا بصوت خفيض : " يا لى من حمقاء ، إن ذلك يذكره بالطبع بالسيد كابيل المسكين . هل النار حارة للغاية بالنسبة لك يا عزيزتى ؟ " .

تحركت إلينور بورتال بطريقة فظة .

" شكرًا لك ، سوف أحرك مقعدى للخلف قليلاً " .

إنها تمتلك صوتًا جميلاً حقًا - أحد تلك الأصوات الخافتة ذات الصدى التى تعلق فى ذاكرتك ، كما اعتقد السيد ساترثوايت . لقد أصبح وجهها فى الظل الآن ، يا له من شىء مؤسف .

ومن المكان الذى كان تجلس به فى الظل تحدثت مرة أخرى .

" السيد كابيل ؟ " .

" نعم . الرجل الذى يمتلك هذا المنزل . لقد أطلق الرصاص على نفسه كما تعلمين - يا إلهى ! حسنًا يا توم يا عزيزى ، أنا لن أتحدث فى هذا الموضوع إلا إذا أردت أنت ذلك . لقد كانت صدمة كبيرة بالنسبة لتوم بالطبع لأنه كان بالمنزل حينما حدثت هذه الفاجعة . وكذلك أنت يا سير ريتشارد ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم يا ليدى لورا " .

تأوهت ساعة قديمة خاصة بالجد فى الركن ، ثم أزت وصهلت وكأنها مصابة بالربو ، ثم دقت لتعلن الثانية عشرة .

قال إيفزهام بشكل غير مبال : " أتمنى لك عامًا جديدًا سعيدًا يا توم " .

انتهت الليدى لورا من غزلها ببعض التروى .

قالت : " حسنًا ، لقد شهدنا مجئ العام الجديد " ، ثم أضافت وهى تنظر ناحية السيدة بورتال : " فيم تفكرين يا عزيزتى ؟ " .

هبت إلينور بورتال سريعًا واقفة على قدميها .

قالت بسخرية : " فى الفراش بالطبع " .

فكر السيد ساترثوايت بينما كان ينهض هو أيضًا وبدأ يشغل نفسه بالشموع : " إنها شاحبة للغاية ، إنها لا تكون شاحبة بهذه الطريقة فى العادة " .

أضاء لها شمعة وأعطاها إياها وهو ينحنى قليلاً بطريقة عتيقة الطراز ومضحكة بعض الشىء . أخذتها منه وشكرته ثم صعدت الدرج ببطء .

فجأة تسلل حافز غريب داخل السيد ساترثوايت . لقد أراد أن يصعد وراءها - لطمأنتها ومواساتها - حيث إنه كان يتملكه شعور غريب بأنها معرضة لخطر ما ، ثم انحسر هذا الدافع ثانية ليترك السيد ساترثوايت وهو يشعر بالخجل . لقد بدأ يصبح عصبيًا هو أيضًا .

وهى لم تنظر إلى زوجها بينما كانت تصعد الدرج ، ولكنها الآن أدارت رأسها فوق كتفها ورمقته بنظرة استقصائية طويلة وحادة . وقد أثرت هذه النظرة على السيد ساترثوايت بشكل غريب .

فقد وجد نفسه يقول لمضيفته بطريقة مرتبكة للغاية : " تصبحين على خير " .

قالت الليدى لورا : " أتمنى أن يكون عامًا سعيدًا لنا جميعًا ، ولكن الموقف السياسى يبدو لى خطيرًا " .

قال السيد ساترثوايت بجدية : " نعم هذا صحيح " .

واصلت الليدى لورا حديثها دون أن تغير طريقتها فى الحديث إطلاقًا قائلة : " أنا فقط أتمنى أن يكون رجل أسود هو الذى يعبر العتبة أولاً . أنت تعرف هذه الخرافة على ما أعتقد يا سيد ساترثوايت ؟ ألا تعرفها ؟ إنك تدهشنى حقًا . لجلب الحظ لهذا المنزل ، يجب أن يكون أول من يعبر عتبته فى نهار العام الجديد هو رجل أسود . يا إلهى . أتمنى ألا أجد شيئًا مزعجًا فى فراشى . أنا لا أثق فى الأطفال مطلقًا . إنهم يتمتعون دومًا بروح معنوية مرتفعة " .

صعدت الليدى لورا الدرج فى خيلاء وهى تهز رأسها متوقعة حدوث شىء سيئ .

ومع مغادرة النساء ، تم جذب المقاعد قريبًا من بعضها البعض حول الأخشاب المتوهجة بالمدفأة الكبيرة .

قال إيفزهام بطريقة تنم عن حسن الضيافة وهو يحمل إناء الشراب : " قولوا متى " .

وحينما قال جميع الحاضرين متى ، عاد الحوار إلى الموضوع الذى كان التحدث فيه محظورًا قبل ذلك .

سأل كونواى : " أنت كنت تعرف ديريك كابيل ، أليس كذلك يا سيد ساترثوايت ؟ " .

" نعم ، معرفة سطحية " .

" وأنت يا بورتال ؟ " .

" لا ، أنا لم ألتق به قط " .

وقد قال عبارته تلك بطريقة عدائية ودفاعية ، لدرجة أن السيد ساترثوايت نظر إليه فى دهشة .

قال إيفزهام ببطء : " أنا أمقت حقًا قيام لورا بإثارة هذا الموضوع . بعد هذه المأساة ، كما تعلمون ، تم بيع هذا المنزل لصاحب مصنع كبير . ولكنه تركه بعد عام ـ فهو لم يناسبه أو شيئًا من هذا القبيل . وقد ظهرت الكثير من الشائعات السخيفة التى تقول بالطبع بأن المنزل مسكون بالأشباح . مما أكسبه سمعة سيئة . وبعد ذلك حينما أقنعتنى لورا بالعمل لصالح ويست كيدلباى كان ذلك يتطلب بالطبع شراء منزل فى هذه الأرجاء . ولم يكن من السهل إيجاد منزل مناسب . وكان منزل رويستون هذا يباع بسعر رخيص ـ لذا ، ففى النهاية قمت بشرائه . وموضوع الأشباح هذا هو مجرد خرافة ، ولكن بالطبع من المزعج أن يذكرك أحد طوال الوقت أنك تعيش فى منزل

قتل فيه أحد أصدقائك نفسه . ديريك المسكين ـ إننا لن نعرف مطلقًا لماذا قام بذلك " .

قال أليكس بورتال بثقل : " إنه لن يكون أول أو آخر شخص يقتل نفسه دون أن يستطيع تقديم مبرر لذلك " . نهض وصب لنفسه كوبًا آخر من الشراب .

قال السيد ساترثوايت لنفسه : " ثمة شيء غامض بخصوص هذا الرجل . أتمنى أن أعرف حقيقة الأمر " .

قال كونواى : " يا إلهى ! استمعوا إلى صوت الرياح . إنها ليلة عاصفة " .

قال بورتال وهو يضحك : " إنها ليلة مناسبة لخروج الأشباح . إن جميع الشياطين بجهنم تجوب الأرض الليلة " .

قال كونواى ضاحكًا : " وفقًا لما قالته الليدى لورا ، فحتى أسودهم سوف يجلب لنا الحظ . يا لها من خرافات ! " .

ارتفع صوت الريح على نحو مرعب مرة ثانية ، وحينما هدأت الرياح قرع شخص ما الباب الكبير ثلاث مرات .

أجفل الجميع .

صاح إيفزهام : " من بحق السماء الذى يمكن أن يأتى فى هذا الوقت من الليل ؟ " .

أخذوا يحملقون فى بعضهم البعض .

قال إيفزهام : " سوف أفتح أنا الباب . لقد نام جميع الخدم " .

مشى إلى الباب بخطوات واسعة وأخذ يتلمس بارتباك القضبان الحديدية وفى النهاية استطاع فتحها . تسللت لفحة من الهواء البارد إلى داخل الردهة .

وعند مدخل الباب كان يقف رجل طويل ونحيف . وقد بدا للسيد ساترثوايت ـ الذى كان ينظر بفضول عبر الزجاج العلوى الملطخ للباب ـ أنه يرتدى ملابس تحمل جميع ألوان الطيف . وبعد ذلك ، حينما تقدم للأمام بدا أنه رجل أسمر نحيف يرتدى ملابس قيادة سيارات .

قال الرجل الغريب بنبرة صوت لطيفة : " لابد أن أعتذر عن هذا التطفل . ولكن سيارتى تعطلت . إن بها مشكلة بسيطة والسائق الخاص بى يعمل على إصلاحها ، ولكن الأمر سيستغرق نصف ساعة تقريبًا والجو بارد للغاية فى الخارج ـ " .

توقف الغريب عن الحديث . فتولى إيفزهام زمام الحوار سريعًا :

" نعم إنه بارد حقًا . لماذا لا تدخل وتشرب شيئًا ما . إننا لا نستطيع أن نقدم أى مساعدة بشأن السيارة ، أليس كذلك ؟ " .

" لا ، شكرًا لك . إن سائقى يعرف ما ينبغى فعله . بالمناسبة ، إن اسمى كوين ـ هارلى كوين " .

قال إيفزهام : " تفضل بالجلوس يا سيد كوين . أقدم لك السير ريتشارد كونواى ، والسيد ساترثوايت . وأنا اسمى إيفزهام ".

قام السيد كوين بتحية الجميع وجلس على المقعد الذى جلبه إليه إيفزهام بلباقة . وبينما كان يجلس ألقى ضوء النار بعض الظل على وجهه ، مما جعله يبدو وكأنه يرتدى قناعًا .

ألقى إيفزهام لوحين خشبيين آخرين بالمدفأة .

" هل تريد مشروبًا ؟ " .

" شكرًا لك ".

جلب له إيفزهام الشراب وسأله فى أثناء ذلك :

" إذن أنت تعرف هذا المكان من العالم جيدًا ، أليس كذلك يا سيد كوين ؟ " .

" لقد جئت إلى هنا منذ بضع سنوات مضت ".

" حقًا ؟ " .

" نعم ، كان هذا المنزل ملكا لرجل يدعى كابيل ".

قال إيفزهام : " نعم ، ديريك كابيل المسكين . هل كنت تعرفه ؟ " .

" نعم كنت أعرفه ".

تغير سلوك إيفزهام بشكل طفيف ليصبح مقاربًا إلى حد بعيد لسلوك رجل لم يسبق له دراسة الشخصية الإنجليزية . فقبل ذلك كان سلوكه متحفظًا بعض الشىء ، أما الآن فقد تم تنحية ذلك التحفظ جانبًا . فقد

كان السيد كوين يعرف ديريك كابيل . وبالتالى فقد كان صديق صديقه ، كما أنه يبدو شخصية جديرة بالاحترام .

قال بنبرة واثقة : " أمر مذهل حقًا . لقد كنا نتحدث لتونا عن هذا الأمر . أستطيع أن أؤكد لك أننى لم أكن أرغب فى شراء هذا المنزل على الإطلاق . لقد بحثت عن مكان آخر مناسب ، ولكننى لم أجد . لقد كنت فى هذا المنزل حينما أطلق الرصاص على نفسه ، وكذلك السيد كونواى ، ولأصدقك القول : لقد ظننت دومًا أن شبحه سيجوب المنزل ".

قال السيد كوين ببطء وترو : " إن ما حدث لا تفسير له " ، ثم توقف عن الكلام وكأنه ممثل قد أدلى لتوه بتلميح مهم .

قال كونواى بحماسة : " نعم أنت محق ، إنه أمر لا تفسير له . إن الأمر هو لغز غامض – وسيظل هكذا دومًا ".

قال السيد كوين : " من يدرى . نعم يا سيد ريتشارد ، ماذا كنت تقول ؟ " .

" مذهل - كان الأمر مذهلاً . رجل فى مقتبل حياته ، مرح ، خفيف الظل ، لا يزعجه شىء بهذا العالم . وله خمسة أو ستة رفاق يقيمون معه . وكانت روحه المعنوية مرتفعة أثناء تناول العشاء ، ويتحدث عن خططه بشأن المستقبل . ومن طاولة العشاء يصعد مباشرة لغرفته ويأخذ مسدسًا من درج مكتبه ويطلق على نفسه الرصاص . لماذا ؟

لم يعرف أحد الإجابة على هذا السؤال ، لم يعرفها أحد قط " .

قال السيد كوين وهو يبتسم : " أليس تلك عبارة كاسحة يا سير ريتشارد ؟ " .

أخذ كونواى يحدق فيه .

" ماذا تعنى ؟ أنا لا أفهم " .

" إن المشكلة لا تكون بالضرورة غير قابلة للحل لأنها ظلت بلا حل " .

" لا أعتقد هذا ، إن لم يتم سبر أغوار لغز حين وقوعه ، فليس من المحتمل أن يتم سبر أغواره الآن - بعد مضى عشرة أعوام ؟ " .

هز السيد كوين رأسه برفق .

" أنا أختلف معك ، والأدلة التاريخية تؤيد صحة كلامى . فالمؤرخ المعاصر لا يكتب قط قصة واقعية كتلك التى يكتبها مؤرخ من جيل لاحق . إنها مسألة تبنى المنظور السليم ورؤية العلاقة بين الأمور . وإن كنت تحب ذلك فيمكنك أن تسميها - شأن أى شىء آخر - مسألة نسبية " .

اتكأ أليكس بورتال للأمام وقام بشد وجهه فى ألم .

صاح قائلاً : " أنت محق يا سيد كوين ، أنت محق . إن الزمن لا يقرر مصير مسألة ما - إنه فقط يطرحها بشكل جديد فى تنكر مختلف " .

كان إيفزهام يبتسم على مضض .

" إذن أنت تريد أن تقول بأننا إذا عقدنا ، مثلاً ، محاكمة تحقيق الليلة بشأن ملابسات موت ديريك كابيل فمن المحتمل أن لا نتوصل للحقيقة كما كان ينبغى أن نتوصل لها فى حينها ؟ " .

" غالبًا يا سيد إيفزهام ، فالجوانب الشخصية قد تراجعت الآن ، وأنت سوف تتذكر الحقائق كما هى دون أن تسعى لفرض تفسيرك الخاص عليها " .

قطب إيفزهام حاجبيه فى شك .

قال السيد كوين بنبرة صوته الهادئة المعتادة : " لابد أن يكون للمرء نقطة انطلاق بالطبع ، ونقطة الانطلاق عادة ما تكون نظرية . أنا واثق أنه لابد أن يكون لدى أحدكم نظرية بخصوص هذا الأمر . ماذا عنك يا سير ريتشارد ؟ " .

أخذ كونواى يفكر مليًا وهو مقطب جبينه .

قال بنبرة اعتذار : " حسنًا بالطبع ، لقد فكرنا - وجميعنا طرأت لنا نفس الفكرة - فى ضرورة ارتباط الأمر بامرأة ما . فمثل هذه الأمور تكون لسببين إما النساء وإما المال ، أليس كذلك ؟ ولم يكن الأمر بالطبع له علاقة بالمال . فهو لم يكن يعانى أية مشكلات فى هذا الصدد . إذن - ماذا يمكن أن يكون السبب وراء ما حدث ؟ " .

أجفل السيد ساترثوايت . فقد اتكأ للأمام ليدلى بملاحظة خاصة به وأثناء قيامه بذلك لمح امرأة منحنية على درابزين البهو بالأعلى . كانت منحنية عليه ، ولكن

حيث كان يجلس السيد ساترثوايت كان بإمكانه أن يراها تنصت باهتمام وتركيز لما كان يقال بالأسفل . وكانت تقف بدون حراك لدرجة أنه لم يكن يصدق ما يراه .

ولكنه تعرف على طراز الثوب بسهولة ـ ثوب مصنوع من قماش مطرز عتيق الطراز . لقد كانت إلينور بورتال .

وفجأة بدت أحداث الليلة برمتها نمطية ، فوصول السيد كوين لم يكن مجرد صدفة ، بل كان يمثل ظهور ممثل عند الإذن له بالدخول . كانت هناك مسرحية تعرض بالردهة الكبيرة فى رويستون الليلة ـ مسرحية يزيد من واقعيتها حقيقة موت أحد ممثليها . آه ! نعم ، ديريك كابيل كان له دور فى هذه المسرحية . كان السيد ساترثوايت واثقًا من ذلك .

ومرة أخرى وعلى حين غرة ، طرأت له فكرة أخرى . كان السيد كوين هو الشخصية الرئيسية هنا . إنه هو الذى يقوم بإخراج المسرحية ـ إنه هو الذى يقوم بتلقين الممثلين . لقد كان قلب اللغز ، وهو الذى يحرك الخيوط جاعلاً العرائس تتحرك . لقد كان يعلم كل شىء ، بما فى ذلك وجود السيدة الرابضة بالأعلى . نعم إنه كان يعلم ذلك .

وبينما كان يعود للخلف فى مقعده لاعبًا دور المتفرج ، أخذ السيد ساترثوايت يشاهد الدراما المعروضة عليه . وبهدوء وطبيعية كان السيد كوين يجذب الخيوط جاعلاً العرائس تتحرك .

قال وهو يفكر مليًا : " امرأة ـ نعم . لم يأت أحد على ذكر أى امرأة أثناء العشاء ؟ " .

صاح إيفزهام : " بالطبع لا ، لقد أعلن عن خطبته ، وهذا هو ما جعل الأمر يبدو ضربًا من الجنون . وهو كان متحفظًا بخصوص هذا الأمر للغاية ، وقال إنه لن يعلن عن الخطبة الآن ـ ولكنه ألمح لنا أنه يسعى لمصاهرة بينديك " .

قال كونواى : " وبالطبع قمنا جميعًا بتخمين العروس ، إنها مارجورى ديلك . فتاة لطيفة " .

بدا أنه دور السيد كوين فى التحدث ، ولكنه لم ينبس بكلمة . وقد بدا سكونه هذا مستفزًا بشكل غريب . فقد بدا وكأنه يتحدى العبارة الأخيرة . لقد أدى هذا السكون إلى حصار كونواى فى وضع دفاعى .

" من يمكنها أن تكون هذه المرأة أيضًا ؟ ما رأيك يا إيفزهام ؟ " .

قال توم إيفزهام ببطء : " لا أعرف . دعنى أتذكر ما قاله بدقة . شىء عن المصاهرة من بينديك ، وأنه لا يستطيع أن يفصح عن اسم هذه المرأة حتى تأذن له بذلك ـ فهو لن يعلن عن الخطبة الآن . لقد قال ، كما أتذكر ، إنه شخص محظوظ للغاية ، وأنه أراد أن يعرف صديقيه القديمين أنه فى مثل هذا الوقت من العام المقبل سيصبح رجلاً متزوجًا سعيدًا . وبالطبع نحن افترضنا أنها

مارجورى . فقد كانا صديقين مقربين ، وكانا يمضيان الكثير من الأوقات معًا مؤخرًا " .

قال كونواى " الشىء الوحيد ـــ " ثم توقف عن الكلام .

" ماذا تريد أن تقول يا ديك ؟ " .

" حسنًا ، أعنى أن الأمر لن يكون منطقيًا إذا كانت مارجورى هى العروس . فما الذى سيجعلهما لا يعلنان الخطبة على الفور . أعنى لماذا السرية ؟ يبدو الأمر كما لو أنها امرأة متزوجة ـ امرأة توفى زوجها للتو أو على وشك الطلاق " .

قال إيفزهام : " هذا صحيح . لو كان هذا هو الحال فلن يتم إعلان الخطبة على الفور . هل تعرف ، حينما أفكر فى الأمر فإننى لا أتذكر أنه كان يرى مارجورى كثيرًا . فهو كان على علاقة بها قبل ذلك بعام . وأنا أتذكر أنهما قد انفصلا " .

قال السيد كوين : " أمر مثير للفضول " .

" نعم ـ يبدو الأمر وكأن أحدًا قد فرق بينهما " .

قال كونواى وهو يفكر مليًا : " امرأة أخرى " .

قال إيفزهام : " بحق السماء ، لقد لاحظت كم كان ديريك مرحًا بشكل غير لائق تقريبًا هذه الليلة . لقد بدا كأنه مخمور من فرط السعادة . ومع ذلك فإنى لا أستطيع توضيح ما أعنيه ، فقد بدا أنه أمام تحد ما " .

قال أليكس بورتال : " لقد ظهر كرجل يتحدى القدر " .

هل يتحدث عن ديريك كابيل ـ أم أنه يتحدث عن نفسه ؟ أخذ السيد ساترثوايت يفكر بينما كان ينظر إليه . نعم كان هذا هو ما يمثله أليكس بورتال ـ رجل يتحدى القدر .

فخياله الذى تشوش بفعل الخمر استجاب فجأة لهذه الملاحظة من الحكاية ، والتى ذكرته بالأمر الغامض الذى يشغل باله .

نظر السيد ساترثوايت إلى أعلى . كانت لاتزال هناك ، تشاهد وتنصت ـ لا تزال بلا حركة ، وجامدة مثل امرأة ميتة .

قال كونواى : " هذا صحيح . كان كابيل يحس بالإثارة ـ وقد كان أمرًا مثيرًا للفضول حقًا . وأنا يمكننى وصفه برجل راهن بكل ما يملك ليفوز بشىء مخالف للأعراف التقليدية " .

اقترح بورتال : " ربما كان يستجمع شجاعته للشىء الذى عقد العزم على القيام به ؟ " .

وهكذا ، وبعد أن أثرت فيه مجموعة الأفكار تلك نهض ليصب لنفسه قدح شراب آخر .

قال إيفزهام بحدة : " إطلاقًا . أستطيع أن أقسم على أنه لم يكن هناك شىء من هذا القبيل يدور فى خلده . إن كونواى محق . لقد كان بمثابة مقامر ناجح فاز فوزًا

كبيرًا ، لدرجة أنه لم يكن يصدق كم هو سعيد الحظ . لقد كان ذلك هو ما يعكسه سلوكه " .

أومأ كونواى تعبيرًا عن الإحباط .

قال : " ومع ذلك ، بعدها بعشر دقائق ـــ " جلسوا جميعًا صامتين . وضع إيفزهام يده على الطاولة وهو يطرقها .

صاح : " لابد أن ثمة شيئًا ما قد حدث فى العشر دقائق تلك . لابد من هذا ! ولكن ماذا ؟ دعونا نسترجع ما حدث بدقة . لقد كنا جميعًا نتحدث . وفى منتصف الحديث نهض كابيل فجأة وغادر الغرفة ـــ "

قال السيد كوين : " لماذا ؟ " .

يبدو أن تلك المقاطعة أربكت إيفزهام .

" أستميحك عذرًا ؟ " .

قال السيد كوين : " أنا قلت فقط : لماذا ؟ " .

قطب إيفزهام فى محاولة لتنشيط الذاكرة .

" لم يبد الأمر مهمًا حينها ـ آه ! بالطبع ، البريد . ألا تذكر الجرس ، وكم كنا نشعر بالإثارة . لقد كانت هناك عواصف ثلجية استمرت ثلاثة أيام . أتذكر ؟ لقد كانت أقوى عاصفة ثلجية منذ سنوات وسنوات . جميع الطرق كانت مغلقة . لم يكن هناك جرائد . ولم تكن هناك خطابات . وقد خرج كابيل ليرى ما إذا كان قد وصل شىء فى النهاية ودخل وفى يده كومة كبيرة من الأشياء . جرائد وخطابات . وقد فتح الجريدة ليرى ما إذا كانت

هنالك أية أخبار جديدة ، ثم صعد الدرج مع الخطابات . وبعد ذلك بثلاث دقائق سمعنا طلقًا ناريًا ... شىء لا تفسير له ـ لا تفسير له على الإطلاق " .

قال بورتال : " بل يوجد تفسير . لابد أن يكون قد قرأ خبرًا مزعجًا غير متوقع بأحد الخطابات . إن ذلك واضح للغاية " .

" هل تعتقد أننا أغفلنا شيئًا بمثل هذا الوضوح . لقد كان أحد أول الأسئلة التى طرحها كرونر . ولكن كابيل لم يقم بفتح أى من الخطابات . فالرزمة بأكملها كانت غير مفتوحة فوق الطاولة " .

بدا أن بورتال قد شعر بالخجل . وقال :

" هل أنت واثق أنه لم يقم بفتح ولو حتى خطاب واحد ؟ ربما يكون قد مزقه بعد قراءته ؟ " .

" لا . أنا واثق من هذا . بالطبع كان ذلك سيحل اللغز . ولكن كانت جميع الخطابات غير مفتوحة . لم يكن هناك أى خطاب تم حرقه أو تمزيقه ـ فلم يكن هناك أية مدفأة بالغرفة " .

هز بورتال رأسه ، قائلاً :

" شىء غريب " .

قال إيفزهام بصوت خفيض : " لقد كان أمرًا مروعًا . فقد صعدت أنا وكونواى الدرج حينما سمعنا الطلق النارى ووجدناه هناك ـ لقد كانت صدمة حقيقية بالنسبة لى " .

قال السيد كوين : " لم يكن فى وسعكما فعل شىء سوى الاتصال بالشرطة على ما أعتقد " .

" لم يكن يوجد هاتف فى رويستون آنذاك . لقد قمت أنا بإدخال خط هاتف حينما اشتريت المنزل . لا ، لحسن الحظ ، تصادف أن كان الشرطى المحلى بالمطبخ فى ذلك الوقت . فأحد الكلاب - أنت تذكر روفر المسكين يا كونواى ؟ - قد ضل طريقه فى اليوم السابق . وقد وجده سائق عربة نقل نصف مدفون فى تكدس ثلجى ، وقام بأخذه إلى مركز الشرطة . وقد أدركوا أنه كلب كابيل ، بل كلبه المفضل فى الواقع . وقد جاء به الشرطى إلى المنزل . وقد وصل قبل دقيقة من سماع الطلق النارى . وقد وفر علينا هذا الأمر الكثير من العناء " .

قال كونواى متذكرًا : " يا إلهى ، لقد كانت عاصفة ثلجية قوية فى نفس هذا الوقت من العام ، أليس كذلك ؟ فى بداية يناير " .

" فبراير على ما أعتقد . دعنى أتذكر ، لقد سافرنا إلى الخارج بعدها بفترة وجيزة " .

" أنا واثق أنه كان يناير . أتذكر كلب الصيد الخاص بـ " نيد " ؟ لقد أصبح أعرج فى نهاية يناير . كان ذلك بعد هذا الحادث مباشرة " .

" لابد أن يكون نهاية يناير إذن . من المذهل حقًا أن ينسى المرء التواريخ بعد انقضاء حقبة طويلة من الزمن " .

قال السيد كوين : " إن أحد أصعب الأشياء فى العالم هو أن تتذكر التواريخ . إلا إذا وجدت علامة تاريخية مميزة فى الأحداث العامة - اغتيال شخصية ملكية أو محاولة قتل شهيرة " .

صاح كونواى : " نعم ، تذكرت . لقد كان ذلك قبيل قضية أبلتون " .

" بعدها مباشرة ، أليس كذلك ؟ " .

" لا ، لا ، ألا تذكر - لقد كان كابيل يعلم بأمر عائلة أبلتون - فقد أقام مع الرجل العجوز فى الربيع السابق ، قبل أسبوع فقط من وفاته . وقد كان يتحدث عنه فى إحدى الليالى ، ويصفه بأنه كان شخصًا عجوزًا بخيلاً - وكم كان بغيضًا أن تتزوج امرأة صغيرة وجميلة مثل السيدة أبلتون من شخص مثله . لقد كان الجميع واثقين من أنها قامت بقتله " .

" أنت محق . أنا أذكر أننى قرأت فقرة فى إحدى الصحف تفيد بصدور قرار باستخراج الجثة وتشريحها . لقد حدث ذلك فى نفس اليوم - أذكر أننى رأيتها وذهنى شارد للغاية ، حيث كنت أفكر فى ديريك المسكين الذى يرقد جثة هامدة بالطابق العلوى " .

قال السيد كوين : " نعم ، لقد كان خبرًا مميزًا ومثيرًا للفضول فى الوقت ذاته . فى أوقات الضغط العصبى الهائل ، يركز العقل على أمور غير مهمة للغاية ، ويقوم بتذكرها بعد فترة طويلة بصفاء كبير . وقد يكون هذا

الشيء حدثا غير مهم على الإطلاق مثل رؤية هذه الجريدة . ولكنه يظل عالقًا بالذاكرة إلى ما لا نهاية " .

قال كونواى : " من الغريب حقا أن تقول ذلك يا سيد كوين . فبينما كنت تتحدث شعرت كأننى فى غرفة ديريك ثانية - وديريك ممدد على الأرض - وقد رأيت بوضوح كبير الشجرة الكبيرة خارج النافذة ، والظلال التى تلقيها على الثلج أسفلها . نعم ضوء القمر ، الثلج ، وظل الشجر ، أستطيع رؤيتهم جميعًا فى هذه اللحظة . يا إلهى! أعتقد أن بإمكانى رسم هذه اللوحة ، ومع ذلك فإننى لم أدرك قط أننى كنت أنظر لهذه الأشياء فى ذلك الوقت " .

سأل السيد كوين : " كانت حجرته هى الغرفة الكبيرة فوق الشرفة ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم ، وكانت هذه هى شجرة الزان الكبيرة التى توجد عند المنعطف " .

أومأ السيد كوين موافقًا . كان السيد ساترثوايت يشعر بإثارة بالغة . لقد كان مقتنعًا أن كل كلمة وكل نبرة صوت يصدرها السيد كوين كانت زاخرة بالمعنى . لقد كان يرمى إلى شيء ما - وهو الشيء الذى لم يكن السيد ساترثوايت يعرفه بدقة - ولكن كان واثقا أنه هو صاحب اليد العليا فى هذه الجلسة .

توقف الجميع عن الحديث لحظة . ثم استكمل إيفزهام الحديث فى الموضوع السابق :

" قضية أبلتون هذه أتذكرها جيدًا الآن ، لقد أثرت علينا بدرجة كبيرة . لقد حصلت على البراءة أليس كذلك ؟ لقد كانت امرأة جميلة حقًا ، جميلة للغاية " .

ودون أن يقصد ذلك وجد السيد ساترثوايت نفسه ينظر إلى أعلى إلى السيدة الجاثمة فوقه . هل كان يتخيل ذلك ؟ هل تراجعت قليلاً فى جزء من الثانية ؟ هل رأى يدًا تتحرك على غطاء الطاولة ثم توقفت ؟

دوى فجأة صوت تحطم كوب زجاجى على الأرض . لقد أسقط أليكس بورتال الكوب أثناء صبه الشراب لنفسه .

" أنا آسف حقًا ، لا أعرف ماذا حل بى " .

اعترض إيفزهام طريق اعتذاراته ، قائلا :

" لا بأس ، لا بأس يا صديقى العزيز . أمر مثير - إن تحطم الكوب هذا ذكرنى بشيء ما . إن هذا هو ما فعلته ، أليس كذلك ؟ السيدة أبلتون ؟ حطمت إناء الخمر ؟ " .

" نعم كان أبلتون العجوز يشرب كأسا من الشراب - كأسًا واحدة فقط - كل ليلة . وفى اليوم التالى لوفاته رآها أحد الخدم تأخذ إناء الشراب وتحطمه عن عمد ، مما أثار الشك فى نفوسهم بالطبع وجعلهم يتحدثون . لقد كانوا يعلمون جميعًا أنها كانت تعيسة معه . وانتشرت الشائعات . وفى النهاية - بعد مضى شهور - طالب أحد

أقربائه باستخراج الجثة . وقد اتضح أن العجوز قد مات بالسم . الزرنيخ . أليس كذلك ؟ " .

" لا ـ الاستركنين على ما أعتقد . لا يشكل ذلك أهمية . حسنًا بالطبع ، حينها كان ذلك مهما ، وكان هناك متهم واحد فقط . فقد وُجهت التهمة للسيدة أبلتون وتمت محاكمتها . وقد نالت براءتها بسبب نقص الأدلة وليس بسبب نجاحها فى إثبات براءتها . بمعنى آخر ، لقد كانت محظوظة . نعم أعترف أنها كانت لديها المبررات الكافية التى جعلتها تقوم بذلك . ولكن ماذا حدث لها بعد ذلك ؟ " .

" هل هاجرت إلى كندا على ما أعتقد ، أم إلى أستراليا ؟ إن لديها عما مقيما هناك أو شيئا من هذا القبيل . وقد عرض عليها منزلاً لتقيم فيه . إنه أفضل شيء يمكنه القيام به فى ظل هذه الظروف " .

كان السيد ساترثوايت مأسورًا بالطريقة التى يمسك بها أليكس بورتال بالكوب فى يده اليمنى . لقد كان محكمًا قبضته حول الكوب بشدة .

فكر السيد ساترثوايت : " سوف تقوم بتحطيمه خلال دقيقة أو اثنتين ، إذا لم تتوخ الحذر . يا إلهى ، إن كل ما يحدث مثير للغاية " .

نهض إيفزهام وصب كأسًا من الشراب لنفسه .

قال : " حسنًا ، إننا لم نقترب من معرفة السبب الذى جعل ديريك كابيل يطلق النار على نفسه . إن

التحقيق لم يحقق نجاحًا كبيرًا ، أليس كذلك يا سيد كوين ؟ " .

ضحك السيد كوين .

كانت ضحكة غريبة تشوبها سخرية ، ومع ذلك كانت حزينة . وقد جعلت الجميع يجفلون .

قال : " أستميحك عذرًا . إنك مازلت تعيش فى الماضى يا سيد إيفزهام . فمفهومك السابق عن هذا الأمر مازال يقوضك . ولكن أنا ـ الرجل الذى جاء من الخارج ، الغريب الذى يمر بالمكان ـ لا أرى سوى الحقائق ! " .

" الحقائق ؟ " .

" نعم ـ الحقائق " .

قال إيفزهام : " ماذا تعنى ؟ " .

" أنا أرى سلسلة متتالية من الحقائق التى قمتم بعرضها علىّ ، ولكننى أرى أنكم لا ترون مغزاها . دعونا نرجع عشر سنوات إلى الوراء وننظر إلى ما نراه ـ دون أن تؤثر أية أفكار أو مشاعر على رؤيتنا تلك " .

نهض السيد كوين فبدا طويلاً للغاية . كانت النيران فى المدفأة تثب وراءه . كان يتحدث بنبرة صوت منخفضة ومهيمنة ، قائلاً :

" بينما كنتم تتناولون العشاء إذ أعلن ديريك كابيل عن خطبته . لقد كنتم تظنون أنها كانت ماجورى ديلك . ولكنكم غير واثقين من هذا الأمر الآن . وهو كان يتصرف كرجل استطاع ، بنجاح ، أن يتحدى القدر ، رجل قام ـ

كما قلت أنت ـ بتحدى الأعراف التقليدية . بعد ذلك يدق الجرس . يخرج ليأتى بالبريد المتأخر . وهو لم يقم بفتح خطاباته ، ولكنكم ذكرتم *أنه قد فتح الجريدة ليلقى نظرة على الأخبار* . لقد كان ذلك منذ عشرة أعوام مضت ، لذا فلم يعد باستطاعتنا أن نعرف ماذا كانت الأخبار فى ذلك اليوم ، زلزال ما ، أزمة سياسية وشيكة ؟ الشيء الوحيد الذى نعرفه عن محتوى الجريدة هو أنها اشتملت على *فقرة صغيرة تفيد بأن الشرطة المحلية قد وافقت على استخراج* جثة السيد أبلتون منذ ثلاثة أيام مضت " .

" ماذا ؟ " .

استكمل السيد كوين حديثه .

" يصعد ديريك كابيل إلى غرفته وهناك يرى شيئًا خارج النافذة . لقد أخبرنا السيد ريتشارد كونواى أن الستارة كانت مفتوحة وأن النافذة كانت تطل على منعطف الطريق . ماذا عساه قد رأى ؟ ما الذى قد رآه وجعله يزهق روحه بثقة ؟ " .

" ماذا تعنى ؟ ماذا رأى ؟ " .

قال السيد كوين : " أعتقد أنه رأى رجل شرطة ! رجل شرطة جاء بخصوص كلب ـ ولكن ديريك كابيل لم يكن يدرى ذلك ـ لقد رأى فقط شرطيًا " .

سادت فترة طويلة من الصمت ـ وكأنهم كانوا يستوعبون ما قد قيل .

همس إيفزهام أخيرًا : " يا إلهى ! أنت لا تعنى هذا ؟ أبلتون ؟ ولكنه لم يكن هناك حينما توفى أبلتون . لقد كان الرجل العجوز وحده بصحبة زوجته ــ " .

" ولكنه ربما كان هناك قبل ذلك بأسبوع . إن الاستركنين لا يكون قابلاً للذوبان للغاية إلا إذا أتى فى هيئة هيدروكلوريد . فالقدر الأكبر منه كان يوجد فى قعر الإناء ، أى أنه كان سيتركز فى الكوب الأخير ، والذى ربما سيتم تجرعه بعد أسبوع من مغادرته " .

اتكأ بورتال للأمام . كان صوته أجش وعيناه حمراوين .

صاح قائلاً : " لماذا قامت بكسر الإناء ؟ لماذا كسرت الإناء ؟ فسر لى ذلك " .

وللمرة الأولى فى هذه الليلة يوجه السيد كوين الحديث للسيد ساترثوايت .

" إنك تملك خبرة واسعة بالحياة يا سيد ساترثوايت . ربما يمكنك أن تجيب أنت على هذا السؤال " .

ارتعش صوت السيد ساترثوايت قليلاً . فقد أذن له المخرج بالحديث أخيرًا . وها هو سوف يدلى ببعض أهم العبارات فى المسرحية . لقد أصبح ممثلا الآن وليس متفرجًا .

قال بتواضع وفى صوت خفيض : " كما يتراءى لى ذلك ، فإنها كانت تهتم لأمر ديريك كابيل . لقد كانت كما أعتقد امرأة صالحة ، وقد صدت محاولاته للتقرب

منها . وحينما توفى زوجها تشككت فى سبب الوفاة . وهكذا ولإنقاذ الرجل الذى أحبته فإنها حاولت تدمير الدليل الذى يثبت إدانته . وفيما بعد ، على ما أعتقد ، استطاع أن يقنعها أن شكوكها ليس لها أى أساس من الصحة ، وقد وافقت على الزواج منه . ولكن حتى فى ذلك الحين كانت لا تزال متشككة فى الأمر . يا للنساء ! إنهن يمتلكن غريزة قوية " .

وهكذا لعب السيد ساترثوايت دوره فى المسرحية .

وفجأة سمع الجميع صوت تنهد عال يملأ المكان .

صاح إيفزهام : " يا إلهى : ماذا كان هذا ؟ " .

كان بإمكان السيد ساترثوايت أن يخبرهم بأنها إلينور بورتال فى الطابق العلوى ، ولكنه كان مولعًا بالفنون لدرجة منعته من إفساد اللحظة :

كان السيد كوين يبتسم قائلا :

" لابد أن يكون السائق قد انتهى من إصلاح السيارة . شكرًا لك لحسن ضيافتك يا سيد إيفزهام . أتمنى أن أكون قد أسديت لصديقى بعض النفع " .

أخذوا يحدقون فى وجهه فى دهشة بالغة .

" ألم تنظروا إلى الأمر من هذا الجانب ؟ لقد أحب هذه المرأة . أحبها لدرجة جعلته يقتل من أجلها . وحينما حان وقت عقابه ـ كما ظن على سبيل الخطأ ـ قام بقتل نفسه ، ولكنه بدون قصد تركها لتواجه العواقب وحدها " .

قال إيفزهام : " لقد نالت البراءة " .

" لعدم استطاعة الدفاع إثبات التهمة ضدها . وأنا أعتقد ، وقد يكون ذلك مجرد اعتقاد ، أنها مازالت تواجه العواقب " .

غاص بورتال داخل مقعده ودفن وجهه داخل يديه .

استدار كوين ناحية ساترثوايت ، وقال :

" إلى اللقاء يا سيد ساترثوايت . إنك من عشاق الدراما ، أليس كذلك ؟ " .

أومأ السيد ساترثوايت فى دهشة .

" لابد أن أزكى لك قراءة Harlequinade . لم يعد أحد يقرأها الآن ولكنها تستحق القراءة حقًا . ورمزيتها صعبة التتبع بعض الشىء ـ ولكن فساد الأخلاق يظل دومًا فسادًا أخلاقيًا . أتمنى لكم جميعًا ليلة سعيدة " .

رأوه جميعًا يخرج إلى الظلام . وكما حدث فى السابق فقد جعله الزجاج الملون يبدو كالمهرج .

صعد السيد ساترثوايت إلى الطابق العلوى . وقد ذهب لإغلاق نافذته حيث كان الجو باردًا ، وهناك رأى السيد كوين ينحرف عند المنعطف ومن باب جانبى خرجت امرأة . كانت تجرى . وطوال دقيقة ظلا يتحدثان معًا ثم عادت أدراجها إلى المنزل . وقد مرت أسفل النافذة مباشرة وقد ذهل السيد ساترثوايت ثانية من مدى الحيوية التى رآها على وجهها . كانت الآن تتحرك كأنها امرأة ترى حلمًا جميلا .

" إلينور ! " .

انضم أليكس بورتال إليها ، وقال :

" سامحيني يا إلينور . سامحيني ـ لقد أخبرتني بالحقيقة ولكنني لم أصدقك ، وأتمنى أن يسامحني الله على ذلك ... " .

كان السيد ساترثوايت يهتم كثيرًا بأن يعرف شئون الآخرين ، ولكنه كان أيضًا رجلاً نبيلاً . فقد شعر أن عليه إغلاق النافذة الآن . وقد فعل ذلك .

ولكنه أغلقها ببطء شديد .

لقد سمع صوتها . كان فاتنًا ولا يمكن وصفه ، وهي تقول :

" أعرف ـ أعرف . لقد كنت تعيش في جحيم حقيقي ، وهكذا كنت أنا قبلك . في حالة من الحب ـ ومع ذلك تتخبط داخل دائرة من التصديق والشك ـ تلقى شكوكك جانبًا ولكنها تتملك منك مرة أخرى ... أعلم ذلك يا أليكس . أعلمه جيدًا ... ولكن هناك جحيمًا أسوأ من هذا . الجحيم الذى عشت بداخله معك . لقد رأيت شكك ـ وخوفك مني . والذى سمم حبنا . وقد أنقذني هذا الرجل الغريب . أنا لم يكن في وسعي التحمل أكثر من ذلك وأنت تعي ذلك . فالليلة كنت سأقتل نفسي .. أليكس .. أليكس ... " .

الفصل ٢

الظل على الزجاج

١

قالت الليدى سينثيا دريدج : " أنصت إلى هذا " .

أخذت تقرأ بصوت عال من الجريدة التى كانت تمسك بها بيديها :

" يقيم السيد والسيدة أنكرتون حفلاً بمنزل جرينوايز هذا الأسبوع . ومن بين المدعوين الليدى سينثيا دريدج والسيد والسيدة ريتشارد سكوت والرائد بورتر الحاصل على وسام التميز والسيدة ستافرتون والنقيب ألينسون والسيد ساترثوايت " .

أضافت الليدى سينثيا ، وهى تضع الجريدة جانبًا : " إذن ، نحن مدعوان إلى الحفل . ولكنهما قاما بإفساد كل شيء ! " .

نظر إليها رفيقها والذى كان هو نفسه السيد ساترثوايت ـ الذى جاء اسمه الأخير في قائمة المدعوين ـ

نظرة استفسارية . لقد قيل إنك حين تجد السيد ساترثوايت فى منزل أحد الأثرياء النازحين جديدًا ، فإن ذلك يكون مؤشرًا إما أن طعامهم شهى للغاية أو أن خيوط دراما إنسانية تنسج هناك . فكان السيد ساترثوايت يهتم كثيرًا لأمر كوميديا وتراجيديا الآخرين من بنى البشر .

وقد أطلعته الليدى سينثيا ـ والتى كانت امرأة فى منتصف العمر وصاحبة وجه جامد تضع فوقه الكثير من مساحيق التجميل ـ على آخر صيحات المظلات الشمسية للسيدات ، حيث كانت تضع واحدة فوق ركبتيها ، وقالت :

" لا تدع أنك لا تفهم مقصدى . فأنت تفهمه جيدًا . علاوة على ذلك ، فأنا أومن بأنك جئت إلى هنا متعمدًا لتشهد ما سيحدث ! " .

اعترض السيد ساترثوايت على كلامها بشدة . فهو لم يكن يمتلك أدنى فكرة عما كانت تتحدث بشأنه ، فأردفت :

" أنا أتحدث عن ريتشارد سكوت . هل ستدعى بأنك لم تسمع به قط ؟ " .

" لا ، بالطبع لا . إنه رجل الألعاب المعروف ، أليس كذلك ؟ " .

" إنه هو ـ " الدببة والنمور الكبيرة ، إلخ " كما تقول الأغنية . وبالطبع هو أصبح أسدًا كبيرًا الآن ـ وعائلة أنكرتون سيبذلون قصارى جهدهم ليستحوذوا عليه لتلك

العروس ! إنه فتى ساحر ـ يا إلهى ! ساحر للغاية ولكنه ساذج ، فهو بالكاد فى العشرين من عمره ، بينما يدل مظهره على أنه يجب أن يكون على الأقل فى الخامسة والأربعين " .

قال السيد ساترثوايت برزانة : " تبدو السيدة سكوت ساحرة للغاية " .

" نعم ، المسكينة " .

" لماذا هى مسكينة ؟ " .

رمقته الليدى سينثيا بنظرة عتاب ، واستمرت فى طرح الموضوع بطريقتها الخاصة :

" إن بورتر لا بأس به ـ بالرغم من أنه يشبه الكلب الكسول ـ وهو أحد هؤلاء الصيادين الأفارقة الصامتين الذين حرقت الشمس أجسامهم . وهو تابع لريتشارد سكوت وظل دومًا هكذا ـ فهما صديقان قديمان وما إلى ذلك . وحينما أمعن التفكير فى الأمر ، يتراءى لى أنهما كانا معًا فى هذه الرحلة ــ " .

" أية رحلة ؟ " .

" الرحلة . رحلة السيدة ستافرتون ، هل ستقول لى إنك لم تسمع من قبل عن السيدة ستافرتون ؟ " .

قال السيد ساترثوايت وهو غير راغب فى الكلام :

" لقد سمعت عن السيدة ستافرتون " .

ظل هو والليدى سينثيا يتبادلان النظرات .

قالت الأخيرة منتحبة : " إنهم يشبهون تمامًا عائلة أنكرتون . إنهم حالة ميئوس منها ـ أعنى اجتماعيًا . إنها فكرة دعوة هذين الشخصين معًا ! بالطبع لقد سمعا أن السيدة ستافرتون كانت رياضية ورحالة وما إلى ذلك ، وسمعا عن كتابها . إن أشخاصًا مثل عائلة أنكرتون لا يدركون حتى المخاطر الموجودة حولهم ! لقد كنت أعمل لديهم العام الماضى وما خضته معهم لا يعرف عنه أحد شيئًا . إنهم متسلطون للغاية . " لا تفعلى ذلك ! ليس بإمكانك القيام بذلك " . حمدًا لله أننى قد ابتعدت عنهم الآن . ونحن لم نتشاجر . لا ، لا ، أنا لا أتشاجر مع أى أحد ، ولكن يمكن لأحد غيرى أن يتولى هذه الوظيفة ، فكما أقول دومًا : أستطيع أن أتحمل السوقية والابتذال ولكنى لا أستطيع تحمل الحقارة والوضاعة ! " .

بعد هذه العبارة المبهمة بعض الشىء ظلت الليدى سينثيا صامتة لدقيقة تفكر فى مدى حقارة عائلة أنكرتون والتى شهدتها بنفسها .

واصلت حدثيها قائلة : " لو أننى كنت لا أزال أعمل لديهم لكنت قد قلت لهم بحزم ووضوح " ليس بإمكانكم دعوة السيدة ستافرتون مع ريتشارد سكوت . فهو وهى كانا ذات مرة ـــ "

توقفت عن الكلام .

سأل السيد ساترثوايت : " ولكن ، هل هذا حقيقى ؟ " .

" يا عزيزى ، إنه أمر يعرفه الجميع ، هذه الرحلة التى ذهبا إليها ! أنا مندهشة لأن المرأة واتتها الجرأة لقبول الدعوة " .

اقترح السيد ساترثوايت قائلاً : " ربما لم تكن تعرف بمجىء الآخرين " .

" وربما كانت تعرف . وذلك هو الاحتمال الأكبر " .

" هل تعتقدين ذلك ـــ ؟ "

" إنها من نوع أطلق عليه " امرأة خطيرة " ؛ ذلك النوع من النساء الذى ليس لديه أية مبادئ . أنا لا أتمنى أن أكون فى مكان ريتشارد سكوت فى عطلة نهاية الأسبوع هذه " .

" وزوجته لا تعرف شيئًا ، أليس ذلك ؟ " .

" أنا واثقة من هذا . ولكننى أعتقد أن صديقًا يعرف بالأمر سوف يخبرها إن آجلاً أم عاجلاً . ها هو ذا جيمى ألينسون ، إنه فتى لطيف ، لقد أنقذ حياتى فى مصر العام الماضى ـ فقد كنت أشعر بملل شديد كما تعرف . مرحبًا يا جيمى ، تعال هنا " .

انصاع النقيب ألينسون وجلس على العشب بجوارها . كان شابا وسيمًا فى الثلاثين من عمره وذا أسنان بيضاء وابتسامة خلابة .

قال : " أنا سعيد لأن هناك من يريدنى . فآل سكوت يصطادون ، وهناك حاجة إلى شخصين فقط ، وليس ثلاثة ويقوم بورتر بالمساعدة ، وقد كنت معرضًا لخطر البقاء مع مضيفتى " .

ضحك وضحكت الليدى سينثيا معه . أما السيد ساترثوايت ـ والذى كان عتيق الطراز إلى حد ما ، ونادرًا ما يقوم بالسخرية من مضيفه أو مضيفته حتى يغادر منزلهما ـ فقد ظل صامتًا .

قالت الليدى سينثيا : " يا لك من مسكين يا جيمى " .

" أنا لم أكترث لذلك ، فقد كان كل ما يهمنى هو أن ألوذ بالفرار . وقد استطعت الهرب بسماعى قصة شبح العائلة " .

قالت الليدى سينثيا : " شبح فى منزل أنكرتون . يا له من شئ مخيف " .

قال السيد ساترثوايت : " ليس فى منزل أنكرتون ولكن فى منزل جرينوايز . لقد اشتروه مع المنزل " .

قالت الليدى سينثيا : " بالطبع . أنا أتذكر الآن ، ولكنه لا يقوم بقعقعة السلاسل . أليس كذلك ؟ إنه فقط له علاقة بنافذة ما " .

نظر جيمى ألينسون إلى أعلى سريعًا .

" نافذة ؟ " .

ولكن ، لمدة دقيقة ، لم يُجب السيد ساترثوايت . فقد كان ينظر من فوق رأس جيمى إلى ثلاثة أشخاص يقتربون من ناحية المنزل ـ فتاة نحيفة بين رجلين . كان هناك تشابه غريب بين الرجلين ، فكلاهما كان طويلاً وداكن البشرة وذا وجه برونزى وعينين سريعتين ، ولكن حين اقتربا أكثر اختفى الشبه بينهما . ريتشارد سكوت ـ صياد ومستكشف ـ كان رجلاً ذا شخصية حيوية للغاية وجذابًا إلى درجة كبيرة . وجون بورتر ـ صديقه وزميله فى الصيد ـ كان رجلاً ذا تكوين جسمانى مربع ووجه جامد وكأنه خشبى ، والذى يرضى دومًا بأن يكون تابعًا لصديقه .

وبين هذين الرجلين كانت تسير موارا سكوت والتى قبل ثلاثة أشهر فقط كانت موارا أوكونيل . كانت امرأة نحيفة وذات عينين واسعتين حزينتين ، وشعر أحمر ذهبى كان يلتف حول رأسها الصغير مثل هالة رجل الدين .

قال السيد ساترثوايت لنفسه : " لا يجب جرح مشاعر هذه الفتاة . سيكون أمرًا بغيضًا حقًا أن تتعرض فتاة مثل هذه للجرح " .

قامت الليدى سينثيا بتحية الضيوف بالتلويح لهم بآخر صيحة من مظلات السيدات .

قالت : " اجلسوا ولا تقاطعوا ، فالسيد ساترثوايت يروى لنا قصة عن شبح " .

قالت موارا سكوت : " أنا أحب قصص الأشباح " ، ثم جلست فوق العشب .

سأل ريتشارد سكوت : " شبح منزل جرينوايز ؟ " .

" نعم ، أنت تعلم بشأنه ؟ " .

أومأ سكوت .

قال : " لقد اعتدت المكوث هنا فى الماضى . قبل بيع عائلة إليوت للمنزل . الفارس الشاهد ، هذا هو ، أليس كذلك ؟ " .

قالت زوجته برقة : " الفارس الشاهد ، أحب وقع هذه العبارة . يبدو الأمر مثيرًا . من فضلك ، استكمل الحكاية " .

ولكن بدا السيد ساترثوايت كارهًا بعض الشىء أن يقوم بذلك . وقد أكد لها أنها ليست رواية مثيرة حقا .

قال ريتشارد سكوت ساخرًا : " لا تفعل ذلك يا ساترثوايت . إن هذا التردد يزيد من رغبتنا فى سماع الحكاية " .

واستجابة لكل هذا الصخب والتذمر اضطر السيد ساترثوايت لسرد الحكاية .

قال معتذرًا : " إنها حقًا غير مثيرة . أعتقد أن القصة الأصلية تدور حول فارس من الأسلاف القدماء لعائلة إليوت ، كان لزوجته عشيق ما . وقد قتل هذا العشيق الزوج فى غرفة علوية وهربت الزوجة مع العشيق ولكن أثناء ذلك نظرا ثانية إلى المنزل فرأيا وجه الزوج الميت على

النافذة ينظر إليهما . تلك هى الخرافة . ولكن حكاية الشبح لها علاقة فقط بأحد الألواح الزجاجية فى النافذة بتلك الغرفة التى وقعت بها الجريمة ، حيث توجد فوقه بقعة غير منتظمة ولكنها لا يمكن تمييزها من مسافة قريبة ولكنها تبدو من بعيد كوجه رجل ينظر إلى الخارج " .

سألت السيدة سكوت وهى تنظر للأعلى إلى المنزل : " أى نافذة هى ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " لا يمكنك رؤيتها من هنا . إنها بالجانب الآخر من المنزل . وقد تم إغلاقها بالألواح الخشبية من الداخل منذ عدة سنوات مضت ـ منذ أربعين عامًا مضت على وجه التحديد " .

" لماذا قاموا بذلك ؟ أعتقد بأنك قلت إنه لا يتحرك " .

قال السيد ساترثوايت مؤكدًا : " إنه لا يتحرك بالفعل . أعتقد فقط أنهم قاموا بذلك من منطلق إيمانهم بالخرافات ، هذا هو كل ما فى الأمر " .

وبعد ذلك ، وبلباقة كبيرة ، استطاع أن يدير دفة الحوار . ففى ذلك الحين كان جيمى ألينسون مستعدًا أن يلقى خطبة حول عرافى الرمال المصريين .

" إن معظمهم دجالون . فهم على استعداد لأن يخبروك بأمور غامضة عن الماضى ، ولكنهم لا يكلفون أنفسهم عناء إخبارك أى شىء عن المستقبل " .

قال جون بورتر : " كنت أظن أنهم يقومون بالعكس " .

قال ريتشارد سكوت : " إن التنبؤ بالمستقبل ليس قانونيًا فى هذا البلد ، أليس كذلك ؟ لقد أقنعت موارا امرأة غجرية بأن تتنبأ لها بالمستقبل ، ولكن المرأة أعادت لها الشلن مرة أخرى ، وقالت إنه ليس بالإمكان فعل شىء أو قول شىء فى هذا الأمر " .

قالت موارا : " ربما تكون قد رأت شيئًا مخيفًا ولم ترغب فى أن تقوله لى " .

قال ألينسون : " لا تكونى مأساوية يا سيدة سكوت . أنا شخصيًا أرفض الاعتقاد بأنه بانتظارك مصير سيئ " .

فكر السيد ساترثوايت فى قرارة نفسه : " أنا فقط أتساءل ... " .

وبعد ذلك نظر لأعلى بحدة ، حيث كانت هناك سيدتان تقتربان من ناحية المنزل . كانت إحداهما امرأة بدينة وذات شعر أسود وترتدى ملابس لا تتلاءم مع بعضها البعض لونها أخضر مزرق ، والأخرى امرأة طويلة ونحيفة ترتدى ملابس بيضاء الكريمة . كانت السيدة الأولى هى مضيفته السيدة أنكرتون ، والثانية كانت سيدة سمع عنها كثيرًا ولكنه لم يرها قبل ذلك مطلقًا .

أعلنت السيدة أنكرتون بنبرة تنم عن الرضا البالغ : " ها هى السيدة ستافرتون . إن جميع الأصدقاء هنا على ما أعتقد " .

قالت الليدى سينثيا هامسة : " إن هؤلاء الأشخاص يتمتعون بموهبة خارقة فى التفوه بأبشع الأشياء " ، ولكن السيد ساترثوايت لم يكن منصتًا . لقد كان ينظر إلى السيدة ستافرتون .

كانت تتحدث بسلاسة وطبيعية .

قالت باستخفاف : " مرحبًا يا ريتشارد ! إننا لم نلتق منذ وقت بعيد . أعتذر عن عدم حضورى الزفاف . هل هذه زوجتك . لابد أنك قد تعبتِ من مقابلة كل أصدقاء زوجك القدامى " . كان رد موارا لائقًا ولكن خجلاً . أخذت المرأة الأكبر سنا ترمق الحاضرين بعينيها إلى أن رأت صديقًا قديمًا .

" مرحبًا يا جون ! " .

" مرحبًا يا جون ! " نفس النبرة السلسة ، ولكن مع فارق طفيف هذه المرة ـ كانت تحتوى على دفء كان غائبًا حينما تحدثت المرة السابقة .

وبعد ذلك كانت تلك الابتسامة الفجائية . لقد قامت بتحويلها . كانت الليدى سينثيا محقة . امرأة خطيرة ! جميلة للغاية ـ عينان زرقاوان عميقتان ـ ليسا بنفس اللون التقليدى لعينى المرأة الخطيرة ـ وجه شبه جامح ولكنه ساكن . إنها امرأة ذات صوت بطىء وابتسامة فجائية خلابة .

جلست إيريس ستافرتون . وقد أصبحت بشكل طبيعى ومتعذر تجنبه مركز المجموعة . لذا يتولد لدى المرء شعور بأن ذلك يحدث دائمًا .

قطع حبل أفكار السيد ساترثوايت اقتراح بورتر بالذهاب للتمشية . وقد أذعن السيد ساترثوايت بالرغم من أنه لا يهوى التمشية كثيرًا . قام الرجلان وتمشيا الهوينى معًا عبر المروج .

قال الرائد : " يا لها من قصة مثيرة تلك التى قصصتها علينا الآن " .

قال السيد ساترثوايت : " سوف أريك النافذة " .

قاده حول الجانب الغربى من المنزل . كانت هناك حديقة تقليدية صغيرة ، تدعى حديقة برايفى ، وقد سميت بهذا الاسم لسبب ؛ حيث إنه كان يحوطها سياج مرتفع من شجيرات البهشية ، وحتى مدخلها كان متعرجًا وتحوطه نفس السياجات الشائكة العالية .

أما من الداخل فقد كانت خلابة حيث كانت تزخر بالمزاهر وصفائح الحجر اللوحى كما كان بها مقعد حجرى منخفض ومنحوت بشكل فاتن . وحينما وصلا إلى منتصف الحديقة استدار السيد ساترثوايت وأشار إلى أعلى ناحية المنزل .

كان منزل جرينوايز يتجه نحو الشمال والجنوب . وفى هذا الجدار الغربى الضيق كانت توجد نافذة واحدة ، نافذة بالطابق الأول والتى تغطيها ، تقريبًا ، فروع

اللبلاب ويغطى ألواحها الزجاجية السخام والتى من الواضح أنه قد تم إغلاقها من الداخل بالألواح الخشبية .

قال السيد ساترثوايت : " ها أنت ذا " .

رفع بورتر رقبته ونظر إلى أعلى ، وقال :

" آه ، بإمكانى رؤية تغير فى لون الزجاج على أحد الألواح ليس أكثر " .

قال السيد ساترثوايت : " إننا قريبان للغاية . إن هناك مكانا مرتفعا بالغابة حيث يمكننا منه أن نحظى برؤية أوضح " .

قاده إلى خارج حديقة برايفى وانعطف بحدة ناحية اليسار واقتحم الغابة . وقد شعر بالحماسة والبطولة ولم يلاحظ تقريبًا أن الرجل الذى بجانبه كان شارد الذهن وغير منتبه .

قال : " وكان عليهم بالطبع صنع نافذة أخرى عند إغلاقهم لتلك النافذة . والنافذة الجديدة جنوبية وتطل على الحديقة التى كنا جالسين بها الآن . وأنا أعتقد أن عائلة سكوت يساورهم الشك بخصوص هذه الغرفة . ولهذا السبب لم أكن راغبًا فى التحدث عن هذا الموضوع . فسوف تشعر السيدة سكوت بالقلق إن هى أدركت أنها تنام بالغرفة الذى يوجد بها الشبح " .

قال بورتر : " نعم ، أتفهم هذا " .

نظر السيد ساترثوايت إليه بحدة وأدرك أنه لم يسمع كلمة مما قاله .

قال بورتر : " مثير للغاية " . غرس عصاه فى مجموعة من نباتات قفاز الثعلب الطويلة ، وقال وهو مقطب جبينه :

" لم يكن من المفترض أن تأتى . لم يكن من المفترض مطلقًا لها أن تأتى " .

والناس عادة ما يتحدثون بهذه الطريقة إلى السيد ساترثوايت . وهو لا يبدو أنه يكترث كثيرًا لأن له مثل هذه الشخصية السلبية . لقد كان فقط منصتًا جيدًا .

قال بورتر : " لا ، لم يكن من المفترض لها أن تأتى" .

وقد أدرك السيد ساترثوايت بديهيًا أنه لم يكن يتحدث عن السيدة سكوت .

سأل : " ألا تعتقد ذلك ؟ " .

هز بورتر رأسه بطريقة تنم عن توقعه شرًا ما .

قال فجأة : " لقد كنت مشتركا فى هذه الرحلة . لقد ذهبنا نحن الثلاثة . سكوت وأنا وإيريس . إنها امرأة رائعة وصيادة بارعة كذلك " . توقف عن الحديث ثم قال : " ما الذى جعلهم يدعونها ؟ " ثم سكت فجأة .

هز السيد ساترثوايت كتفيه .

قال : " الجهل ربما " .

قال بورتر : " سوف تحدث مشكلات . لابد أن نستعد ـ ونفعل كل ما بوسعنا " .

" ولكن هل أنت واثق كم أن السيدة ستافرتون ـــ ؟ "

قال : " أنا أتحدث عن سكوت . فهناك السيدة سكوت التى يجب وضعها فى الاعتبار .

لقد فكر فيها السيد ساترثوايت كثيرًا ، ولكنه لم ير ضرورة لرؤية الأمر بهذه الطريقة بما أن الرجل قد نسيها الآن .

سأل : " كيف قابل سكوت زوجته ؟ " .

" فى الشتاء الماضى فى القاهرة . كان يباشر عملاً سريعًا . وقد تمت خطبتهما فى ثلاثة أسابيع ، وتزوجا خلال ستة أسابيع " .

" إنها تبدو ساحرة بالنسبة لى " .

" إنها كذلك بدون شك . وهو يعشقها ـ ولكن ذلك لن يشكل أى فارق " . ومرة أخرى أخذ يردد الراشد بورتر نفس العبارة ، مستخدمًا الضمير الذى يعنى بالنسبة له شخصًا واحدًا فقط : " لم يكن من المفترض لها أن تأتى ... " .

وفى ذلك الحين سارا فوق هضبة صغيرة مستديرة عالية بمكان بعيد إلى حد ما عن المنزل . وببعض الشعور بالحماسة والبطولة كذلك مد السيد ساترثوايت ذراعه .

قال : " انظر " .

كان الغسق على وشك أن يحل . وكان لايزال فى الإمكان رؤية النافذة ، وكان من الواضح أنه مطبوع فوق

لوحها الزجاجى وجه رجل يرتدى قبعة فارس مزينة بالريش .

قال بورتر " مثير للغاية . إنه حقا شىء مثير . ماذا يمكن أن يحدث عند تحطيم هذا اللوح الزجاجى فى يوم ما ؟ " .

ابتسم السيد ساترثوايت .

" إن هذا هو أحد أكثر أجزاء القصة إثارة . فقد تم استبدال هذا اللوح على حد علمى أحد عشر مرة على الأقل وربما أكثر ، وكانت المرة الأخيرة منذ اثنى عشر عامًا ، حينما قرر مالك المنزل فى ذلك الحين تدمير هذه الخرافة . ولكن تلك البقعة تظل كما هى . *فهى تعاود الظهور* - ليس فجأة ولكن يبدأ تغير اللون فى الانتشار بشكل تدريجى . والأمر يستغرق دومًا شهرًا تقريبًا " .

وللمرة الأولى أبدى بورتر أمارات اهتمام حقيقى . فقد ارتعد بشكل فجائى وسريع .

" يا لغرابة هذه الأمور ! ما السبب الحقيقى الذى جعلهم يغلقون النافذة من الداخل ؟ " .

" حسنًا ، لقد انتشرت شائعة تفيد بأن هذه الغرفة جالبة للنحس . فكان الزوجان إيفزهام يقيمان بها قبل طلاقهما مباشرة . وبعد ذلك كان ستانلى وزوجته يقيمان بهذه الغرفة حينما هرب مع فتاة الكورس " .

رفع بورتر حاجبيه .

" نعم ، فهمت . إنها لا تشكل خطرًا على الحياة ، ولكن على الأخلاق " .

فكر السيد ساترثوايت فى قرارة نفسه : " والآن ، يقطن الغرفة الزوجان سكوت ... أتساءل ... " .

عادا أدراجهما ثانية إلى المنزل فى صمت . وبينما كانا يسيران بدون إحداث صوت تقريبًا على الأرض الرخوة ، وكل منهما منهمك فى التفكير ؛ إذ أصبحا بدون قصد يسترقان السمع .

فقد كانا يلتفان حول سياج النباتات العشبية حينما سمعا صوت إيريس ستافرتون يرن بوضوح وقوة فى أعماق حديقة برايفى :

" إنك سوف تندم كثيرًا على هذا ! " .

أجابها سكوت بصوت خفيض وغير واثق ، لذا فلم يكن فى الإمكان سماع ما قاله ، وبعد ذلك علا صوت المرأة ثانية متفوهة بكلمات تذكراها فى وقت لاحق .

" الغيرة . إنها تقود المرء إلى الجحيم - إنها الجحيم نفسه ! إنها قد تقود المرء إلى ارتكاب جريمة قتل . احذر يا ريتشارد ، من فضلك توخ الحذر ! " .

وبعد ذلك خرجت من حديقة برايفى أمامهما وانحرفت عند منعطف المنزل دون أن تراهما ، كانت تمشى بسرعة ، تقريبًا تجرى ، وكأنها امرأة يطاردها أحد ما .

فكر السيد ساترثوايت فى كلمات الليدى سينثيا مرة أخرى . امرأة خطيرة . وللمرة الأولى راوده شعور داخلى قوى بقرب وقوع مأساة ، ستحدث سريعًا لا محالة .

ومع ذلك فقد شعر بالخزى فى هذه الليلة من مخاوفه تلك . فكل شىء بدا طبيعيًا وسارًا . فلم تبدو السيدة ستافرتون - بطبيعتها اللامبالية المعتادة - مستاءة من أى شىء . وكانت موارا سكوت تتصرف بطبيعتها الساحرة . وقد بدا أن السيدتين قد انسجمتا بشكل جيد . وقد بدا ريتشارد سكوت نفسه فى حالة معنوية مرتفعة .

كان أكثر شخص يبدو قلقًا هو السيدة أنكرتون البدينة . وقد أفضت بكل ما فى نفسها للسيد ساترثوايت ، قائلة :

" لا أكترث إن كنت ستعتقد بأننى سخيفة ، ولكن هناك شيئًا يجعلنى أرتعد . وسوف أحدثك بصراحة : لقد أرسلت فى شراء الزجاج دون أن أخبر نيد بذلك " .

" الزجاج ؟ " .

" لوضع لوح زجاجى جديد بهذه النافذة . إن كل شىء على ما يرام . ونيد سعيد بهذا - فيقول إنه يضفى على المنزل ملمسا جديدًا . لم يعد فى استطاعتى تحمل ذلك . سوف أحدثك بصراحة . إننا سوف نضع لوحًا زجاجيًا حديثًا جديدًا ونتخلص من كل تلك القصص البذيئة المرتبطة باللوح القديم " .

قال السيد ساترثوايت : " هل نسيت أم ربما لا تعرفين ذلك . إن البقعة تعاود الظهور " .

قالت السيدة أنكرتون : " نعم قد يحدث هذا . لكن كل ما أستطيع قوله إنه إذا حدث هذا ، فذلك سيكون منافيًا للعقل ! " .

رفع السيد ساترثوايت حاجبيه ولكنه لم يجب .

واصلت السيدة أنكرتون حديثها بتحد : " وماذا لو حدث ذلك ؟ إنا لسنا مفلسين ، أقصد أننا - أنا ونيد - نستطيع شراء لوح زجاج جديد كل شهر - أو كل أسبوع إذا تطلب الأمر " .

ولم يقبل السيد ساترثوايت التحدى . فقد رأى العديد من الأشياء تنهار أمام قوة المال للدرجة التى تجعله يؤمن بأنه حتى شبح فارس لا يستطيع أن يخوض معركة ناجحة أمامه . ومع ذلك فقد كان يشعر بالإثارة أمام هذا القدر من القلق والارتباك اللذين تشعر بهما السيدة أنكرتون . فحتى هى لم تسلم من هذا التوتر الذى يسود الأجواء - إلا أنها فقط نسبته إلى قصة شبح سخيفة وليس إلى تعارض شخصيات ضيوفها .

وكان مقدرًا للسيد ساترثوايت أن يسمع قصاصة أخرى من حوار ما والتى ألقت الضوء بعض الشىء على الموقف الجارى . فكان يصعد الدرج العريض قاصدًا فراشه بينما كان جون بورتر والسيدة ستافرتون يجلسان معًا فى مختلى من الردهة الكبيرة . كان صوتها الذهبى يشوبه القلق .

" أنا لم يكن لدىَّ أدنى فكرة أن عائلة سكوت ستكون هنا . أقسم لك أننى لو كنت أعرف ما كنت قد أتيت ولكننى أؤكد لك ، يا عزيزى جون ، أنه بما أننى هنا الآن فأنا لن أهرب ــ " .

أنهى السيد ساترثوايت صعود الدرج وأصبح بعيدًا عن مجال السمع . فكر فى قرارة نفسه : " أتساءل الآن ما مقدار الحقيقة فى هذا ؟ هل كانت تعلم ؟ أتساءل عما يمكن أن يحدث ؟ " .

هز رأسه .

وعند بزوغ الصبح شعر بأنه كان متشائما فى تخيلاته بخصوص الليلة الماضية . فقط بعض التوتر ـ نعم بالتأكيد ـ وهذا شىء طبيعى فى ظل هذه الظروف ـ ولكن ليس أكثر من ذلك . لقد استطاع الناس التأقلم مع الوضع الجديد . إن اعتقاده بأن كارثة ما على وشك الوقوع هو مجرد تخيل ـ أو ربما هاجس سيئ ، نعم هاجس سيئ . وكان من المفترض ذهابه إلى كارلزباد بعد أسبوعين .

وفى هذه المرة كان هو صاحب اقتراح التمشية قليلاً فى هذه الليلة بينما كان الغسق على وشك الحلول . وقد اقترح على الرائد بورتر الذهاب إلى الغابة للتأكد مما إذا كانت السيدة أنكرتون قد صدقت قولها ووضعت لوحًا زجاجيًا جديدًا بالنافذة ، أم لا . وقد قال لنفسه : " التمرينات ، هذا هو ما أحتاجه . التمرينات " .

سار الرجلان ببطء عبر الغابة . كان بورتر كالعادة قليل الكلام .

قال السيد ساترثوايت مثرثرًا : " أنا لا أستطيع أن أمنع نفسى من الاعتقاد بأن تخيلاتنا كانت حمقاء بعض الشىء ليلة أمس . توقع ـ أنت تعلم ـ حدوث شىء سيئ ومشكلات . فعلى أية حال لابد للجميع تدبر الأمور والسيطرة على مشاعرهم ، وما إلى ذلك " .

قال بورتر : " ربما " . وبعد دقيقة أو اثنتين أضاف : " أناس متحضرون " .

" ماذا تعنى ؟ " .

" الأشخاص الذين عاشوا بعيدًا عن التحضر فى بعض الأحيان يعودون أدراجهم . يرتدون . اختر المصطلح الذى تختاره " .

صعدا على الهضبة العالية العشبية . كان السيد ساترثوايت يتنفس بصعوبة . فهو لا يستمتع قط بالتسلق فوق الهضاب .

نظر ناحية النافذة . كان الوجه لايزال هناك ، وهو يشع حيوية أكثر من أى وقت مضى .

" لقد استسلمت مضيفتنا كما أرى " .

ألقى بورتر نظرة سريعة فقط .

قال بغير مبالاة : " يبدو أن السيد أنكرتون قد رفض ذلك . فهو من ذلك النوع من الرجال المستعد للفخر بشبح عائلة أخرى ، ولن يخاطر بإبعاده بعدما دفع مقابله " .

ظل صامتًا لدقيقة أو دقيقتين وهو يحدق ليس فى المنزل ، ولكن فى النباتات التى تنمو حوله .

قال : " هل خطر لك من قبل أن التحضر أمر خطير ؟ " .

أصابت تلك الملاحظة الثورية السيد ساترثوايت بالصدمة وقال : " خطير ؟ " .

" نعم ، لم تعد هناك صمامات أمان كما ترى " .

استدار فجأة ، وهبطا خلال الطريق الذى جاءا منه .

قال السيد ساترثوايت وهو يخطو خطوات واسعة ليلحق بخطوات بورتر : " إن ذكائى لا يساعدنى الآن على فهم مقصدك . إن الأشخاص العقلانيين — " .

ضحك بورتر ضحكة مرتبكة قصيرة . بعد ذلك نظر إلى الرجل الواقف بجواره .

" هل تعتقد أننى أهذى يا سيد ساترثوايت ؟ ولكن دعنى أؤكد لك أن هناك أشخاصا يستطيعون إخبارك بأن ثمة عاصفة على وشك الحدوث . إنهم يشعرون بها مسبقا فى الهواء . وأناس آخرون يستشعرون حدوث المشكلات قبل وقوعها . إن هناك مصيبة فى الطريق الآن يا سيد ساترثوايت ، مصيبة كبيرة ، قد تداهمنا فى أية لحظة . إنها — " .

توقف عن الكلام وهو يتشبث بذراع السيد ساترثوايت . ففى تلك اللحظة العصيبة سمعا صوت طلقتين ناريتين تلتهما صرخة - صرخة امرأة .

صاح بورتر : " يا إلهى ! ها هى " .

هبط الطريق سريعًا وهرع السيد ساترثوايت خلفه . وخلال دقيقة وصلا إلى المرجة بالقرب من سياج حديقة برايفى . وفى الوقت ذاته ، جاء ريتشارد سكوت والسيد أنكرتون من الجانب المضاد للمنزل . توقف الجميع فى مواجهة بعضهم البعض على يسار ويمين مدخل حديقة برايفى .

قال أنكرتون وهو يشير بذراع مرتعشة : " لقد أتى الصوت من هنا " .

قال بورتر : " يجب أن نرى ماذا حدث " . وبينما هو يلتف حول آخر سياج من النبات العشبية توقف فجأة فى مكانه . اختلس السيد ساترثوايت النظر من فوق كتفه . علت صيحة من ريتشارد سكوت .

كان هناك ثلاثة أشخاص فى حديقة برايفى . اثنان منهما يرقدان على العشب بالقرب من المقعد الحجرى ، رجل وامرأة . والشخص الثالث كان السيدة ستافرتون . كانت تقف على مقربة منهما عند سياج العشبية تحدق بعينين مذعورتين وتمسك بشىء ما فى يدها .

صاح بورتر : " إيريس ، بحق السماء ما هذا الذى يوجد بيدك ؟ " .

نظرت إلى الأسفل إليه - بنوع من الدهشة واللامبالاة وهى لا تصدق .

مرت ثوان معدودة ، إلا أنها بدت طويلة كالدهر ، ثم قالت : " أنا ـ لقد التقطته " .

ذهب السيد ساترثوايت إلى حيث كان أنكرتون وسكوت يربضان فوق الأرض .

قال الأخير هامسًا : " طبيب ، يجب أن نستدعى طبيبًا " .

ولكن كان الوقت قد تأخر لاستدعاء أى طبيب . فكان جيمى ألينسون ، والذى شكا من عدم رغبة عرافى الرمال فى التنبؤ بالمستقبل ـ وموارا سكوت ـ والتى أعادت لها الغجرية الشلن ـ يرقدان هناك جثتين هامدتين .

كان ريتشارد سكوت هو من أجرى الفحص المختصر . فقد أظهرت تلك الأزمة أنه يمتلك أعصابا حديدية . فبعد أول صرخة حزن عاد إلى طبيعته مرة أخرى .

وضع زوجته برفق فى مكانها مرة أخرى .

قال بشكل مختصر : " طلقة من الخلف . لقد اخترقتها الرصاصة " .

ثم شرع فى فحص جيمى ألينسون . كانت الإصابة هنا فى الصدر ، ولاتزال الرصاصة داخل الجسم .

أتى جون بورتر ناحيتهم .

قال بصرامة : " لا يجب لمس أى شىء . يجب أن ترى الشرطة موقع الجريمة كما هو الآن " .

قال ريتشارد سكوت : " الشرطة " . ثم ظهر وميض فجائى بعينيه وهو ينظر إلى المرأة الواقفة عند السياج

العشبى . أخذ خطوة فى ذلك الاتجاه ، ولكن فى الوقت ذاته تحرك جون بورتر ليعترض طريقه . للحظة ، بدا أن هناك مبارزة بين عينى الصديقين .

هز بورتر رأسه بهدوء شديد .

قال : " لا يا ريتشارد . قد يبدو لك الأمر كذلك ولكنك مخطئ " .

تحدث ريتشارد سكوت بصعوبة وهو يرطب شفتيه الجافتين :

" إذن لماذا تمسك بهذا الشىء فى يدها ؟ " .

ومرة أخرى ، قالت إيريس ستافرتون بنفس النبرة الخالية من الحياة : " لقد التقطته " .

قال أنكرتون وهو ينهض : " الشرطة . لابد أن نبلغ الشرطة فى الحال . هل يمكنك الاتصال بهم أنت يا سكوت ؟ لابد أن يظل أحد هنا ـ نعم ، لابد أن يظل أحد هنا " .

وبنبل أخلاقه المعهود عرض السيد ساترثوايت القيام بذلك . وقد قبل مضيفه العرض براحة بالغة .

قال : " السيدات . لابد أن أخبر السيدات بما حدث ، الليدى سينثيا ، وزوجتى العزيزة " .

ظل السيد ساترثوايت بحديقة برايفى يحدق فى جثة من كانت قبل ذلك موارا سكوت .

قال لنفسه : " يا لها من فتاة مسكينة . يا لها من فتاة مسكينة ... " .

وقد أخذ يفكر كيف يمكن للبعض إلحاق الضرر بالآخرين . أو ليس ريتشارد سكوت مسئولاً بشكل ما عن موت زوجته البريئة ؟ إنهم سوف يعدمون إيريس ستافرتون على حد اعتقاده ، ليس لأنه يحب الاعتقاد فى هذا ، ولكن أليس هو المسئول عن ذلك ، ولو حتى بشكل جزئى ؟ هذا الضرر الذى يلحقه البعض بالآخرين ــ

والفتاة ، الفتاة المسكينة دفعت الثمن .

نظر للأسفل إليها فى شفقة بالغة . كان وجهها الصغير أبيض وحزينا للغاية ، مع ارتسام نصف ابتسامة على شفتيها . ولاحظ شعرها الذهبى المجعد وأذنيها الرقيقتين . كانت توجد بقعة دم على شحمة إحداها . وبعدما استحوذ عليه شعور المحقق ، استنتج السيد ساترثوايت أن قرطها قد تحطم من أثر السقطة . رفع رقبته للأمام . نعم لقد كان محقًا ، لقد كان هناك قرط آخر يتدلى من الأذن الأخرى .

يا للفتاة المسكينة . يا للفتاة المسكينة .

٢

قال المحقق وينكفيلد : " والآن يا سيدى " .

كانوا بالمكتبة . كان المحقق ـ صاحب المظهر العنيف ، والبالغ من العمر أربعين عامًا ــ يجرى تحقيقاته . وقد قام باستجواب معظم الضيوف ، واستطاع بحلول هذا

الوقت أن يجمع خيوط الجريمة . كان ينصت إلى أقوال الرائد بورتر والسيد ساترثوايت . جلس السيد أنكرتون بتثاقل على المقعد وهو يحدق بعينين جاحظتين إلى الجدار المقابل .

قال المحقق : " كما علمت أيها السيدان ، فأنتما كنتما تتمشيان . كنتما راجعين إلى المنزل من خلال الطريق الذى يلتف حول الجانب الأيسر لما يطلقون عليه حديقة برايفى . هل هذا صحيح ؟ " .

" نعم ، أيها المحقق " .

" لقد سمعتما طلقتين ناريين وصرخة امرأة " .

" نعم " .

" بعد ذلك جريتما بأقصى سرعة ممكنة خارجين من الغابة إلى أن وصلتما إلى مدخل حديقة برايفى . فإن كان هنالك من غادر هذه الحديقة فليس بإمكانه ذلك سوى من خلال هذا المدخل . فلا يمكن لأحد الخروج عبر الشجيرات العشبية . وإن كان هناك من خرج من الحديقة واستدار ناحية اليمين فإنه كان سيقابل السيد أنكرتون والسيد سكوت . وإن استدار يسارًا إذن فكان لابد له من مقابلتكما . أليس كذلك ؟ " .

قال الرائد بورتر : " نعم هذا صحيح " . وكان وجهه أبيض للغاية .

قال المحقق : " إن هذا يحسم الأمر . كان السيد والسيدة أنكرتون والليدى سينثيا وريدج يجلسون

بالمرجة . وكان السيد سكوت بغرفة البلياردو المفتوحة على هذه المرجة . وفى السادسة وعشر دقائق خرجت السيدة ستافرتون من المنزل وتحدثت قليلاً إلى هؤلاء الجالسين هناك ، وانعطفت حول المنزل باتجاه حديقة برايفى . وبعد ذلك بدقيقتين تم سماع الطلقتين الناريتين . هرع السيد سكوت من داخل المنزل ، وبرفقة السيد أنكرتون ، اتجه مسرعًا نحو حديقة برايفى . وفى الوقت ذاته ، أنت والسيد ... ساترثوايت وصلتما من الجانب المقابل . كانت السيدة ستافرتون فى حديقة برايفى ممسكة بمسدس انطلقت منه رصاصتان . كما يتضح لى ، فقد أطلقت النار على السيدة من الخلف بينما كانت تجلس على الدكة . بعد ذلك انطلق النقيب ألينسون ناحيتها فقامت بإطلاق النار عليه فى صدره بينما كان يجرى نحوها . أنا أعرف أنه كانت هناك علاقة سابقة بينها وبين ريتشارد سكوت ــ " .

قال بورتر : " تلك كذبة حقيرة " .

كان صوته أجش وينطوى على نوع من التحدى . ولم يقل المحقق شيئًا ، فقد قام بهز رأسه .

سأل السيد ساترثوايت : " ماذا قالت هى عما حدث ؟ " .

" قالت إنها ذهبت لحديقة برايفى للاستجمام قليلا . وقبل أن تنحرف عن السياج الأخير مباشرة سمعت الطلقات النارية . دخلت من عند المنعطف ورأت المسدس

عند قدميها فأخذته . ولم تر أحدًا يخرج ، كما لم تر أحدًا فى الحديقة سوى الضحيتين " . توقف المحقق عن الكلام ، ثم قال : " إن هذا هو ما تقوله ـ وبالرغم من أننى حذرتها إلا أنها أصرت على أن تدلى بأقوالها " .

قال الرائد بورتر ، ووجهه لايزال أبيض اللون كشخص ميت : " إن كانت قد قالت هذا فهى صادقة . أنا أعرف إيريس ستافرتون جيدًا " .

قال المحقق : " حسنًا يا سيدى ، سيكون هناك متسع من الوقت للخوض فى كل ذلك لاحقًا . فى الوقت ذاته ، أنا لدىّ واجب علىّ تأديته " .

وفى حركة مفاجئة استدار بورتر ناحية السيد ساترثوايت .

" أنت ! ألا تستطيع المساعدة ؟ ألا يمكنك فعل شىء ما ؟ " .

لم يستطع السيد ساترثوايت مقاومة الشعور بإطراء كبير . فقد استغاث به أحدهم ـ استغاث به وهو الذى يبدو أكثر الرجال تفاهة وعدم قيمة ، وليس أى شخص وإنما شخص مثل جون بورتر .

وكان على وشك أن يتفوه برد ينطوى على الأسى حينما دخل الخادم تومسون وهو يحمل بطاقة فوق صينية قدمها إلى سيده . كان السيد أنكرتون لايزال يجلس فى مقعده دون أن يشارك فيما يحدث .

قال تومسون : " لقد أخبرت هذا السيد بأنك ، على الأحرى ، لن تستطيع مقابلته يا سيدى . ولكنه أصر أن لديه موعدًا ، وأن الأمر عاجل " .

أخذ أنكرتون البطاقة .

قرأها : " السيد هارلى كوين . أنا أتذكر الآن ، لقد أراد مقابلتى بشأن صورة ما . نعم نحن على موعد ولكن ما حدث جعلنى أنسى - "

أجفل السيد ساترثوايت .

صاح قائلاً : " أتقول السيد هارلى كوين ؟ يا له من أمر غريب . إنه أمر غريب حقًا . أيها الرائد بورتر ، لقد طلبت منى المساعدة . أعتقد أنه بإمكانى تقديم المساعدة . إن السيد كوين هو أحد أصدقائى أو بالأحرى معارفى . إنه رجل مميز حقًا " .

قال المحقق باستخفاف : " أحد هواة حل الجرائم على ما أعتقد " .

قال السيد ساترثوايت : " لا . إنه ليس من هذا النوع من الرجال على الإطلاق . ولكنه يمتلك المقدرة - مقدرة خارقة للطبيعة - على أن يريك ما لا تراه بعينيك ، وعلى أن يوضح لك ما لم تسمعه بأذنيك . دعنا نعرض عليه القضية على أية حال ونرى ما سيقوله " .

نظر السيد أنكرتون إلى المحقق الذى همهم فقط ثم نظر إلى السقف .

ثم أومأ الأول إلى تومسون الذى غادر الغرفة وعاد وبصحبته رجل طويل ونحيف .

صافح الغريب السيد أنكرتون قائلاً : " مرحبًا يا سيد أنكرتون ، أعتذر لتطفلى عليكم بهذه الطريقة . لابد أن نرجئ حديثنا عن الصورة لبعض الوقت . يا لها من مصادفة ! إنه صديقى السيد ساترثوايت . أمازلت مولعًا بالدراما كعادتك دومًا ؟ " .

ارتسمت ابتسامة صغيرة على وجه الغريب حينما تفوه بهذه الكلمات .

قال السيد ساترثوايت بإعجاب : " إننا أمام دراما هنا يا سيد كوين ، إننا فى وسط واحدة منها . وأود ، ويود صديقى بورتر هنا ، سماع رأيك فيها " .

جلس السيد كوين . وقد ألقى ظل المصباح الأحمر مجموعة من الألوان المختلفة على معطفه المخطط ، وترك وجهه فى الظل مما جعله يبدو كأنه يرتدى قناعًا .

بعد ذلك روى السيد ساترثوايت وقائع الحادث ، ثم سكت وهو ينتظر بلهفة سماع رأى الوسيط الروحى .

ولكن السيد كوين هز رأسه فقط .

قال : " قصة مؤسفة . مأساة مؤسفة حقًا . وعدم وجود دافع يجعلها مربكة حقًا " .

حدق أنكرتون فيه .

قال : " لقد تم سماع السيدة ستافرتون تهدد ريتشارد سكوت . لقد كانت تشعر بغيرة قاتلة من زوجته . إنها الغيرة ـ "

قال السيد كوين : " هذا صحيح . الغيرة أو الأشباح . لا فارق . ولكنك أسأت فهمى . أنا لم أكن أتحدث عن مقتل السيدة سكوت ، بل عن مقتل النقيب أليسون " .

صاح بورتر وهو يتحرك للأمام : " أنت محق . إن ثمة خللاً ما هنا . لو كانت إيريس قد فكرت فى قتل السيدة سكوت ، لكانت قد أخذتها بعيدًا فى مكان ما وحدهما . لا ، إننا نسلك طريقًا خاطئًا . وأعتقد أن هناك حلاً آخر . فقط هؤلاء الثلاثة ذهبوا إلى حديقة برايفى . هذا غير قابل للجدل وأنا لن أناقش هذا . ولكننى سأعيد تركيب المأساة التى حدثت بشكل مختلف . فسوف أفترض أن جيمى أليسون أطلق الرصاص على السيدة سكوت أولاً ثم قتل نفسه . هذا محتمل . أليس كذلك ؟ سقط المسدس من يده حينما وقع على الأرض ـ تجده السيدة ستافرتون على الأرض فتلتقطه كما قالت تمامًا . ما رأيكم فى هذا ؟ " .

هز المحقق رأسه قائلاً :

" أنت مخطئ أيها الرائد بورتر . لو كان الرائد أليسون قد قام بإطلاق النار على نفسه من المسدس من هذه المسافة القريبة لكان ذلك قد ترك أثر حرق على ملابسه " .

" ربما أبعد المسدس عنه مسافة ذراع " .

" ولماذا سيقوم بذلك ؟ إن هذا ليس منطقيًا ، وعلاوة على ذلك ، فليس هناك دافع " .

تمتم بورتر ولكن دون أى اقتناع : " ربما يكون قد فقد عقله فجأة " . سكت ثانية ثم رفع جسمه فجأة ليقول فى تحد : " حسنًا يا سيد كوين ؟ " .

هز الأخير رأسه ، قائلاً :

" أنا لست ساحرًا . أنا ، حتى ، لست باحثًا فى علم الجريمة . ولكنى سوف أقول لك شيئًا واحدًا ـ أنا أومن بشدة ، بأهمية الانطباعات . ففى أوقات الأزمات ، تكون هناك دومًا لحظة مميزة تختلف عن كل اللحظات الأخرى ، صورة واحدة تبقى عند اختفاء كل الصور الأخرى . وعلى حد اعتقادى ، فإن السيد ساترثوايت هو أكثر الموجودين هنا حيادية . هل يمكنك أن تسترجع ما حدث يا سيد ساترثوايت وتخبرنا باللحظة التى تركت بداخلك أكبر انطباع ؟ هل كان ذلك حينما سمعت الطلقات النارية ؟ هل كانت حينما رأيت الجثتين للمرة الأولى ؟ هل كانت حينما رأيت المسدس للمرة الأولى فى يد السيدة ستافرتون ؟ حاول أن تصفى عقلك من أية أحكام كنت قد أصدرتها مسبقًا ، وأخبرنا " .

ثبت السيد ساترثوايت عينيه على وجه السيد كوين ، وكأنه تلميذ عليه أن يعيد ما قاله المعلم بالرغم من أنه لم يستوعبه جيدًا .

قال ببطء : " لا . لم تكن أيًا مما قُلته . إن اللحظة التى سأتذكرها دومًا هى حينما بقيت وحدى مع الجثتين ـ بعد ذلك ـ وأخذت أنظر للأسفل للسيدة سكوت . كانت ترقد على جانبها . كان شعرها مجعدًا . كانت هناك بقعة من الدم على أذنها الصغيرة " .

وفجأة وهو يقول هذه العبارة شعر أنه قد قال شيئًا ذا قيمة كبيرة .

قال أنكرتون ببطء : " دم على أذنها ؟ نعم أتذكر ذلك " .

قال السيد ساترثوايت : " لابد أن يكون قرطها قد تحطم حينما سقطت " .

ولكن بدت العبارة بعيدة الاحتمال وهو يقولها .

قال بورتر : " لقد كانت ترقد على جانبها الأيسر . أعتقد أنها كانت هذه الأذن ؟ " .

قال السيد ساترثوايت بسرعة : " لا ، لقد كانت أذنها اليمنى " .

سعل المحقق .

قال : " لقد وجدت هذه فوق العشب " . كان يمسك بأنشوطة من سلك ذهبى .

صاح بورتر : " لكن يا إلهى . لا يمكن لقرط أن يتحطم إلى أجزاء بهذه الطريقة بفعل سقطة . يبدو الأمر وكأن رصاصة هى التى تسببت فى تحطمه " .

صاح السيد ساترثوايت : " نعم هذا ما حدث . لابد أنها كانت رصاصة " .

قال المحقق : " لقد أطلقت من المسدس طلقتان فقط ، ولا يمكن أن تكون نفس الرصاصة قد أصابت أذنها ثم أصابتها فى ظهرها أيضًا ، أو أن تكون رصاصة قد أطاحت بقرطها ورصاصة أخرى قد قتلتها ، فلا يمكن أن تكون نفس الرصاصة قد قتلت النقيب ألينسون كذلك ـ إلا إذا كان يقف على مقربة منها ـ على مقربة شديدة ـ مواجهًا لها . لا ! حتى فى ذلك الحين فإن هذا مستبعد إلا إذا ـــ " .

قال السيد كوين وهو يبتسم قليلاً : " إلا إذا كانت بين ذراعيه ، أنت تريد أن تقول هذا . حسنًا ، أم لا ؟ " .

حدق كل الحاضرين فى بعضهم البعض . كانت الفكرة غريبة على مسامعهم ـ ألينسون والسيدة سكوت ـ ساور السيد أنكرتون نفس الشعور .

قال : " ولكنهما بالكاد يعرفان بعضهما البعض " .

قال السيد ساترثوايت وهو يفكر بعمق : " لا أعرف . ربما كانا يعرفان بعضهما جيدًا أكثر مما كنا نعتقد . لقد قالت الليدى سينثيا إنه أنقذها من الشعور بالملل فى مصر فى الشتاء الماضى وأنت ـــ " ، استدار ناحية بورتر قائلاً : " لقد أخبرتنى أن ريتشارد سكوت قابل زوجته

فى القاهرة فى الشتاء الماضى . ربما كانا على معرفة وثيقة هناك ... " .

قال أنكرتون : " لم يبد أنهما كانا يلتقيان كثيرًا " .

" لا ــ لقد كانا يتجنبان بعضهما البعض . كان الأمر غير طبيعى ، الآن يبدو لى الأمر واضحًا ــ " .

نظر الجميع إلى السيد كوين ، وكأنهم خائفون من النتائج التى توصلوا إليها بشكل غير متوقع .

نهض السيد كوين .

قال : " هل ترون إلام أوصلنا انطباع السيد ساترثوايت " . استدار ناحية أنكرتون . " إنه دورك الآن " .

" هه ؟ أنا لا أفهم ماذا تعنى " .

" لقد كنت منغمسًا فى التفكير حينما دخلت إلى هنا . أحب أن أعرف ما الفكرة التى كانت مستحوذة عليك بهذه الطريقة . وأنا لا أبالى بما إذا لم تكن لها علاقة بالمأساة التى حدثت . ولا أبالى بما إذا كانت تبدو لك " خرافة " ــ " . أجفل السيد أنكرتون قليلاً ، بينما قال السيد كوين : " أخبرنا " .

قال أنكرتون : " أنا لا أمانع فى إخبارك . بالرغم من أنها لم يكن لها علاقة بما حدث ، وأنت ربما سوف تسخر منى . كنت أتمنى لو أن زوجتى قد تركت هذا اللوح الزجاجى وشأنه ولم تستبدله بواحد جديد فى

النافذة التى يسكنها الشبح . أنا أشعر أن ذلك قد جعل لعنة ما تحل علينا " .

لم يفهم لماذا كان الرجلان الموجودان أمامه يحدقان فيه بهذه الطريقة .

قال السيد ساترثوايت أخيرًا : " ولكنها لم تستبدله بعد " .

" نعم ، لقد قامت بذلك . لقد أتى العامل فى وقت مبكر من هذا الصباح " .

قال بورتر : " يا إلهى ! لقد بدأت أفهم . هذه الغرفة ، إنها مطوقة بألواح على ما أعتقد وليست مكسوة بورق الحائط ؟ " .

" نعم ، ولكن ماذا يعنى ــ ؟ " .

ولكن بورتر انطلق خارج الغرفة . تبعه الآخرون . ذهب مباشرة إلى الأعلى إلى غرفة نوم سكوت . كانت غرفة جميلة مطوقة بألواح كريمية اللون وبها نافذتان تطلان على الجنوب . تلمس بورتر بيديه عبر الألواح على الجدار الغربى .

" إن هناك شقًا فى مكان ما ـ لابد من هذا . آه ! " .

صدر صوت طقطقة ، والتف جزء من اللوح للخلف . وقد كشف عن الألواح الزجاجية المغطاة بالسخام للنافذة المسكونة . كان أحد الألواح الزجاجية نظيفًا وجديدًا . انحنى بورتر سريعًا والتقط شيئًا ما . أمسك به فوق راحة

يده . كان جزءًا من ريشة نعامة . بعد ذلك نظر إلى السيد كوين . أومأ السيد كوين .

اتجه إلى خزانة القبعات بحجرة النوم . كانت توجد العديد من القبعات بداخلها ـ قبعات المرأة المتوفاة . أخذ واحدة ذات حرف كبير وريشات مجعدة ـ قبعة كبيرة ذات عقدة .

بدأ السيد كوين يتحدث بصوت هادئ وتحليلى .

قال السيد كوين : " دعونا نفترض ، رجل بطبيعته غيور للغاية . رجل أقام فى هذه الغرفة فى السنوات الماضية ويعلم سر هذا الشق الذى باللوح . ولتسلية نفسه فتحه فى أحد الأيام ونظر إلى الخارج إلى حديقة برايفى . وهناك رأى زوجته مع رجل آخر ـ واللذين كانا يعتقدان أنهما بمنأى عن أنظار الآخرين . شك فى الحال بوجود علاقة بينهما . اشتاط غضبًا . ماذا يفعل ؟ خطرت له فكرة . ذهب إلى الخزانة وارتدى قبعة ذات حافة وبها ريش . كان وقت الغسق ، وقد تذكر قصة البقعة التى على الزجاج . أى شخص سوف ينظر للأعلى للنافذة سوف يرى . على حد اعتقاده ، الفارس المشاهد . وبالتالى أخذ يراقبهما فى أمان . وفى اللحظة التى احتضنا فيها بعضهما البعض أطلق النار . وهو قناص بارع ـ قناص بارع للغاية . وحينما سقطا ، أطلق النار مرة أخرى ، تلك الرصاصة هى التى حطمت القرط . أسقط المسدس خارج

النافذة ليسقط داخل حديقة برايفى وهرع للأسفل ثم خرج من حجرة البلياردو " .

تقدم بورتر خطوة نحوه .

صاح : " ولكنه ألصق التهمة بها ! تنحى جانبًا وتركها تتحمل مسئولية ما حدث . لماذا ؟ لماذا ؟ " .

قال السيد كوين : " أعتقد أننى أعرف السبب . أنا فقط أخمن ـ وهذا فقط تخمين من جانبى ـ أن ريتشارد سكوت كان يحب إيريس ستافرتون بجنون ذات مرة ، بجنون لدرجة أن مقابلتها بعد سنوات أثارت مشاعر الغيرة فيه مرة أخرى . ولابد أن أقول إن إيريس ستافرتون تخيلت قبل ذلك أنها تحبه ، فذهبت برفقته فى رحلة صيد ثم رحلة أخرى ـ ثم عادت وهى واقعة فى حب رجل أفضل " .

همهم بورتر فى دهشة قائلا : " رجل أفضل . أنت تعنى ـــ ؟ " .

قال السيد كوين وهو يبتسم ابتسامة صغيرة : " نعم . أعنيك أنت " . وسكت لحظة ثم قال : " لو كنت مكانك لذهبت إليها الآن " .

قال بورتر : " سوف أقوم بذلك " .

استدار وغادر الغرفة .

الفصل ٣

فى نُزُل بيلز آند موتلى

كان السيد ساترثوايت منزعجًا . فقد كان يومًا سيئًا للغاية . لقد بدءا متأخرًا ، كان هناك ثقبان بالفعل فى إطار السيارة وأخيرًا سلكا المنعطف الخاطئ وتاها وسط قفور ساليسبرى بلين . الآن قاربت الساعة على الثامنة وكانا لايزالان يبعدان نحو أربعين ميلاً عن مارسويك مانور حيث كانا يتجهان ، وبعد ذلك حدث بالإطار ثقب ثالث ليزيد الأمور سوءًا .

أخذ السيد ساترثوايت ـ وهو يبدو مثل الطائر المنفوش ريشه ـ يسير للأمام والخلف أمام مرآب القرية ، فى حين كان سائقه يتحاور بلهجة حادة مع الخبير المحلى .

قال الخبير : " نصف ساعة *على الأقل* " .

أجاب السائق ماسترز : " هذا إن حالفنا الحظ . فى رأيى ، خمسا وأربعين دقيقة " .

سأل السيد ساترثوايت فى اضطراب : " ما هذا ـ المكان بأية حال ؟ " . ولأنه كان مراعيًا لمشاعر الآخرين فقد استبدل عبارة " القرية المهجورة " والتى طرأت على ذهنه أولاً بكلمة " مكان ".

" كيرتلنجتون ماليت ".

بالرغم من الغضب الذى كان يتملك السيد ساترثوايت إلا أنه شعر بأن الاسم بدا مألوفًا له إلى حد ما . نظر حوله فى استخفاف . بدا أن كيرتلنجتون ماليت تتكون من شارع غير ممهد ومرآب ومكتب بريد على أحد الجوانب ، يقابلهم على الجانب الآخر ثلاثة متاجر غامضة . وفى مكان بعيد بالطريق ، لمح السيد ساترثوايت شيئًا ما يصر ويتأرجح فى الريح وارتفعت روحه المعنوية قليلا .

قال : " هناك نُزُل هنا كما أرى ".

قال رجل المرآب : " بيلز آند موتلى . ها هو ذا ـ يوجد هناك ".

قال ماسترز : " هل لى باقتراح يا سيدى ، لماذا لا تذهب هناك ؟ فقد يكون باستطاعتهم توفير وجبة لك ـ ليست بالطبع كتلك الوجبات التى تعتاد تناولها ".

توقف عن الكلام حيث كان السيد ساترثوايت معتادًا على تناول طعام أفضل الطهاة الأوروبيين ، وكان يعمل لديه طاه يعد له صنف الكوردون بلو ، وكان يدفع له راتبًا مجزيًا .

" إننا لن نستطيع المضى قدمًا بالسيارة ثانية يا سيدى قبل خمس وأربعين دقيقة . أنا واثق من ذلك . وقد تجاوزت الساعة الثامنة بالفعل . بإمكانك أن تتصل بالسيد جورج فورستر ، يا سيدى ، من النُزُل وتحيطه علمًا بسبب تأخرنا ".

قال السيد ساترثوايت فى حيوية : " أنت تعتقد أن بإمكانك تنظيم كل شىء يا ماسترز ".

ظل ماسترز ـ الذى لم يكن يعتقد ذلك ـ صامتًا فى احترام .

وبالرغم من رغبة السيد ساترثوايت العارمة فى رفض أى اقتراح يقدم له ـ فحالته المزاجية كانت تدفعه إلى ذلك ـ إلا أنه نظر ناحية لافتة النُزُل التى تصدر صريرًا ، وهو يشعر ببعض الرضا الداخلى . لقد كان رجلا ذا شهية محدودة وذواقًا ، ولكن حتى مثل هؤلاء الرجال يشعرون بالجوع .

قال وهو يفكر بعمق : " بيلز آند موتلى . يا له من اسم غريب لنُزُل . أنا لا أعتقد أننى سمعت به من قبل قط ".

قال الرجل المحلى : " يرتاد هذا المكان دومًا أناس غرباء الطباع أيضًا ".

كان منحنيًا فوق الإطار ، وجاء صوته مكبوتًا وغير واضح .

استفسر السيد ساترثوايت : " أناس غرباء الطبع ؟ ماذا يعنى ذلك ؟ " .

ولم يبد الرجل الآخر يعلم تمامًا ما يقصده .

قال بغموض : " أناس يذهبون ويأتى غيرهم . هذا النوع من الناس " .

وقد فكر السيد ساترثوايت أن أى أشخاص يأتون إلى هذا النُّزل لابد أن يكونوا أشخاصًا " يأتون ويذهبون " . لقد بدا له التعريف غير دقيق . لكن ، مع ذلك ، أثار الأمر فضوله . إن عليه أن يمضى ٤٥ دقيقة فى هذا المكان . وبيلز آند موتلى سيكون لا بأس به مثله مثل أى مكان آخر .

وبخطواته المتبخترة الصغيرة المعتادة سار على الطريق . ومن بعيد دوى صوت رعد . نظر الميكانيكى إلى الأعلى وتحدث إلى ماسترز ، قائلاً :

" إن هناك عاصفة على وشك الهبوب . أستطيع الشعور بها فى الهواء " .

قال ماسترز : " يا إلهى ! إن أمامنا مسافة أربعين ميلاً لنقطعها " .

قال الآخر : " آه ! لا داعى للتعجل فى إصلاح الإطار إذن . إنك لا ترغب فى ارتياد الطريق حتى تنتهى العاصفة . ويبدو أن رئيسك هذا لن يستمتع بالسفر أثناء البرق والرعد " .

قال السائق : " أتمنى أن يوفروا له خدمة جيدة فى ذلك المكان . سوف أذهب أنا أيضًا إلى هناك لتناول شىء ما " .

قال رجل المرآب : " إن بيلى جونز لا بأس به . إنه يعد طعامًا جيدًا " .

كان السيد ويليام جونز - وهو رجل قوى البنية ، فى الخمسين من عمره ، وصاحب نُزُل بيلز آند موتلى - فى هذه اللحظة يبتسم بابتهاج ويتملق السيد ساترثوايت ، وقائلاً :

" بإمكانى أن أعد لك شريحة لحم شهية وبطاطس مقلية ، بالإضافة إلى الجبن . من هذا الطريق يا سيدى فى غرفة القهوة . إن المكان ليس ممتلئًا بالرواد حاليًا ، فآخر صياد قد غادر لتوه . لاحقًا سوف يمتلئ المكان بالصيادين ثانية . يوجد شخص واحد هنا الآن ، يدعى السيد كوين — " .

توقف السيد ساترثوايت فى مكانه فى ذهول .

قال وهو يشعر بالإثارة : " كوين ؟ هل تقول كوين ؟ " .

" نعم ، هذا هو اسمه يا سيدى . هل هو أحد أصدقائك ؟ " .

" نعم . نعم . بالتأكيد " . وهو يرتجف من فرط الإثارة ، ظن السيد ساترثوايت أن العالم لا يمكن أن يوجد به شخصان يحملان هذا الاسم . إنه لم يشك أنه هو

إطلاقًا . " أناس يذهبون ويأتون ... " ، ياله من وصف ينطبق تمامًا على السيد كوين . واسم النُزُل أيضًا ، لقد بدا ملائما ومناسبًا كذلك .

قال السيد ساترثوايت : " يا إلهى . يا له من شيء غريب . أن نتقابل بهذه الطريقة ! السيد هارلى كوين ، أليس كذلك ؟ " .

" هذا صحيح يا سيدى . تلك هى غرفة تناول القهوة . ها هو السيد كوين " .

نهض السيد كوين بطوله وابتسامته وبشرته الداكنة المعهودين من على الطاولة التى كان يجلس إلى جوارها ، وتحدث بصوته الذى يتذكره السيد ساترثوايت جيدًا :

" آه ! السيد ساترثوايت ، ها نحن نلتقى مجددًا . يا لها من مقابلة غير متوقعة ! " .

كان السيد ساترثوايت يصافحه بحرارة ، قائلاً :

" أنا سعيد للغاية . أنا محظوظ لأن سيارتى قد تعطلت . هل تقيم هنا لفترة طويلة ؟ " .

" ليلة واحدة فقط " .

" إذن أنا محظوظ حقًا " .

جلس السيد ساترثوايت فى مواجهة صديقه شاعرًا بالرضا ، وناظرًا إلى الوجه الداكن المبتسم أمامه بترقب سار .

هز الرجل الآخر رأسه برفق .

قال : " أؤكد لك أنه ليس لدىَّ سمكة ذهبية أو أرنب لأخرجه من كمى " .

صاح السيد ساترثوايت ، وهو يعود للوراء قليلاً : " يا له من شيء مؤسف . نعم ، لابد أن أعترف أننى أنظر إليك بهذه الطريقة . رجل السحر . ها ، ها . تلك هى الطريقة التى أنظر بها إليك . رجل السحر " .

قال السيد كوين : " ومع ذلك ، فأنت الذى تقوم بالحيل السحرية ، ليس أنا " .

قال السيد ساترثوايت فى لهفة : " آه ! ولكنى لا أستطيع القيام بها بدونك . فأنا ينقصنى ـ أعتقد ـ الإلهام ؟ " .

هز السيد كوين رأسه مبتسمًا ، وقال :

" إن تلك كلمة كبيرة للغاية . أنا أتولى مهمة التلقين فقط " .

دخل مالك النُزُل فى هذه اللحظة وهو يحمل خبزًا وقطعة من الزبد . وبينما كان يضع الطعام على الطاولة أنار البرق السماء ، ودوى صوت الرعد فى الأجواء .

" إنها ليلة عاصفة أيها السيدين " .

قال السيد ساترثوايت : " فى ليلة مثل هذه ــ " . ثم سكت .

قال المالك : " يا له من أمر غريب . إن تلك هى الكلمات التى كنت سأرددها بنفسى . فى ليلة مثل هذه

جلب كابتن هارويل عروسه للمنزل ، فى اليوم السابق لاختفائه للأبد " .

صاح السيد ساترثوايت فجأة : " آه ! بالطبع ! " .

لقد عثر على مفتاح اللغز الآن . لقد أدرك لماذا بدا له اسم كيرتلنجتون ماليت مألوفًا . فقبل ثلاثة أشهر قرأ جميع تفاصيل الاختفاء المذهل للكابتن ريتشارد هارويل . فشأنه شأن جميع قراء الجرائد فى بريطانيا العظمى ، فقد أربكته تفاصيل الاختفاء ، ومثله مثل جميع البريطانيين كذلك ، فقد وضع نظرياته الخاصة .

كرر كلامه قائلاً : " بالطبع . لقد حدث ذلك فى كيرتلنجتون ماليت " .

قال مالك النُزُل : " كان هذا هو المنزل الذى أقام فيه خلال آخر موسم صيد شتوى . لقد كنت أعرفه جيدًا . كان شابًا وسيمًا ولا يشغل باله شىء . لقد قتل ـ أنا أعتقد ذلك . لقد رأيتهما كثيرًا يمتطيان جوادهما إلى المنزل معًا ـ هو والآنسة لى كوتو . وكل أهل القرية كانوا يتوقعون زواجهما ، وهذا هو ما حدث بالفعل . إنها فتاة جميلة للغاية ومحترمة ، وقد كانت كندية وغريبة عن المكان . آه ، إن هناك لغزا كبيرا . إننا لن نعرف ما حدث قط . لقد فطر هذا قلبها بالتأكيد . لقد باعت المنزل وسافرت إلى الخارج ، فهى لم تتحمل أن يحدق فيها الجميع ويشيرون إليها ، بالرغم من أنه لم يكن خطؤها . يا لها من فتاة مسكينة ! لغز كبير ، إنه حقًا كذلك " .

هز رأسه ثم تذكر فجأة واجباته ، فخرج سريعًا من الغرفة .

قال السيد كوين برفق : " لغز كبير " .

كان صوته له صدى مستفز فى أذنى السيد ساترثوايت .

سأل فى حدة : " هل تتخيل أنه بإمكاننا حل اللغز الذى فشلت سكوتلاند يارد فى حله ؟ " .

أومأ الرجل الآخر ، قائلاً :

" لم لا ؟ لقد مر وقت . ثلاثة أشهر . إن هذا يحدث فارقًا " .

قال السيد ساترثوايت ببطء : " إن فكرتك هذه مثيرة حقًا . إن الشخص يرى الأمور بشكل أفضل فيما بعد أكثر مما يستطيع أن يراها فى وقتها " .

" كلما مر وقت أطول زاد التناسب بين الأمور . فالمرء يستطيع رؤية العلاقة الحقيقية بينها " .

ساد صمت استمر بضع دقائق .

قال السيد ساترثوايت بصوت متردد : " أنا لست واثقًا من أننى أتذكر التفاصيل بوضوح الآن " .

قال السيد كوين بهدوء : " أعتقد أنك تتذكرها " .

كان هذا هو كل التشجيع الذى احتاجه السيد ساترثوايت . لقد كان دوره العام فى الحياة يقتصر على الاستماع والمشاهدة . لكن فقط فى صحبة السيد كوين ، كان هذا الدور ينعكس . ففى ذلك الحين كان

السيد كوين يصبح هو المستمع ، ويعتلى السيد ساترثوايت خشبة المسرح .

قال : " كان هذا منذ أكثر من عام حينما انتقلت ملكية منزل آشلى جرانج إلى الآنسة إلينور لى كوتو . إنه منزل قديم وجميل ، ولكنه ترك مهملاً وشاغرًا لسنوات عديدة . وهو لم يكن ليجد له مالكًا أفضل . فكانت الآنسة لى كوتو كندية فرنسية ، حيث هاجر أجدادها من فرنسا عند اندلاع الثورة الفرنسية . وقد أورثوها مجموعة لا تقدر بثمن من التحف والأنتيكات الفرنسية . وقد كانت تشترى وتجمع التحف كذلك ، وتتمتع بذوق رفيع وحس تمييز عاليين . لذا ، فلم يكن من المدهش أنها حينما قررت بيع آشلى جرانج بكل ما فيه بعد المأساة أن عرض عليها المليونير الأمريكى السيد كروس جى . برادبورن شراءه بمبلغ خيالى وصل إلى ستين ألف جنيه " .

سكت السيد ساترثوايت .

قال : " وأنا أسرد هذه المعلومات ليس لأنها وثيقة الصلة بالموضوع - فهى لا تمت له بصلة إطلاقًا - ولكن فقط لإلقاء بعض الضوء على الجو العام الذى كانت تعيش فيه السيدة هارويل " .

أومأ السيد كوين .

قال بجدية : " إن الجو العام مهم فعلاً " .

استكمل الآخر حديثه قائلاً : " ونحن نملك عنها بعض المعلومات . فهى فى الثالثة والعشرين فقط ،

سمراء ، جميلة ، محبة للفنون ، لا توجد لديها أية صفات جامحة أو شاذة . وثرية - ولا يجب علينا نسيان ذلك . كانت يتيمة . وقد عاشت معها السيدة سانت كلير - وهى سيدة مرموقة ذات مركز اجتماعى راق - باعتبارها وصيفة لها . ولكن إلينور لى كوتو كانت تتمتع بحرية تصرف كاملة فى ثروتها . وصائدو الثروات كثيرون . فعلى الأقل عشرة من الشباب المفلس كان هناك يحومون حولها فى جميع المناسبات ؛ فى ساحة الصيد ، فى قاعات الرقص ، وأينما ذهبت . وقد أشيع فى البلدة أن اللورد ليكان - الشاب المرشح للانتخابات فى المدينة - تقدم إليها لخطبتها ولكن لم تحبه . كان ذلك حتى حضر الكابتن ريتشارد هارويل .

أقام الكابتن هارويل فى النُزل المحلى أثناء موسم الصيد . كان جريئًا ومفعمًا بالحيوية . وكان شابا وسيما ومرحا ومتهورا . هل تذكر المقولة القديمة يا سيد كوين ، تلك التى تقول " مبارك هذا الزفاف السريع وغير المعقد " . على الأقل ينسحب هذا القول جزئيًا عليهما . فبعد شهرين فقط ، كان ريتشارد هارويل وإلينور لى كوتو مخطوبين .

وقد تم زفافهما بعد ثلاثة أشهر . وقد سافر الزوجان للخارج لمدة أسبوعين لقضاء شهر العسل ، ثم عادا ليستقرا فى منزل آشلى جرانج . وقد أخبرنا مالك النُزل لتوه بأنه كان فى ليلة عاصفة مثل هذه حينما عادا لمنزلهما . هل

كان ذلك فألاً سيئا ؟ من يعرف ؟ على أية حال ، فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى ، فى السابعة والنصف تقريبًا ، شوهد الكابتن هارويل يسير فى الحديقة بصحبة البستانى جون ماتياس . كان عارى الرأس ويطلق صفيرًا من فمه .كان خاليًا من الهموم وسعيدًا . ومع ذلك ومنذ هذه اللحظة على حد علمى لم ير أحدًا كابتن ريتشارد هارويل ثانية " .

توقف السيد ساترثوايت عن الحديث وهو يشعر - فى سعادة - بقرب حلول لحظة درامية . وقد أمدته نظرة إعجاب فى عينى السيد كوين بالثناء الذى يحتاجه ، ثم واصل حديثه ، قائلاً :

" كان اختفاؤه مذهلاً - غير قابل للتعليل . ولم يكن ذلك قبل اليوم التالى حينما أبلغت الزوجة المشتتة الشرطة . وكما تعلم ، فإنهم لم ينجحوا فى حل اللغز " .

سأل السيد كوين : " ولكن كانت هناك افتراضات على ما أعتقد ؟ " .

" آه ! افتراضات ، بالتأكيد . الافتراض الأول أن الكابتن هارويل قتل . ولكن إذا كان ذلك هو ما حدث ، فأين الجثة ؟ لا يمكن أن تكون قد خُطفت . علاوة على ذلك ، فما الدافع ؟ فكما كان معروفًا عنه ، فلم يكن للكابتن هارويل أى أعداء " .

سكت فجأة وكأنه غير واثق مما قاله . اتكأ السيد كوين للأمام .

قال برقة : " هل تفكر فى الشاب ستيفن جرانت ؟ " .

اعترف السيد ساترثوايت قائلاً : " نعم ، ستيفن جرانت . إن كانت تسعفنى ذاكرتى فهو كان مسئولاً عن خيول الكابتن هارويل ، والذى قام بطرده لسبب واه وتافه . ففى الصباح بعد عودتهما - فى الصباح الباكر ، شوهد ستيفن جرانت إلى جوار آشلى جرانج ولم يستطع أن يدلى بمبرر جيد لوجوده هناك . وقد احتجزته الشرطة بتهمة المسئولية عن اختفاء الكابتن هارويل ، ولكنها لم تستطع إيجاد أدلة ضده ، وفى النهاية أطلقت سراحه . صحيح أنه كان يحمل ضغينة ضد الكابتن هارويل لطرده إياه ولكن هذا الحافز كان واهيًا . افترض أن الشرطة شعرت أن عليها القيام بشىء ما . فكما قلت لتوى ، لم يكن للكابتن هارويل أى أعداء " .

قال السيد كوين بشكل تحليلى : " حسبما كان معروفًا " .

أومأ السيد ساترثوايت موافقًا ، وقال :

" نعم ، دعنا نناقش هذا الأمر . فماذا كان معروفًا عن الكابتن هارويل على أية حال ؟ فحينما فتشت الشرطة فى ماضيه لم تجد إلا معلومات شحيحة . من كان ريتشارد هارويل ؟ من أين أتى ؟ لقد بدا الأمر وكأنه خرج من العدم . لقد كان صيادًا مذهلاً وميسور الحال فيما يبدو . ولم يكترث أى شخص فى كيرتلنجتون ماليت بمعرفة

المزيد . ولم يكن للآنسة لى كوتو أبوان أوصياء للتقصى عن خطيبها . لقد كانت هى ولىّ أمر نفسها . كانت النظرية التى توصلت إليها الشرطة فى هذه المرحلة واضحة بما فيه الكفاية . فتاة ثرية ومحتال وقح . القصة القديمة المعتادة !

ولكن لم يكن الأمر كذلك . صحيح أن الآنسة لى كوتو لم يكن لديها أبوان أو أوصياء ، لكن كان لديها مجموعة من المحامين فى لندن يعملون لديها . وقد زاد الدليل الذى توصلوا إليه من عمق اللغز . لقد أرادت إلينور لى كوتو أن تهب جزءًا من ثروتها لزوجها المستقبلى ولكنه رفض . فقد كان ثريًا هو أيضًا كما ادعى . وقد ثبت فى النهاية أن هارويل لم يحصل على بنس واحد من أموال زوجته . فلم يقم أحد بالاقتراب من ثروتها .

هو إذن لم يكن محتالاً ، ولكن هل كان هدفه إذن صقل حاسته الفنية ؟ هل ابتزها بطريقة ما حتى لا تتزوج رجلاً آخر فيما بعد ؟ سوف أعترف أن شيئا من هذا القبيل خطر لى بأنه حل اللغز . لقد بدا لى الأمر دومًا كذلك - حتى الليلة " .

اتكأ السيد كوين للأمام ليحفزه .

" الليلة ؟ " .

" الليلة . أنا لست راضيًا عن هذا الحل . كيف استطاع الاختفاء فجأة وبشكل كامل بهذه الطريقة - فى

هذه الساعة من النهار عند تأهب جميع العاملين لذهابهم لعملهم ؟ " .

" ليس هناك شك فى هذه الملاحظة - فالبستانى قد رآه " .

" نعم - البستانى - جون ماثياس . أتساءل إن كان يمكنه أن يقودنا لشىء ؟ " .

قال السيد كوين : " إن الشرطة لم تتجاهله بالطبع " .

" لقد استجوبوه استجوابًا دقيقًا . وهو لم يتذبذب قط فى شهادته . وقد أيدت زوجته هذه الشهادة . لقد غادر كوخه فى الساعة السابعة لرعاية البيوت الزجاجية ، وعاد فى السابعة وأربعين دقيقة . وقد سمع الخدم صوت إغلاق الباب الأمامى فى حوالى السابعة وخمس وأربعين دقيقة . وكان هذا هو الوقت الذى غادر فيه السيد هارويل النزل . آه ! نعم ، أعلم فيم تفكر " .

قال السيد كوين : " حقًا ، هل هذا صحيح ؟ " .

" أتخيل هذا . وقت كافٍ ليتمكن ماثياس من قتل سيده . ولكن لماذا يا رجل ، لماذا ؟ وإن كان هذا هو ما حدث ، فأين أخفى الجثة ؟ " .

دخل مالك النُزُل وهو يحمل صينيّة ، وقال :

" آسف لأننى تأخرت عليكما أيها السيدان " .

وضع فوق الطاولة شريحة لحم كبيرة وإلى جوارها طبقًا ممتلئًا عن آخره بالبطاطس البنية المقرمشة . بدت الرائحة

المتصاعدة من الأطباق شهية للسيد ساترثوايت . شعر بالسعادة .

قال : " يبدو هذا ممتازًا . ممتازًا للغاية . لقد كنا نناقش اختفاء الكابتن هارويل . ماذا حدث للبستانى ماثياس ؟ " .

" اشترى منزلاً فى إيسيكس على ما أعتقد . فهو لم يرغب فى أن يقيم فى هذه الأرجاء . لقد كان البعض ينظرون إليه بارتياب كما تعلم . ولكنى لا أعتقد أن له أية علاقة بما حدث " .

أخذ السيد ساترثوايت جزءًا من الشريحة ، وتبعه السيد كوين . بدا مالك النُزُل راغبًا فى الدردشة . ولم يكن لدى السيد ساترثوايت اعتراض على ذلك ، بل على العكس .

قال : " هذا الرجل الذى كان يدعى ماثياس ؛ أى نوع من الرجال هو ؟ " .

" رجل فى منتصف العمر ، لابد أنه كان شخصًا قويًا فى أحد الأيام ، ولكنه أصبح مقوس الظهر وأعرج بفعل الروماتيزم ، وقد كان معتل الصحة للغاية ، لدرجة أنه كان كثيرًا ما يرقد فى الفراش عاجزًا عن القيام بأى عمل . وأنا شخصيًا أعتقد أنه كان كرمًا بالغًا من الآنسة إلينور أن تبقيه فى وظيفته وهو بهذه الحالة الصحية المتردية . فقد كان عديم النفع كبستانى ، إلا أن زوجته

كانت تساعد فى الأعمال المنزلية . فقد كانت طاهية بالإضافة إلى أنها كانت مستعدة دومًا لتقديم المساعدة " .

سأل السيد ساترثوايت سريعًا : " أى نوع من النساء كانت ؟ " .

أصابته إجابة مالك النُزُل بالإحباط .

" كانت ذات جسد نحيل . متوسطة العمر وذات طباع صارمة . كانت صماء أيضًا . وأنا لا أعرف الكثير عنهما . فهما لم يبقيا هنا سوى شهر ، كما تدرك ، بعد حدوث الاختفاء . إنهم يقولون إنه كان بستانيًا رائعًا فيما مضى . يا له من جميل كبير تلك التى أسدته إياه الآنسة إلينور " .

سأل السيد كوين برفق : " هل كانت مهتمة بالبستنة ؟ " .

" لا ، يا سيدى ، لا أستطيع أن أقول إنها كانت كذلك ، فلم تكن مثل بعض النساء هنا ممن يدفعن مبالغ طائلة للبستانيين ويمضين جزءًا كبيرًا من أوقاتهن رابضات على ركبتيهن أيضًا . أنا أسميها حماقة . فكما تعلم لم تكن الآنسة لى كوتو تقيم هنا إلا فى موسم الصيد الشتوى ، حيث كانت فى فصول السنة الأخرى تذهب إلى لندن وإلى تلك المدن الأجنبية المطلة على البحر . والتى يقولون إن السيدات الفرنسيات لا يفعلن بها أكثر من مجرد وضع إصبع من أصابع أقدامهن فى الماء خوفًا على ملابسهن ، وفقًا لما سمعته " .

ابتسم السيد ساترثوايت .

سأل : " ألم يكن الكابتن هارويل على علاقة بأية امرأة أخرى ؟ " .

بالرغم من أن نظريته الأولى قد دُحضت إلا أنه لايزال متشبثًا بها .

هز السيد ويليام جونز رأسه ، وقال :

" لا ، إطلاقًا . لم نسمع شيئًا عن أمر كهذا ، ولا كلمة واحدة . لا ، إنه لغز كبير ، إنه كذلك حقًا " .

قال السيد ساترثوايت فى إصرار : " ماذا عنك أنت ؟ ما هى نظريتك عما حدث ؟ " .

" ما هى نظريتى ؟ " .

" نعم " .

" لا أعرف فيم أفكر . إن جل تفكيرى ينصب على كيفية ارتكاب الجريمة ، ولكن من ارتكبها - لا أعرف . سوف أحضر لكما الجبن أيها السيدين " .

خرج من الغرفة حاملاً الأطباق الخالية من الطعام . وبعد سكون العاصفة قليلاً انفجرت ثانية بقوة مضاعفة . وملأ ضوء البرق السماء ، تلاه سريعًا دوى الرعد ، والذى جعل السيد ساترثوايت يجفل ، وقبل اختفاء الأصداء الأخيرة لصوت الرعد دخلت فتاة إلى الغرفة تحمل الجبن .

كانت طويلة وداكنة البشرة ووسيمة وذات طابع حزين . وكان الشبه بينها وبين مالك النُزُل واضحًا بما فيه الكفاية للجزم بأنها ابنته .

قال السيد كوين : " مساء الخير يا مارى . ليلة عاصفة حقًا ، أليس كذلك ؟ " .

أومأت .

تمتمت قائلة : " أبغض تلك الليالى العاصفة " .

قال السيد ساترثوايت بلطف : " هل تخافين من الرعد ؟ " .

" أخاف من الرعد ؟ لا ! أنا لا أخشى شيئًا تقريبًا . لا ، ولكن العاصفة تجعلهم يثيرون الأمر . ثرثرة ، ثرثرة ، نفس الحوار مجددًا ومجددًا ، مثل الببغاوات . وأبى هو الذى يبدأ هذا الحوار . " إن العاصفة تذكرنى بليلة اختفاء الكابتن هارويل المسكين ... " إلخ ، إلخ ، استدارت ناحية السيد كوين قائلة : " لقد سمعت كيف يثير الموضوع . ما النفع من ذلك ؟ ألا يستطيعون ترك الماضى وشأنه فقط ؟ " .

قال السيد كوين : " إن الماضى لا ينقضى إلا عند التوصل لحل لألغازه " .

" ألم ينته هذا الأمر ؟ فلنفترض أنه أراد أن يختفى فحسب ؟ إن مثل هؤلاء النبلاء أحيانًا يفعلون ذلك " .

" هل تعتقدين أنه اختفى بمحض إرادته ؟ " .

" لم لا ؟ سيكون ذلك أكثر منطقية من الافتراض القائل بأن شخصًا طيب القلب مثل ستيفن جرانت قد قتله . لماذا قد يقتله ، أود أن أعرف ذلك ؟ لقد أخطأ ستيفن ذات مرة وتحدث إليه بوقاحة ونال جزاءه لقاء ذلك . وقد حصل علىّ وظيفة أخرى جيدة . هل هذا سبب يدفعه إلى قتل الرجل بكل برود ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " ولكن بالتأكيد كانت الشرطة مقتنعة ببراءته " .

" الشرطة ! وما هى الشرطة ؟ فحينما كان يدخل ستيفن لإحدى الحانات فى ليلة ما كان الجميع ينظرون إليه بارتياب . إنهم لم يعتقدوا فعلاً أنه قتل هارويل ولكنهم لم يكونوا واثقين من ذلك ، لذا فقد كانوا ينظرون إليه فى شك . يا لها من حياة غير لطيفة لأى رجل ، أن يرى الناس يخافون منه وكأنه يختلف عن غيره فى شىء . لماذا رفض أبى زواجى من ستيفن ، قائلاً : " يمكنك أن تنالى زوجًا أفضل منه يا ابنتى . أنا لا أحمل أية ضغينة ضد ستيفن ولكن ـ حسنًا ، إننا غير واثقين مما حدث ، أليس كذلك ؟ " .

توقفت عن الكلام وكان صدرها يعلو وينخفض من فرط شعورها بالاستياء .

ثم انفجرت قائلة : " إنه أمر قاس ، قاس حقًا . ستيفن ، إنه ليس باستطاعته إيذاء ذبابة ! وطوال حياته سيكون هناك أناس يعتقدون أنه قد ارتكب هذه الجريمة .

وهذا الأمر يجعله غريب الأطوار وقاسيًا . وأنا لا أخمن هذا ، بل واثقة منه . وكلما تصرف بهذه الطريقة ، زاد شك الآخرين فيه " .

توقفت عن الحدث ثانية . كانت عيناها مثبتتين على وجه السيد كوين وكأن شيئًا فيه كان يجعلها تستشيط غضبًا بهذه الطريقة .

قال السيد ساترثوايت : " ألا يمكن القيام بشىء ما ؟ " .

كان حزينًا حقًا . وقد رأى أن ما حدث كان شيئًا محتومًا . فغموض وقلة الأدلة ضد ستيفن جرانت جعلت من الصعب بالنسبة له دحض الاتهام .

دارت الفتاة حوله .

ثم صاحت قائلة : " لا شىء سوى الحقيقة سوف تساعده . فإن تم فقط إيجاد الكابتن هارويل ، إن عاد ثانية فقط . إن علمنا ما حدث فعلاً ـ "

ثم انفجرت فى شىء يشبه البكاء وتركت الغرفة مسرعة .

قال السيد ساترثوايت : " فتاة جميلة ولكنها حزينة حقًا . أتمنى لو كان فى الإمكان فعل شىء ما حيال هذا الأمر " .

شعر قلبه العطوف بالحزن .

قال السيد كوين : " إننا نفعل ما بوسعنا . مازال أمامنا نحو نصف ساعة قبل أن تصبح سيارتك جاهزة " .

أخذ السيد ساترثوايت يحدق فيه ، وقال :

" هل تظن أن بإمكاننا التوصل للحقيقة ـ فقط عن طريق التحدث عن الأمر بهذه الطريقة " .

قال السيد كوين بجدية : " إن لديك خبرة كبيرة بالحياة . أكثر من معظم الناس " .

قال السيد ساترثوايت فى حسرة : " لقد مرت حياتى أمامى " .

" ولكنها أثناء ذلك زادت من قوة بصيرتك ، فى حين تركت آخرين لا يرون شيئًا على الإطلاق " .

قال السيد ساترثوايت : " هذا صحيح . إننى ملاحظ بارع " .

شعر بالرضا حيال نفسه . ومضت اللحظة التى شعر فيها بالحسرة .

قال بعد دقيقة أو دقيقتين : " أنا أنظر للأمر بهذه الطريقة . من أجل التوصل إلى سبب شىء ما فلابد من دراسة الأثر " .

قال السيد كوين متفقًا معه فى الرأى : " جيد جدًا " .

" والأثر الموجود فى حالتنا تلك هو أن الآنسة لى كوتو ، أقصد السيدة هارويل ، التى أصبحت متزوجة وغير متزوجة فى الوقت ذاته . إنها ليست حرة ـ فليس بإمكانها الزواج ثانية . وحينما ندقق النظر فى ريتشارد

هارويل نجده شخصية فاسدة ، رجلا انبثق من العدم ، وهو ذو ماض غامض " .

قال السيد كوين : " أتفق معك . إننا نرى ما يراه الجميع ، ما يبدو واضحًا وجليًا ، فالكابتن هارويل مسلط عليه الأضواء كشخصية مريبة " .

نظر السيد ساترثوايت إليه فى شك . فقد بدا أن كلماته تستثير صورة مختلفة بعض الشىء داخل ذهنه .

قال : " لقد قمنا بدراسة الأثر المترتب . أو لنطلق عليه النتيجة . نستطيع الآن الانتقال ــ "

قاطعه السيد كوين ، قائلاً :

" إنك لم تتطرق إلى النتيجة المتعلقة بالجانب المادى " .

قال السيد ساترثوايت بعد دقيقة أو اثنتين من التفكير : " أنت محق . لابد أن ينجز المرء الشىء بشكل كامل . دعنا نفترض أن نتيجة هذه المأساة هو أن السيدة هارويل أصبحت متزوجة وغير متزوجة ، غير قادرة على الزواج ثانية ، وأن السيد سايرس برادبورن استطاع شراء آشلى جرانج بكل ما فيه لقاء ستين ألف دولار ـ أليس كذلك ؟ وأن شخصًا ما فى أسيكس استطاع أن يوفر وظيفة لجون ماثياس كبستانى ! أمام تلك المعلومات المتاحة لدينا ، هل يمكن أن يكون من دبر اختفاء الكابتن هارويل هو شخص ما من إسيكس أو السيد سايرس برادبورن " .

قال السيد كوين : " إنك تملك حسا تهكميًا " .

نظر إليه السيد ساترثوايت بحدة ، وقال :

" لكن بالطبع أنت تتفق معى أنه ـــ ؟ "

قال السيد كوين : " نعم ، أتفق معك . إن الفكرة سخيفة . ماذا بعد ؟ " .

" دعنا نتخيل أنفسنا ثانية فى هذا اليوم المشئوم حين حدث الاختفاء ـ دعنا نفترض ـ هذا الصباح " .

قال السيد كوين وهو يبتسم : " لا ، لا ، بما أننا نمتلك ـ على الأقل فى خيالنا ـ سيطرة على الوقت فدعنا نعكس الأمر ؛ دعنا نفترض أن اختفاء الكابتن هارويل حدث منذ مائة عام مضت . دعنا نفترض أننا فى عام ٢٠٢٥ ، وأننا ننظر إلى الماضى " .

قال السيد ساترثوايت ببطء : " إنك رجل غريب . إنك تؤمن بالماضى وليس بالمستقبل . لماذا ؟ " .

" لقد استخدمت منذ وقت قصير كلمة الجو العام . ليس هناك جو عام فى الوقت الحاضر " .

قال السيد ساترثوايت وهو يفكر بعمق : " هذا صحيح ، ربما . نعم هذا صحيح . إن الوقت الحاضر يتسم بالمحدودية " .

قال السيد كوين : " وصف جيد " .

انحنى السيد ساترثوايت انحناءة صغيرة ممازحًا .

قال : " إنك عطوف للغاية " .

واصل الآخر حديثه قائلاً : " دعنا نفترض أن الحادث قد وقع ليس فى العام الحالى ، بل فى العام

الماضى . لخص الأمر لى ، يا من تمتلك موهبة العبارات المحكمة " .

أخذ السيد ساترثوايت يفكر لدقيقة . كان يشعر بالغيرة لأجل هذه السمعة .

قال : " منذ مائة عام مضت كان يوجد عصر المساحيق وجنون التبرج . هل يمكننا أن نقول إن عام ١٩٢٤ كان يقع ضمن عصر الكلمات المتقاطعة وعصابة لصوص كات ؟ " .

وافق السيد كوين قائلاً : " جيد جدًا . أنت تتحدث على المستوى القومى ، لا العالمى ، أليس كذلك ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " بالنسبة للكلمات المتقاطعة لابد أن أعترف بأننى لا أعرف . ولكن عصابة لصوص كات كانت لها العديد من الجولات فى القارة برمتها . هل تذكر سلسلة السرقات الشهيرة من القصر الفرنسى ؟ لقد قيل إن رجلاً واحدًا ليس بإمكانه القيام بها . فقد قاموا بأعمال بطولية مذهلة لينجحوا فى الدخول . وكانت هناك نظرية قائلة بأن فريقًا من البهلوانات ـ الكلونديز ـ كانوا متورطين بالأمر . لقد رأيت أداءهم ذات مرة ـ إنهم رائعون حقًا . وهذا الفريق يتكون من أم وابن وابنة . وقد اختفوا من فوق المسرح بطريقة غامضة . ولكننا ابتعدنا كثيرًا عن موضوعنا الأصلى " .

قال السيد كوين : " إننا لم نبتعد كثيرًا ، بل نسير على الدرب الصحيح " .

قال السيد ساترثوايت وهو يضحك : " حيث لن تقوم السيدات الفرنسيات بوضع إصبع من أصابع أقدامهن فى الماء كما قال مضيفنا المبجل " .

سادت فترة صمت . بدت مهمة إلى حد ما .

صاح السيد ساترثوايت : " لماذا اختفى ؟ لماذا ؟ إن الأمر مذهل ، يشبه الحيل السحرية " .

قال السيد كوين : " نعم ، حيلة سحرية . إن تلك العبارة تصف الأمر بدقة . الجو العام مرة أخرى ، كما ترى . وما هو جوهر الحيلة السحرية ؟ " .

قال السيد ساترثوايت عفويًا : " سرعة اليد تخدع العين " .

" هذا هو كل شيء ، أليس كذلك ؟ خداع العين ؟ فى بعض الأحيان باستخدام سرعة اليد ، وفى أحيان أخرى باستخدام وسائل مختلفة . وهناك العديد من الوسائل ، طلقة نارية ، التلويح بوشاح أحمر ، فى بعض الأحيان يبدو هذا مهمًا ، ولكن فى الحقيقة فإنه ليس كذلك . فيتم تحويل انتباه العين فقط عن النشاط الحقيقى ، حيث إنها تنجذب إلى الحدث المذهل الذى لا يعنى شيئًا ـ لا يعنى شيئًا على الإطلاق " .

اتكأ السيد ساترثوايت للأمام وعيناه تبرقان ، وقال :

" هناك شيء ما فيما قلته . إنها فكرة " .

واصل كلامه برفق : " الطلقة النارية . ما هى الطلقة النارية فى الحيلة السحرية التى نتحدث عنها ؟ ما هى اللحظة المذهلة التى جذبت الانتباه ؟ " .

أخذ نفسه فى حدة .

زفر السيد ساترثوايت وهو يقول : " الاختفاء ، فذلك هو أهم شيء فيما حدث . فبدونه لن يتبقى شيء " .

" لن يتبقى شيء ؟ فلنفترض أن الأمور سارت على نفس الوتيرة دون حدوث هذا الأمر الدرامى ؟ " .

" أنت تعنى قيام الآنسة لى كوتو ببيع آشلى جرانج والمغادرة ـ بدون سبب ؟ " .

" حسنًا " .

" حسنًا ، لم لا ؟ كان ذلك سيثير القيل والقال على ما أعتقد ، ويثير الشك كذلك فى قيمة المقتنيات الموجودة بالمنزل ـ آه ! انتظر ! " .

ظل صامتًا لدقيقة ثم انفجر قائلاً :

" أنت محق ، إن هناك الكثير من الضوء المسلط على الكابتن هارويل . وبسبب ذلك ظلت الزوجة مهمشة . الآنسة لى كوتو ! إن الجميع يتساءل : " من هو الكابتن هارويل ؟ من أين أتى ؟ " ، لكن لأنها الطرف المجروح ، فلم يستفسر أحد بشأنها . هل كانت حقًا فرنسية كندية ؟ هل ورثت حقًا تلك المقتنيات الرائعة ؟ لقد كنت محقًا حينما قلت لتوك إننا لم نبتعد عن الموضوع الأصلى ـ بل إننا نسير على الدرب السليم . إن تلك

الأشياء التى تظن أنها موروثة ما هى إلا التحف التى سرقت من القصر الفرنسى ، معظمها أعمال فنية ذات قيمة كبيرة ، وبالتالى يصعب التخلص منها . وقد قامت بشراء المنزل ـ مقابل مبلغ زهيد على الأرجح واستقرت هناك ، ودفعت مبلغًا كبيرًا لسيدة إنجليزية ذات سمعة طيبة لتصبح وصيفتها . بعد ذلك أتى هو . كانت الخطة معدة مسبقا ، الزواج ، الاختفاء ، والبحث الذى استمر تسعة أيام ! فبعد أن أصبحت امرأة مفطورة القلب توافر لها سبب وجيه يجعلها تبيع كل شىء تملكه والذى يذكرها بالماضى السعيد . والمشترى الأمريكى كان خبيرًا فنيًا ، وكانت المقتنيات أصلية وجميلة ، وبعضها لا يقدر بثمن . وقد قدم عرضًا وقبلته هى . وقد تركت البلدة وهى حزينة وبائسة . وبذلك انتهى العرض . لقد تم تشتيت انتباه العامة باستخدام سرعة اليد والطبيعة المذهلة للحيلة " .

توقف السيد ساترثوايت عن الكلام وهو يشعر بنشوة النصر .

قال بتواضع مفاجئ : " ولكن بالنسبة لك ، فأنا لن أستطيع قط رؤية الحيلة . إن لك تأثيرًا مثيرًا للغاية علىّ . إن المرء عادة ما يقول هذه العبارة دون أن يدرك معناها الحقيقى . إنك تتمتع بالبراعة فى عرض حيلك . ولكن لا يزال الأمر غير واضح بالنسبة لى . لابد أن الأمر كان صعبًا بالنسبة لهارويل أن يختفى بهذه الطريقة .

فبالرغم من كل شىء ، كانت الشرطة تبحث عنه فى كل أنحاء إنجلترا " .

قال السيد ساترثوايت متأملاً : " كان من الأسهل أن يختبأ داخل الجرانج . إن استطاعوا تدبير هذا الأمر " .

قال السيد كوين : " أعتقد أنه كان مختبئًا فى مكان قريب من الجرانج " .

أدرك السيد ساترثوايت وجود تلميح مهم فى كلام السيد كوين .

استفسر قائلاً : " كوخ ماثياس ؟ ولكن لابد أن الشرطة قد قامت بتفتيشه ؟ " .

قال السيد كوين : " أكثر من مرة على ما أعتقد " .

قال السيد ساترثوايت وهو مقطب جبينه : " ماثياس " .

قال السيد كوين : " والسيدة ماثياس " .

حدق فيه السيد ساترثوايت .

قال بشكل حالم : " لو كانت العصابة هى الكلودينز حقًا ، فقد كان ثلاثة منهم متورطين فى الأمر . الشابان هما هارويل وإلينور لى كوتو . ولكن هل كانت الأم فى تلك اللحظة هى السيدة ماثياس ؟ ولكن فى هذه الحالة ... " .

قال السيد كوين فى براءة : " كان ماثياس مصابًا بالروماتيزم ، أليس كذلك ؟ " .

صاح السيد ساترثوايت : " آه ! وجدتها . ولكن هل يمكن ذلك ؟ أعتقد أنه يمكن . أنصت ، لقد ظل ماثياس هناك مدة شهر . فى خلال هذا الوقت ، سافر هارويل وإلينور لقضاء شهر العسل بالخارج مدة أسبوعين . وبالنسبة للأسبوعين السابقين للزواج ، فمن المفترض أنهما سافرا للمدينة . ويمكن لرجل بارع أن يؤدى دور كل من ماثياس وهارويل فى نفس الوقت . فعند تواجد هارويل فى كيرتلنجتون ماليت كان ماثياس يرقد فى الفراش لازدياد حالة الروماتيزم سوءًا ـ وذلك برفقة السيدة ماثياس لتعزيز الحبكة . لقد كان دورها مهمًا للغاية ، فبدونها كان سيشك أحدهم فى الأمر . فكما قلت كان هارويل مختبئًا فى كوخ ماثياس . لقد كان هو ماثياس . وعند تنفيذ الخطة فى النهاية وبيع منزل آشلى جرانج ، ادعى هو والسيدة ماثياس أنهما سيعودان إلى منزلهما فى إسيكس . وهكذا غادر جون ماثياس وزوجته ـ للأبد " .

كان هناك طرق على باب غرفة تناول القهوة ودخل ماسترز ، وقال : " السيارة عند الباب يا سيدى " .

نهض السيد ساترثوايت . وكذلك فعل السيد كوين والذى ذهب إلى النافذة وفتح الستائر . دخل شعاع من ضوء القمر الغرفة .

قال : " لقد انتهت العاصفة " .

ارتدى السيد ساترثوايت قفازيه .

قال بجدية : " إن المفوض سيتناول العشاء معى الأسبوع القادم . لابد أن أخبره بنظريتى " .

قال السيد كوين : " وسوف يكون من السهل إثباتها أو دحضها . فمجرد مقارنة بين محتويات آشلى جرانج ومسروقات القصر الفرنسى سوف تفى بالغرض " .

قال السيد ساترثوايت : " إن السيد برادبورن تعيس الحظ حقًا ، لكن ـ حسنًا ـ " .

قال السيد كوين : " إن باستطاعته تحمل مثل هذه الخسارة على ما أعتقد " .

أمسك السيد ساترثوايت بيده .

قال : " إلى اللقاء . لا أستطيع أن أخبرك إلى أى مدى أنا سعيد بهذا اللقاء غير المتوقع . إنك ستغادر فى الصباح ، أليس كذلك ؟ " .

" على الأرجح الليلة . فإن مهمتى قد انتهت هنا ... فأنا آتى وأذهب كما تعلم " .

تذكر السيد ساترثوايت أنه سمع نفس هذه الكلمات فى وقت مبكر من هذه الليلة . أمر مثير .

خرج متوجهًا إلى السيارة وإلى ماسترز المنتظر بالخارج . وكان صوت مالك النُزُل يدوى من الداخل .

كان يقول : " لغز محير . لغز محير حقًا " .

ولكنه لم يستخدم كلمة " محير " قبل ذلك . لقد استخدم كلمة أخرى . لقد كان السيد ويليام جونز صاحب حس تمييز عالى وكان ينتقى الصفات التى يستخدمها وفقًا

لنوع الصحبة . ومن الواضح أن الصحبة التى كانت موجودة فى النزل فى هذا الوقت كانت تفضل هذه الصفة .

اتكأ السيد ساترثوايت للخلف فى سيارته الليموزين الفارهة . كان صدره يجيش بنشوة الانتصار . رأى الفتاة مارى تخرج عند العتبة وتقف أسفل لافتة النُزُل التى تصدر صريرًا .

قال السيد ساترثوايت : " إنها لا تعلم ما سوف أقوم به ! " .

أخذت لافتة نُزُل بيلز آند موتلى تتأرجح بفعل الرياح .

الفصل ٤

علامة فى السماء

كان القاضى يدلى بتصريحه الأخير لهيئة المحلفين ، قائلاً :

" الآن أيها السادة ، انتهيت تقريبًا مما أود قوله لكم . إن عليكم تقييم الأدلة الموجودة ضد هذا الرجل لتعرفوا إن كان مذنبًا بالفعل بجريمة قتل فيفيان بارنابى أم لا . إن لديكم الدليل الذى قدمه لكم الخدم بشأن موعد إطلاق النار . وقد اتفق الجميع على أن هذا هو الموعد الذى أطلقت فيه النار بالفعل . ولديكم دليل آخر وهو الخطاب الذى كتبته فيفيان بارنابى للمدعى عليه فى صباح نفس هذا اليوم ، الجمعة ، الثالث عشر من سبتمبر - الخطاب الذى لم يحاول الدفاع إنكاره . إن لديكم الدليل على أن السجين أنكر فى البداية وجوده فى ديرينج فيل ، ثم اعترف بذلك لاحقًا . حينما أثبتت الشرطة وجوده هناك بالأدلة . وبإمكانكم وضع

استنتاجاتكم الخاصة بناء على هذا الإنكار . إن هذه ليست قضية يتوافر بها دليل مباشر . وسوف ينبغى عليكم التوصل لاستنتاجاتكم الخاصة بناء على الحافز - الوسيلة والفرصة . وكانت مرافعة الدفاع تتلخص فى دخول شخص آخر غير معروف لغرفة الموسيقى بعد مغادرة المدعى عليه ، وقيامه بإطلاق الرصاص على فيفيان بارنابى من بندقية المتهم ، الذى ادعى أن حالة غريبة من النسيان قد أصابته وجعلته ينساها وراءه . وقد سمعتم القصة التى رواها المدعى عليه عن السبب الذى جعل عودته إلى منزله تستغرق نصف ساعة . وإن كنتم لا تصدقون قصة المدعى عليه وتؤمنون بما لا يدع مجالاً للشك أنه قام فى يوم الجمعة الموافق الثالث عشر من سبتمبر بتصويب مسدسه عن كثب إلى رأس فيفيان بارنابى بنية قتلها ، فلابد أن يكون حكمكم بالإدانة . وإن كنتم على الجانب الآخر تتشككون فى حقيقة ما حدث فلابد أن تقوموا بتبرئة السجين . سوف أطلب منكم الآن الذهاب إلى غرفتكم للتداول وإبلاغى عند توصلكم لقرار " .

ظل المحلفون يتداولون طوال نصف ساعة تقريبًا . وقد عادوا بالحكم الذى توقعه الجميع - ألا وهو حكم الإدانة .

غادر السيد ساترثوايت قاعة المحكمة بعد سماع الحكم وتقطيبة كبيرة مرسومة على وجهه .

فمحاكمة جريمة قتل مثل هذه لم تكن تجذب انتباهه . فكان ذا مزاج صعب الإرضاء لدرجة لا تجعله

يجد متعة فى تفاصيل جريمة عادية . ولكن قضية وايلد كانت مختلفة . فكان الشاب مارتين وايلد رجلاً نبيلاً - وكانت الضحية ، وهى الزوجة الشابة للسيد جورج بارنابى ، تربطها معرفة شخصية بهذا الرجل .

كان يفكر فى كل هذا بينما كان يسير فى شارع هولبورن ، وبعد ذلك اندفع داخل شبكة من الشوارع الحقيرة المؤدية إلى سوهو . فى أحد هذه الشوارع كان يوجد مطعم صغير يعرفه فقط القليلون ، من بينهم السيد ساترثوايت . وهو لم يكن مطعمًا رخيصًا بل على العكس ، فقد كانت أسعار وجباته مرتفعة للغاية ؛ حيث كان يقدم الطعام حصريًا لخبراء الطعام من أصحاب الذوق الرفيع . وقد كان هادئًا - فلا تعزف فيه موسيقى الجاز حتى لا تفسد جوه الهادئ - وكان مظلمًا بعض الشىء ويتحرك النادلون فيه بخفة دون إصدار أية أصوات وهم يحملون الأطباق الفضية وكأنهم يشاركون فى طقس دينى ما . كان اسم هذا المطعم هو أرليشينو .

وهو لا يزال يفكر ، دخل السيد ساترثوايت مطعم أرليشينو ، وشق طريقه إلى طاولته المفضلة فى ركن بعيد . ونظرًا لظلمة المكان فإنه لم يلاحظ أنها كانت مشغولة إلا حينما اقترب منها للغاية ؛ حيث كان يجلس عليها رجل طويل أسمر اللون كان وجهه يحجبه الظل ، والذى ألقت النافذة بجواره ، على ملابسه غير الزاهية ألوانًا متعددة وصاخبة .

وكان السيد ساترثوايت على وشك الاستدارة مرة أخرى ولكن فى هذه اللحظة تحرك الشخص الغريب بعض الشيء فعرفه على الفور .

قال السيد ساترثوايت بأسلوبه عتيق الطراز فى الحديث : " يا إلهى ! إنه السيد كوين ! " .

لقد تقابل هو والسيد كوين ثلاث مرات قبل ذلك ، وكانت جميع هذه اللقاءات تتمخض عن شىء غير عادى . يا له من رجل غريب حقًا السيد كوين هذا ، فهو يتمتع ببراعة كبيرة فى إظهار الأمور التى تعرفها بالفعل بطريقة مختلفة تمامًا لم تعهدها من قبل .

على الفور شعر السيد ساترثوايت بالإثارة . لقد كان دوره يقتصر على المشاهدة ، ولكن فى بعض الأحيان حينما يكون بصحبة السيد كوين فإنه يعتلى خشبة المسرح ليصبح هو بطل المسرحية .

قال فى سعادة بالغة : " إن هذه مصادفة سعيدة حقًا . هل تمانع فى انضمامى إليك ؟ " .

قال السيد كوين : " بالطبع لا . فكما ترى ، أنا لم أبدأ فى تناول طعامى بعد " .

ظهر أحد النادلين من الظلام . ولأن السيد ساترثوايت كان ذا ذوق رفيع فى الطعام فقد ركز كل ملكات عقله على عملية انتقاء الطعام . وفى خلال دقائق قليلة خرج النادل الرئيسى وعلى شفتيه ابتسامة استحسان ، وبدأ

تابع صغير له بتقديم خدماته . استدار السيد ساترثوايت ناحية السيد كوين .

قال : " لقد خرجت لتوى من أولد بيلى . أمر محزن حقًا " .

قال السيد كوين : " هل تمت إدانة المتهم ؟ " .

" نعم ، لقد توصل المحلفون للحكم فى نصف ساعة فقط " .

أحنى السيد كوين رأسه .

قال : " إنها نتيجة كان يتعذر تجنبها ـ وفقًا للأدلة " .

قال السيد ساترثوايت : " ومع ذلك " ثم سكت .

أنهى السيد كوين العبارة له ، قائلاً :

" ومع ذلك فأنت تتعاطف مع المتهم ، أليس كذلك ؟ " .

" أعتقد ذلك . إن مارتن وايلد هو شاب لطيف ووسيم ـ فأنا لا أستطيع أن أصدق قيامه بذلك . ولكن على أية حال ، فقد رأينا مؤخرًا العديد من الشبان ذوى الوسامة الذين اتضح بعد ذلك أنهم قتلة من النوع بارد الدم والبغيض " .

قال السيد كوين فى هدوء : " نعم العديد " .

قال السيد ساترثوايت بعدما أجفل قليلاً : " أستميحك عذرًا ؟ " .

لقد سبق مارتن وايلد الكثيرون ممن ارتكبوا نفس الجريمة . لقد كانت هناك نزعة من البداية للنظر إلى هذه الجريمة على أنها واحدة من سلسلة من نفس النوع من الجرائم - رجل يبغى تحرير نفسه من امرأة من أجل الزواج من امرأة أخرى " .

قال السيد ساترثوايت فى شك : " حسنًا . بناء على الأدلة — "

قال السيد كوين سريعًا : " آه ! أخشى أننى لا أعرف تلك الأدلة " .

عاد للسيد ساترثوايت الشعور بالثقة بالنفس سريعًا . شعر بتدفق فجائى للقوة . لقد أغراه الموقف على أن يكون دراميًا ، فقال :

" دعنى أحاول سردها عليك : لقد التقيت مسبقًا بعائلة بارنابى . وأعرف جوانب حياتهم بدقة . معى سوف تدخل إلى الكواليس - سوف ترى الأمور عن كثب " .

اتكأ السيد كوين للأمام وابتسامة تشجيع ترتسم على وجهه .

تمتم قائلاً : " إن كان بإمكان أى شخص القيام بذلك فهو السيد ساترثوايت " .

أمسك السيد ساترثوايت الطاولة بكلتا يديه . لقد تأججت روحه المعنوية . فى هذه اللحظة كان هو الممثل الرئيسى - ممثل أدواته الأساسية هى الكلمات .

وبرفق بدأ فى رسم خطوط الحياة فى ديرينج فيل . السير جورج بارنابى ، رجل عجوز ، بدين ، فخور بثروته . رجل يثير جلبة دومًا بشأن الأمور الصغيرة فى الحياة . رجل يقوم بإعادة ضبط ساعاته فى ظهيرة كل يوم جمعة والذى يدفع أجور خادميه فى صباح كل ثلاثاء ، والذى يتأكد بنفسه من أن جميع أبواب المنزل موصدة كل ليلة . رجل حريص حقًا .

ومن السير جورج انتقل إلى الليدى بارنابى . هنا أصبحت كلماته أكثر رقة ، ولكن لم تتأثر الثقة التى تغلفها قط . لقد رآها مرة واحدة فقط ، ولكن تأثيرها عليه كان قويًا وغير محدود . إنها مخلوقة تشع حيوية وجرأة وهى صغيرة للغاية . فتاة وقعت فى شرك ، هكذا وصفها قائلاً :

" لقد كانت تكرهه ، أتفهم ذلك ؟ لقد تزوجته قبل أن تصل إلى السن التى تجعلها تدرك ما تفعله . والآن — "

كانت بائسة - هكذا قال عنها . لم تعرف ماذا تفعل . لم يكن لديها مال خاص بها ، بل كانت تعتمد اعتمادًا كليًا على الزوج العجوز . ولكنها كانت فى وضع حرج - لا تزال لا تعلم بعد مواطن قوتها ، وتتسم بأنها جميلة لكن ينقصها حسن التصرف ، كما أنها كانت جشعة . أكد السيد ساترثوايت على هذه الصفة بحسم . فإلى جانب جرأتها فكانت تتسم كذلك بأنها جشعة - مع نزعة قوية للتشبث بالحياة .

واصل السيد ساترثوايت حديثه قائلاً : " أنا لم ألتق من قبل بمارتن وايلد . ولكننى سمعت عنه . إنه يعيش على بعد أقل من ميل . ويعمل فى مجال الزراعة . وهى كانت مهتمة بالزراعة - أو تدعى ذلك . إن أردت أن تعرف رأيى ، فأنا أعتقد أنها كانت تتظاهر بذلك . أعتقد أنها رأت أنه سبيلها الوحيد للهرب - وقد تمسكت به وتشبثت فيه بجشع مثلما يفعل الطفل . حسنًا ، لا يمكن أن تكون هناك سوى نهاية واحدة لهذا الأمر . ونحن نعرف تلك النهاية ، لأنه تمت قراءة الخطابات فى المحكمة . لقد احتفظ بخطاباتها ولكنها لم تحتفظ بخطاباته . ولكن من محتوى خطاباتها يستطيع المرء أن يستنتج أنه لم يكن جادًا . لقد اعترف بالكثير . كانت هناك الفتاة الأخرى . كانت تعيش كذلك فى قرية ديرينج فيل . كان أبوها هو الطبيب هناك . ربما تكون قد رأيتها فى المحكمة ؟ لا ، أتذكر الآن ، إنك لم تكن هناك كما قلت . سوف أقوم بوصفها لك . إنها فتاة جميلة - جميلة للغاية . رقيقة . ربما - نعم ربما تكون غبية بعض الشىء . ولكنها هادئة للغاية . ومخلصة ، فوق كل شىء هى مخلصة " .

نظر إلى السيد كوين طلبًا للتشجيع ، فمنحه إياه بالتبسم له فى تقدير . واصل السيد ساترثوايت حديثه قائلاً :

" هل سمعت محتوى هذا الخطاب الأخير الذى قرأوه - لابد أن تكون قد رأيته ، أقصد فى الصحف . هذا الذى كُتب فى يوم الجمعة الموافق الثالث عشر من سبتمبر . لقد كان مليئًا بعبارات اللوم البائسة والتهديدات الغامضة ، وانتهى باستجداء مارتن وايلد بأن يأتى إلى ديرينج فيل فى تلك الليلة فى الساعة السادسة ، حيث فى الخطاب قولها : " *سوف أترك لك الباب الجانبى مفتوحًا ، حتى لا يعلم أحد أنك كنت هنا . وأنا سوف أكون بحجرة الموسيقى* " . وقد تم تسليمه باليد .

سكت السيد ساترثوايت لدقيقة أو اثنتين ، ثم أردف قائلاً :

" وعند القبض عليه ، كما تتذكر ، أنكر مارتن وايلد ذهابه إلى المنزل فى هذه الليلة . فقد قال إنه أخذ بندقيته وخرج إلى الغابة ليصطاد . ولكن حينما أظهرت الشرطة دليلها تغيرت هذه الأقوال . لقد وجدوا بصمات أصابعه ، كما تتذكر ، على خشب الباب الجانبى ، وعلى أحد كوبىّ الكوكتيل على الطاولة بحجرة الموسيقى . وقد اعترف فى ذلك الحين بأنه أتى لرؤية الليدى بارنابى وأنهما تشاجرا ، ولكن انتهى اللقاء بنجاحه فى تهدئتها . وقد أقسم أنه ترك بندقيته متكئة على جدار بجوار الباب وأنه ترك الليدى بارنابى حية وبخير حال ، وكان الوقت حينها السادسة وست عشرة أو سبع عشرة دقيقة . وقد عاد مباشرة إلى منزله ، حسب أقواله . ولكن

أوضحت الأدلة أنه لم يُعد إلى مزرعته قبل السادسة وخمس وأربعين دقيقة . وكما ذكرت لتوى ، لا يبعد منزله أكثر من ميل واحد . فالوصول إلى هناك لا يستغرق نصف ساعة . وقد نسى تمامًا بندقيته . كما قال . إنها أقوال بعيدة الاحتمال ومع ذلك — "

استفسر السيد كوين قائلاً : " ومع ذلك ؟ " .

قال السيد ساترثوايت ببطء : " حسنًا ، من المحتمل أن يكون صادقًا ، أليس كذلك ؟ لقد سخر المجلس من تلك الأقوال بالطبع ، ولكننى أعتقد أنه مخطئ . كما تعلم ، أنا أعرف الكثير من الشباب ، وأعرف أن تلك الأجواء العاطفية تزعجهم بشدة ـ خاصة هذا النوع العصبى مثل مارتن وايلد . إن النساء بإمكانهن خوض موقف مثل هذا والخروج منه وهن شاعرات أنهن أفضل حالاً ودون أن يتأثر إدراكهن للبيئة المحيطة بالسلب ؛ فمثل تلك المواقف تكون بمثابة صمام الأمان بالنسبة لهن ، فتهدأ أعصابهن وما إلى ذلك . ولكننى أستطيع أن أرى تأثير نفس هذه المواقف على شخص مثل مارتن وايلد ، إنها قد تجعل رأسه تدور وكأنها فى دوامة ، وتتركه بائسًا وتجعله ينسى تمامًا أمر البندقية التى تركها متكئة على الجدار " .

ظل صامتًا لبضع دقائق قبل أن يواصل كلامه ، قائلاً :

" لكن هذا لا يهم كثيرًا ، حيث إن الجزء التالى من القصة واضح للغاية ، للأسف . كانت الساعة السادسة وعشرين دقيقة تمامًا حينما دوى صوت الطلقة النارية . جميع الخدم سمعوها ؛ الطاهى وخادمة المطبخ وكبير الخدم وخادمة المنزل وخادمة الليدى بارنابى الخاصة . وقد جاءوا مسرعين إلى حجرة الموسيقى . كانت جاثمة فوق ذراع مقعدها . لقد تم تصويب البندقية على مقربة من مؤخرة رأسها ، لذا فلم تتح الفرصة للرصاصة أن تطيش . على الأقل رصاصتين اخترقتا المخ " .

سكت ثانية وسأل السيد كوين ، قائلاً :

" لقد أدلى الخدم بشهادتهم ، أليس كذلك ؟ " .

أومأ السيد ساترثوايت ، قائلاً :

" نعم ، وصل كبير الخدم إلى هناك قبل الآخرين بدقيقة أو اثنتين ، ولكن كانت أقوالهم جميعًا متماثلة " .

قال السيد كوين : " إذن ، لقد أدلوا جميعًا بشهاداتهم . لم يستثنى منهم أحد ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " الآن أتذكر . لقد تم استدعاء خادمة المنزل فى قاعة المحكمة ، ولكنها لم تحضر . كانت قد سافرت إلى كندا فى ذلك الحين على ما أعتقد " .

قال السيد كوين : " نعم " .

فساد الصمت وبدا أن جو المطعم الصغير أصبح مشحونًا ـ بعض الشيء بمشاعر التوتر . شعر السيد ساترثوايت فجأة أن عليه تبرير ذلك .

قال فجأة : " لماذا لم تدل بشهادتها ؟ " .

قال السيد كوين وهو يهز كتفيه باستخفاف : " ولماذا عليها الإدلاء بها ؟ " .

أزعج السؤال السيد ساترثوايت إلى حد ما . لقد أراد تجنبه والعودة إلى شيء مألوف ، فقال :

" لم يكن هناك الكثير من الشك فيمن أطلق الرصاص . فى الواقع بدا أن الخدم قد فقدوا التركيز قليلاً . فلم يكن يوجد بالمنزل من يستطيع التصرف بحكمة ومسئولية . فقد انقضت بضع دقائق قبل أن يفكر أى واحد منهم فى الاتصال بالشرطة ، وحينما هموا بالقيام بذلك وجدوا الهاتف معطلاً " .

قال السيد كوين : " حقًا ! كان الهاتف معطلاً " .

قال السيد ساترثوايت : " نعم " ـ ثم أدرك فجأة أنه قال شيئًا مهمًا للغاية . قال ببطء : " ربما قام شخص ما بتعطيل الهاتف عن عمد . ولكن لا يبدو ذلك منطقيًا . فقد حدثت الوفاة على الفور " .

لم يقل السيد كوين شيئًا ، وشعر السيد ساترثوايت بأن تعليله غير مرض .

واصل حديثه قائلاً : " وقد وجهت أصابع الاتهام إلى الشاب وايلد فقط . ولكن وفقًا لأقواله ، فإنه قد غادر

المنزل قبل ثلاث دقائق فقط من إطلاق النار . مَنْ غيرُهُ يمكن أن يكون قد أطلق النار ؟ كان السيد جورج فى حفل للعب البريدج على بعد بنايات قليلة . وقد غادر من هناك فى السادسة والنصف وقابله أحد الخدم عند البوابة لينقل له الأخبار . فقد انتهت آخر مباراة فى السادسة والنصف تمامًا ـ لا شك فى ذلك . ثم هناك سكرتير السيد جورج ، هنرى تومسون . كان فى لندن فى هذا اليوم ، وكان ، فى الواقع ، فى اجتماع لحظة إطلاق النار . وأخيرًا هناك سيلفيا ديل ، والتى بالرغم من أنها تمتلك دافعًا قويًا لارتكاب الجريمة ، إلا أنها فيما يبدو من المستحيل أن تكون لها أدنى علاقة بها . فقد كانت فى محطة ديرينج فيل تودع صديقة لها سوف تستقل قطار السادسة وثمان وعشرين دقيقة ، وهذا يستبعدها . ثم هناك الخدم . ما الدافع الذى قد يجعلهم يرتكبون مثل هذه الجريمة ؟ علاوة على ذلك فقد وصلوا جميعًا إلى مكان الجريمة فى نفس الوقت . لا ، لابد أنه كان مارتن وايلد " .

ولكنه قال هذه العبارة بصوت غير راض .

بدءا فى تناول طعامهما . لم يكن السيد كوين راغبًا فى الثرثرة كثيرًا ، وكان السيد ساترثوايت قد قال كل ما لديه . ولكن صمتهما هذا لم يكن عقيمًا . فقد كان زاخرًا بمشاعر عدم الرضا لدى السيد ساترثوايت ، والتى عززها بطريقة غريبة إذعان الرجل الآخر .

وضع السيد ساترثوايت فجأة سكينه وشوكته على الطاولة محدثًا صوت قعقعة .

قال : " لنفترض أن هذا الرجل برىء حقًا . سوف يتم شنقه " .

بدا منزعجًا ومفزوعًا من ذلك الأمر . ظل السيد كوين صامتًا .

قال السيد ساترثوايت : " لكن — " ثم صمت . " لماذا كان على هذه المرأة الذهاب إلى كندا ؟ " ثم سكت فجأة .

هز السيد كوين رأسه .

واصل السيد ساترثوايت حديثه فى تذمر : " أنا لا أعرف ، حتى ، إلى أين ذهبت فى كندا " .

اقترح الآخر : " هل يمكنك معرفة ذلك " .

" أعتقد أن بإمكانى هذا . يمكن سؤال كبير الخدم ، إنه يعرف . أو ربما تومسون السكرتير " .

سكت ثانية . وعندما واصل حديثه بدا كأنه يلتمس الأعذار ، حيث قال :

" إن الأمر ليس له علاقة بى على الإطلاق ؟ " .

" ولكن هذا الشاب سوف يعدم خلال ثلاثة أسابيع " .

" حسنًا ، نعم - إن فكرت فى الأمر بهذه الطريقة . نعم أفهم ما تعنيه . الحياة والموت ، وتلك الفتاة المسكينة أيضًا . أنا لست عنيدًا - ولكن ، ما فائدة ذلك ؟ أليس الأمر برمته مجرد تخيلات ؟ حتى إن عرفت إلى أين

ذهبت المرأة فى كندا - فسوف يعنى ذلك أننى لابد أن أذهب إلى هناك بنفسى " .

بدا السيد ساترثوايت منزعجًا للغاية .

ثم أضاف : " وأنا كنت أفكر فى الذهاب إلى الريفييرا الأسبوع المقبل " .

وكانت نظرته إلى السيد كوين تقول بوضوح : " أنت سوف تمنعنى من الذهاب ، أليس كذلك ؟ " .

" أنت لم تذهب إلى كندا قبل ذلك ؟ " .

" إطلاقًا " .

" إنه بلد مثير حقًا " .

نظر إليه ساترثوايت فى عدم ثقة ، وقال :

" هل تعتقد أنه ينبغى علىَّ أن أذهب ؟ " .

اتكأ السيد كوين فى مقعده وأشعل سيجارة . ثم تحدث من بين نفثات الدخان ، قائلاً :

" إنك رجل غنى يا سيد ساترثوايت . لست مليونيرًا ، ولكنك قادر على ممارسة أى هواية دون التفكير فى النفقات . لقد قمت بمشاهدة الكثير من دراما الآخرين . ألم تفكر ولو مرة فى اتخاذ خطوة للأمام والمشاركة فى التمثيل ؟ ألم تر نفسك ولو لدقيقة حكمًا على مصائر الآخرين - تقف فى منتصف المسرح وتتحكم فى حياة وموت الآخرين ؟ " .

اتكأ السيد ساترثوايت للأمام . تسربت الحماسة إليه ثانية ، فقال :

" أنت تعنى أننى إذا ذهبت إلى كندا للقيام بتلك المطاردة ـــ ؟ "

ابتسم السيد كوين .

قال بسخرية : " يا إلهى ! لقد كان اقتراحك أنت ، الذهاب إلى كندا ، وليس اقتراحى " .

قال السيد ساترثوايت : " لا يمكنك أن تثبط عزيمتى بهذه الطريقة . فى كل مرة أقابلك فيها ـــ " . توقف عن الكلام .

" حسنًا ؟ " .

" ثمة شيء يتعلق بك لا أفهمه . ربما لن أفهمه قط . فى المرة الأخيرة التى قابلتك فيها ـــ "

" فى ليلة عيد الميلاد " .

أجفل السيد ساترثوايت وكأن الكلمات كانت تحمل تلميحًا لا يفهمه .

سأل فى حيرة : " هل كانت ليلة عيد الميلاد ؟ " .

" نعم . ولكن دعنا لا نكترث لهذا كثيرًا . إنه غير مهم ، أليس كذلك ؟ " .

قال السيد ساترثوايت فى دماثة : " ما دمت تعتقد ذلك " . شعر أن دليلاً قويًا يتسرب من بين يديه ، فأردف قائلاً : " حينما أعود من كندا " ، سكت قليلاً ثم قال : " أود أن أراك مرة أخرى " .

قال السيد كوين فى أسف : " أخشى أنه ليس لدىَ عنوان ثابت حاليًا . ولكننى آتى كثيرًا إلى هذا المكان . إذا

كنت ترتاده أنت أيضًا كثيرا ، فلا شك أننا سنلتقى قبل أن يمضى وقت طويل " .

افترقا فى سعادة .

كان السيد ساترثوايت متحمسًا للغاية . هرع إلى شركة كوك ، واستفسر عن مواعيد سفر البواخر . ثم اتصل بـ " ديرينج هيل " . رد عليه كبير الخدم بصوت دمث وملئ بالاحترام .

" إن اسمى ساترثوايت . أنا أتحدث نيابة عن ـ آه ـ شركة محاماة . كنت أرغب فى طرح بعض الأسئلة عن امرأة كانت تعمل خادمة فى منزلكم " .

" هل تقصد لويزا يا سيدى ؟ لويزا بولارد ؟ " .

قال السيد ساترثوايت وهو سعيد لأنه عرف اسمها : " نعم ، إنها هى " .

" أخشى أنها ليست بالبلدة يا سيدى . لقد سافرت إلى كندا منذ ستة أشهر " .

" هل يمكنك إعطائى عنوانها الحالى ؟ " .

قال كبير الخدم إنه ليس فى استطاعته ذلك . لقد كان مكانًا فى الجبال ذلك الذى ذهبت إليه ـ إنه يحمل اسمًا اسكتلنديًا ـ آه ! بانف ، نعم إنه هو . بعض من الشابات الأخريات فى المنزل كن يتوقعن أن يعرفن عنها أى شىء ولكنها لم ترسل لهن أية خطابات ولم تعطهن عنوانها .

شكره السيد ساترثوايت وأقفل الخط . كانت الشجاعة والبسالة مازالتا تتملكان منه . كانت روح المغامرة تتأرجح

فى صدره . إنه سوف يذهب إلى بانف . إن كانت لويزا بولارد تلك هناك فإنه سوف يقتفى أثرها بطريقة أو بأخرى .

وكان من المدهش حقًا بالنسبة له أنه استمتع بالرحلة للغاية . لقد مضت العديد من السنوات قبل أن يسافر فى رحلة طويلة عبر البحار . فقد كانت الريفييرا ولوتوكيت وديفيل واسكتلندا هى الأماكن التى اعتاد الذهاب إليها . وشعوره بأنه كان ذاهبًا فى مهمة مستحيلة أضاف الحماسة إلى رحلته . بالطبع سيظن رفاق رحلته بأنه أحمق إلا إذا عرفوا سبب ذهابه إلى كندا ! ولكنهم بالرغم من كل شيء لا يعرفون السيد كوين .

فى بانف عثر على ضالته بسهولة . فقد كانت لويزا تعمل فى الفندق الكبير هناك . فبعد وصوله باثنتى عشرة ساعة كان يقف وجهًا لوجه أمامها .

كانت امرأة فى الخامسة والثلاثين من عمرها ، نحيفة للغاية ، ولكنها كانت ذات بناء جسمانى قوى . كان شعرها بنيًا شاحبًا ومجعدًا بعض الشيء ، وذات عينين بنيتين صادقتين . وقد اعتقد أنها حمقاء بعض الشيء ، ولكن مع ذلك فهى أهل للثقة .

وقد صدقت على الفور ادعاءه بأنه مفوض لجمع بعض المعلومات منها عن مأساة ديرينج هيل .

" لقد قرأت فى الصحف أن السيد مارتن وايلد قد تمت إدانته يا سيدى . أمر محزن حقًا " .

لكنها بدت بالرغم من ذلك واثقة من أنه مذنب .

" إنه شاب لطيف ارتكب خطأ . ولكن بالرغم من أننى لا أحب أن أتحدث بالسوء عن الموتى إلا أننى أعرف جيدًا أن سيدتى هى التى قادته لارتكاب هذا الخطأ . لقد أبت أن تتركه وشأنه . حسنًا ، لقد نال كل منهما جزاءه . لقد كانت هناك لوحة معلقة على جدار غرفتى عندما كنت صغيرة تحمل هذه العبارة : " لا يمكن خداع الله " وهذا صحيح . لقد كنت أعرف أن شيئًا سيحدث فى هذه الليلة ـ وقد حدث بالفعل " .

قال السيد ساترثوايت : " كيف ذلك ؟ " .

فأجابت : " لقد كنت فى غرفتى يا سيدى أبدل ثوبى ، وتصادف أننى كنت أنظر من النافذة . كان هناك قطار يتحرك وقد اعتلى دخانه الأبيض السماء ، ولا أعرف إن كنت ستصدقنى أم لا ، ولكن هذا الدخان قد تجمع فى السماء ليكون يدا عملاقة . يد كبيرة تقابل اللون القرمزى للسماء . كانت الأصابع معقوفة وكأنها تريد الوصول لشيء ما . وقد أصبت بالذهول . وقلت لنفسى " أتدركين شيئًا ، إن تلك علامة تشير أن شيئًا ما سوف يحدث " ـ وفى تلك اللحظة بالتحديد سمعت طلقا ناريًا . قلت لنفسى " ها هو قد حدث " ثم هرعت للأسفل وانضممت لكارى والآخرين الذين كانوا فى الردهة ، وذهبنا إلى حجرة الموسيقى حيث كانت توجد ، مقتولة بالرصاص فى رأسها ـ والدم وكل شيء . شيء فظيع

حقًا ! ولكنى تحدثت وأخبرت السير جورج عن العلامة التى رأيتها سابقًا ولكنه لم يكترث لهذا كثيرًا . يوم مشئوم ، لقد شعرت بذلك فى دمى منذ الصباح الباكر . لقد كان يوم الثلاثاء الذى كان يوافق الثالث عشر من سبتمبر ـ فماذا كنت تتوقع ؟ " .

أخذت تتحدث على نحو غير مترابط . وكان السيد ساترثوايت صبورًا . وكان يرغمها على العودة إلى التحدث عن الجريمة مرارًا وتكرارًا ويستجوبها عن كثب . وفى النهاية اضطر أن يعترف بهزيمته . لقد أخبرته لويزا بولارد بكل ما تعرفه ، وكانت قصتها بسيطة ومباشرة .

ومع ذلك فقد اكتشف حقيقة مهمة ؛ أن السيد تومسون سكرتير جورج هو الذى اقترح عليها العمل بوظيفتها الحالية ، وقد كان الأجر عاليًا للغاية لدرجة جعلتها تقبل الوظيفة بالرغم من أنها كانت تتطلب مغادرة إنجلترا على الفور . وقد قام رجل يدعى السيد دينمان بجميع الترتيبات ، ونصحها كذلك بعدم الكتابة لصديقاتها الخادمات ، حيث إن ذلك " قد يوقعها فى مشكلات مع سلطات الهجرة " ، وهى النصيحة التى عملت بها دون تفكير .

وكان الأجر الذى تحصل عليه من وظيفتها الحالية عاليًا جدًا ، لدرجة أن السيد ساترثوايت شعر بالذهول حينما عرفه . وبعد بعض التردد قرر الذهاب للمدعو السيد دينمان هذا .

ولم يجد الكثير من الصعوبة فى حث السيد دينمان على البوح بكل ما يعرفه . لقد تقابل الأخير مع تومسون فى لندن وطلب منه تومسون القيام بذلك . فقد كتب له السير بارنابى فى سبتمبر يقول له إنه لأسباب شخصية يرغب السير جورج فى إبعاد هذه الفتاة عن إنجلترا . هل يمكنه إيجاد وظيفة لها ؟ وقد أرسل له مبلغًا من المال لرفع الأجر ليصبح عاليًا .

قال السيد دينمان ، وهو يتكئ للخلف فى لا مبالاة فى مقعده : " المتاعب المعتادة على ما أعتقد . لكنها تبدو فتاة لطيفة " .

ولم يتفق معه السيد ساترثوايت على أن السبب كان المتاعب المعتادة . فلم يقم السير جورج بارنابى بإرسال لويزا بولارد بعيدًا لأسباب واهية . فلسبب ما كان لابد له أن يقوم بإخراجها من إنجلترا . ولكن لماذا ؟ ومن المسئول عن هذا ؟ هل السيد جورج نفسه يعمل من خلال تومسون ؟ أم الأخير يعمل لحساب نفسه ويتخذ من مرؤوسيه ستارًا له ؟

وهو لايزال يتفكر فى هذه الأسئلة ، قطع السيد ساترثوايت رحلة العودة . كان مكتئبًا وحزينًا . فلم تسفر رحلته عن شىء .

وبينما كان يشعر بالفشل ، شق طريقه إلى مطعم أرليشينو فى اليوم التالى لعودته . وقد توقع ألا يجده للوهلة الأولى ولكن لدهشته كان الوجه المألوف يجلس على

الطاولة فى الخلوة المعتادة ، وقد ابتسم وجه السيد كوين ترحيبا بالضيف .

قال السيد ساترثوايت وهو يأخذ قالبًا من الزبد : " حسنًا ، لقد أرسلتنى إلى رحلة مطاردة لطيفة " .

رفع السيد كوين حاجبيه .

اعترض قائلاً : " أنا أرسلتك ؟ لقد كانت فكرتك أنت " .

" بغض النظر عمن كان صاحب الفكرة ، فهى لم تكن ناجحة . فلم يكن لدى لويزا بولارد شيئًا لتقوله " .

وهكذا قص السيد ساترثوايت على السيد كوين تفاصيل حواره مع الخادمة ، ثم انتقل إلى لقائه مع السيد دينمان . كان السيد كوين ينصت فى صمت .

واصل السيد ساترثوايت حديثه قائلاً : " لكننى حصلت على معلومة مهمة بالرغم من ذلك . فقد تم إبعادها عن الطريق . ولكن لماذا ؟ لم أستطع أن أعرف " .

قال السيد كوين بصوت استفزازى : " كلا ؟ " .

تورد وجه السيد ساترثوايت ، وقال :

" أنت تعتقد أننى كان لابد لى من استجوابها بمزيد من البراعة . ولكننى أؤكد لك أننى حملتها على إعادة القصة مرارًا وتكرارًا . إنه ليس خطئى أننا لم نحصل على ما نبغيه " .

قال السيد كوين : " هل أنت واثق من أنك لم تحصل على مبتغاك ؟ " .

نظر السيد ساترثوايت إليه فى دهشة وأدرك تلك النظرة الحزينة التى تشوبها السخرية على الفور .

هز الرجل رأسه فى ارتباك .

ساد الصمت بعض الوقت ، ثم قال السيد كوين ، بعد تغيير نبرة صوته كلية :

" لقد رسمت لى صورة رائعة عن الأشخاص المتورطين فى هذا الأمر فى آخر لقاء لنا . فباستخدام كلمات قليلة جعلتهم يقفون أمامى وكأنهم تماثيل منحوتة . أتمنى لو أنك فعلت شيئًا مثل هذا بالنسبة للمكان ـ إنك لم تركز على المكان " .

شعر السيد ساترثوايت بالإطراء ، فقال :

" المكان ؟ ديرينج هيل ؟ حسنًا ، إنه نوع تقليدى للغاية من المنازل فى أيامنا هذه . حجارة حمراء ومشربيات . شنيع للغاية من الخارج ، ولكن مريح جدًا من الداخل . ليس منزلاً كبيرًا . يحتل نحو أكرين من الأرض . إن جميع المنازل الموجودة بهذه المنطقة متشابهة ، لقد تم بناؤها كى يعيش بها الأثرياء . والمنزل من الداخل يشبه الفنادق ـ فغرف النوم بها تشبه أجنحة الفنادق ، وكانت الحمامات وأحواض الماء الساخن والبارد توجد بجميع غرف النوم ، بالإضافة إلى العديد من المصابيح المطلية بالذهب . وجميعها مريح للغاية إلا أنها لا تشبه الطراز الريفى . ويبعد ديرينج فيل تسعة عشر ميلاً فقط عن لندن " .

كان السيد كوين ينصت باهتمام .

قال : " إن مستوى الخدمة بالقطارات سيئ للغاية حسبما سمعت " .

قال السيد ساترثوايت : " أنا لا أعرف ذلك . لقد ذهبت إلى هناك لفترة وجيزة فى الصيف الماضى . وقد وجدتها ملائمة للغاية بالنسبة لقرية . بالطبع الفارق الوقتى بين القطارات يصل إلى ساعة . فيخرج قطار من محطة ووترلو كل ثمانية وأربعين دقيقة ـ حتى الساعة ١٠,٤٨ " .

" وما الوقت الذى يستغرقه للوصول إلى ديرينج فيل ؟ " .

" نحو ٤٥ دقيقة . فيصل قطار بعد ثمان وعشرين دقيقة من بداية كل ساعة إلى ديرينج فيل " .

قال السيد كوين بنبرة مغتاظة : " بالطبع . كان لابد لى أن أتذكر . كانت الآنسة ديل تودع صديقة لها فى المحطة فى تمام الساعة ٦,٢٨ ، أليس كذلك ؟ " .

لم يجب السيد ساترثوايت لمدة دقيقة أو اثنتين . فقد عاد ذهنه سريعًا للتركيز على المشكلة التى لم يجد لها حلاً ، قال :

" أريد منك أن تخبرنى فورًا عما كنت تقصده حينما سألتنى إن كنت واثقا من أننى حصلت على ما كنت أبتغيه أم لا ؟ " .

بدا السؤال معقدًا حينما طرحه السيد ساترثوايت بهذه الطريقة ، ولكن السيد كوين لم يدع أنه لم يفهم ، حيث قال :

" أنا فقط كنت أتساءل عما إذا كنت تتسم بكثرة المطالب . فبالرغم من أى شىء ، أنت اكتشفت أن لويزا بولارد قد تم إبعادها عن المدينة . ولابد من أنهم قاموا بذلك لسبب . ولابد أن يكون هذا السبب كامنًا داخل ما قالته لك " .

قال السيد ساترثوايت مجادلاً : " حسنًا ، ماذا قالت ؟ إن كانت قد أدلت بشهادتها فى هذه المحكمة ، فماذا عساها كانت ستقول ؟ " .

قال السيد كوين : " كانت ستعيد سرد ما رأته " .

" ماذا رأت ؟ " .

" علامة فى السماء " .

حدق فيه السيد ساترثوايت .

" هل تؤمن بمثل هذا الهراء ؟ تلك الخرافة التى تزعم فيها بأنها كانت يد القدر ؟ " .

قال السيد كوين : " ربما ، ربما تكون كذلك " .

كان الآخر مرتبكا من فرط الأسلوب الوقور والرزين الذى يتحدث به السيد كوين .

قال : " هراء ، لقد قالت بنفسها إنه كان دخان القطار " .

تمتم السيد كوين : " ترى ، هل القطار الشمالى أم الجنوبى ؟ " .

" لا يمكن أن يكون الشمالى . فهو يغادر المحطة كل ساعة إلا عشر دقائق . لابد أنه كان الجنوبى ـ ذلك الذى يتحرك فى السادسة وثمان وعشرين دقيقة ـ لا ، هذا غير صحيح . لقد قالت إنها سمعت الطلق النارى بعد ذلك مباشرة ، ونحن نعلم أن موعد إطلاق النار كان فى السادسة وعشرين دقيقة . لا يمكن أن يكون القطار قد تحرك مبكرًا بحوالى عشر دقائق " .

وافق السيد كوين قائلاً : " نعم ، أنت محق " .

كان السيد ساترثوايت يحدق أمامه .

تمتم قائلاً : " ربما قطار بضائع . ولكن بالتأكيد لو كان كذلك ـــ "

قال السيد كوين : " لن يصبح هناك حاجة ، إذن ، لإخراجها من إنجلترا . أتفق معك فى ذلك " .

حدق فيه السيد ساترثوايت فى دهشة .

ثم قال ببطء : " الساعة ٦.٢٨ . ولكن إن كان ذلك هو ما حدث ، وإن كان قد تم إطلاق النار فى ذلك الحين فلماذا قال الجميع إنهم سمعوه فى وقت مبكر عن ذلك ؟ " .

قال السيد كوين : " ذلك واضح للغاية . لابد أن التوقيت كان خاطئًا بالساعات " .

قال السيد ساترثوايت فى شك : " جميعها ؟ إن تلك مصادفة غريبة ، ألا تعتقد ذلك ؟ " .

قال الآخر : " لم أفكر فيها على أنها مصادفة . لقد كنت أظن أنه يوم الجمعه " .

قال السيد ساترثوايت : " الجمعة ؟ " .

قال السيد كوين : " هل تذكر أنك قلت لى إن السير جورج يعيد ضبط ساعاته فى ظهيرة كل يوم جمعة " .

قال السيد ساترثوايت هامسًا ، وهو مذهول من الاكتشافات التى توصل إليها : " لقد قام بتقديم الساعة عشر دقائق . وبعد ذلك ذهب إلى حفل البريدج . أعتقد أنه فتح الخطاب الذى أرسلته زوجته إلى مارتن وايلد هذا الصباح ـ نعم بالتأكيد فتحه . وقد غادر حفل البريدج فى السادسة والنصف ووجد بندقية مارتن متكئة على الجدار ، فأخذها وقتل زوجته من الخلف . بعد ذلك خرج مرة أخرى وألقى بالبندقية بين الشجيرات حيث عثروا عليها لاحقًا ، ثم تظاهر بأنه وصل لتوه عند البوابة حينما هرع إليه أحدهم حاملاً الأخبار . ولكن الهاتف ـ ماذا عن الهاتف ؟ آه ، نعم ، فهمت . لقد قام بتعطيله حتى لا يتم استدعاء الشرطة بهذه الطريقة من خلاله ـ فحينها قد تلاحظ الشرطة وقت الاستدعاء . إن رواية وايلد قد أصبحت منطقية الآن . إن الوقت الحقيقى لمغادرته كان فى السادسة وخمس وعشرين دقيقة . وعند المشى ببطء فإنه سوف يصل إلى منزله فى السادسة وخمس

وأربعين دقيقة . نعم ، أرى ما حدث بوضوح الآن . ولويزا كانت هى مصدر الخطر الوحيد بحديثها غير المحدود عن تخيلاتها وخرافاتها . فشخص ما كان سيدرك ما حدث فعلاً - وبذلك نستطيع أن نقول *وداعًا* لحجة الدفع بالغيبة الممتازة " .

علق السيد كوين قائلاً : " رائع " .

استدار السيد ساترثوايت ناحيته ، بينما تغمره نشوة النصر .

" الشيء الوحيد الآن - ماذا تفعل بعد ذلك ؟ " .

قال السيد كوين : " أقترح التحدث إلى سيلفيا ديل " .

نظر إليه السيد ساترثوايت فى شك .

قال : " لقد قلت لك قبل ذلك إنها تبدو لى حمقاء بعض الشيء " .

" إن لديها أبًا وإخوة سوف يتخذون الإجراءات الضرورية " .

قال السيد ساترثوايت فى راحة : " هذا صحيح " .

بعد ذلك بفترة قصيرة ، كان يجلس مع الفتاة يقص عليها الحكاية . كانت تنصت باهتمام . لم تطرح عليه أية أسئلة ، ولكن حينما انتهى نهضت قائلة :

" لابد أن أجد سيارة أجرة الآن " .

" يا عزيزتى ، ماذا ستفعلين ؟ " .

" سوف أذهب إلى السير جورج بارنابى " .

" مستحيل . إنه قرار خاطئ . اسمحى لى أن — "

كان يرتعش إلى جوارها . ولكنه لم يظهر ذلك . كانت سيلفيا ديل عاقدة العزم على القيام بذلك . سمحت له باصطحابها داخل سيارة الأجرة ولكنها لم تأبه لاعتراضاته على الإطلاق . تركته داخل السيارة وصعدت إلى مكتب السير جورج بالمدينة .

وبعد نصف ساعة خرجت من مكتبه . كانت تبدو منهكة . وكان جمالها ذابلاً مثل الزهرة المحرومة من الماء . استقبلها السيد ساترثوايت بقلق .

قالت وهى تتكئ للخلف ، وعينيها نصف مغلقتين : " لقد فزت " .

قال فى فزع : " ماذا ؟ ماذا فعلت ؟ ماذا قلت له ؟ " .

تحركت للأمام قليلاً ، وقالت :

" أخبرته أن لويزا بولارد ذهبت بقصتها إلى الشرطة . أخبرته أن الشرطة قامت بتحرياتها واكتشفت أنه دخل منزله وخرج ثانية بعد السادسة والنصف ببضع دقائق . لقد أخبرته أن اللعبة انتهت . وقد انهار أمامى . وقد أخبرته أنه مازال أمامه وقت للهروب ، وأن الشرطة لن تصل قبل ساعة للقبض عليه . أخبرته بأنه إذا قام بتوقيع اعتراف بأنه قتل فيفيان فإننى لن أقول شيئًا ، ولكن إن لم يوقعه فسوف أصرخ وأقول الحقيقة كلها للمبنى

بأكمله . وقد أصيب بالذعر لدرجة أنه لم يدرك ماذا يفعل . وقد وقع الورقة دون أن يدرك ذلك " .

ألقت بالورقة بين يديه .

" خذها . خذها . أنت تعرف ماذا تفعل بها حتى يطلقون سراح مارتن " .

صاح السيد ساترثوايت فى دهشة : " هل قام بتوقيعها حقاً " .

قالت سيلفيا ديل : " إنه أحمق قليلاً " . أضافت بعد بعض التفكير : " وكذلك أنا . لذلك أنا أعرف السلوكيات التى ينتهجها الحمقى . إننا نصاب بالانزعاج ثم نرتكب الأمور الخاطئة ، ونندم بعد ذلك " .

ارتجفت ، فقام السيد ساترثوايت بالتربيت على يدها .

قال : " إنك بحاجة إلى أن تشربى شيئًا يعيد لك قواك . تعالىْ ، إننا على مقربة من مكان مفضل لى ـ مطعم أرليشينو . هل ذهبت إلى هناك قبل ذلك ؟ " .

هزت رأسها .

أوقف السيد ساترثوايت التاكسى ، وأخذ الفتاة إلى داخل المطعم الصغير . شق طريقه إلى الطاولة الموجودة فى المختلى وقلبه ينبض بقوة . ولكن الطاولة كانت خالية .

رأت سيلفيا ديل نظرة الإحباط على وجهه .

سألت : " ما الأمر ؟ " .

قال السيد ساترثوايت " لا شىء . كل ما فى الأمر أننى كنت أتوقع رؤية صديق لى هنا . لا يهم . فى يوم ما سوف ألقاه مرة أخرى ... "

الفصل ٥

روح مدير اللعبة

كان السيد ساترثوايت يستمتع بأشعة الشمس فوق مقعد خشبى بمونت كارلو .

عامًا بعد عام ـ فى الأحد الثانى من يناير ـ كان السيد ساترثوايت يغادر إنجلترا قاصدًا الريفييرا . لقد كان دقيقًا فى مواعيده أكثر من طيور السنونو . وفى شهر أبريل كان يعود إلى إنجلترا ، وكان يقضى مايو ويونيو فى لندن ، وقد عرف عنه أنه لا يفوته أبدا الأسكوت . ولقد ترك المدينة بعد زواج إتون وهارو ، وكان يقوم ببعض الزيارات المنزلية الريفية قبل الذهاب إلى ديفيل أو لى توكيت . وكانت حفلات الصيد تحتل معظم شهرى سبتمبر وأكتوبر ، وكان عادة ما يمضى شهرين فى المدينة لإنهاء العام بها . لقد كان يعرف الجميع ، ويمكن القول بأن الجميع كانوا يعرفونه .

لكن فى هذا الصباح كان عابسًا . كانت زرقة البحر خلابة . وكانت الحدائق ، كالعادة دومًا ، مصدر بهجة ، ولكن الأشخاص هم من أصابوه بالإحباط ـ فقد كان يعتقد أنهم مجموعة من أصحاب الذوق السيئ فى الملابس وزائفون . كان بعضهم ، بالطبع مقامرين ، أرواح محكوم عليها بالهلاك لا تستطيع الهرب . وهؤلاء كان السيد سا‌ترثوايت يتحملهم . لقد كانوا جزءًا من طبيعة المكان . ولكنه كان يفتقد صفوة الناس ممن يعرفهم ـ ينتمى إليهم .

قال السيد ساترثوايت فى حزن : " إنه سعر الصرف . إن جميع الناس الذين يأتون إلى هنا الآن لم يكن فى مقدورهم تحمل نفقات الوجود هنا قبل ذلك . علاوة على ذلك فقد تقدم بى العمر ... جميع الشباب والجيل الجديد يذهبون إلى الأماكن السويسرية " .

ولكن كان هناك أناس آخرون يفتقدهم كذلك . بارونات وكونتيسات الدبلوماسية الخارجية الأنيقين . والدوقات والأمراء الملكيين . وكان الأمير الوحيد الذى رآه حتى الآن يعمل عامل مصعد فى أحد الفنادق غير المعروفة . وكان يفتقد أيضًا النساء الجميلات وغير المبتذلات . كان لا يزال يوجد بعض منهن ، ولكن ليس بنفس العدد المعتاد .

كان السيد ساترثوايت تلميذًا جادًا للدراما التى تسمى الحياة ، ولكنه كان يحب التنوع فى مادته أيضًا . لقد

شعر بالإحباط يتسلل إليه . كانت القيم تتغير ، وكان هو قد شاخ لدرجة يصعب معها أن يتغير .

كان ذلك فى اللحظة فيها رأى الكونتيسة كزارنوفا تتقدم نحوه .

لقد رأى السيد ساترثوايت الكونتيسة فى مونت كارلو فى العديد من المواسم . كانت المرة الأولى التى رآها فيها كانت بصحبة أحد الدوقات . وفى المرة التالية كانت بصحبة بارون استرالى . وفى السنوات التالية كان أصدقاؤها ينحدرون من أصول عبرية ، كانوا رجالاً شاحبين ذوى أنوف معقوفة ، ويرتدون مجوهرات براقة . وخلال العامين الماضيين كان يراها مع شباب صغار للغاية ـ مجرد فتيان .

كانت تسير بصحبة شاب صغير الآن . كان السيد ساترثوايت يعرفه ، وكان أيضًا يشعر بالحزن . فرانكلين رودج هو شاب أمريكى من إحدى الولايات الغربية الوسطى . وهو مزيج مثير من العنف المحلى والمثالية . كان فى مونت كارلو برفقة مجموعة من الشباب الأمريكيين الآخرين من كلا الجنسين ، جميعهم من نفس الطراز . لقد كانت تلك هى تجربتهم الأولى مع العالم القديم ، وكانوا يتحرون الصدق فى انتقاداتهم وتقديراتهم .

وبشكل عام ، فإنهم كانوا يكرهون الإنجليز فى الفندق ، وكان الإنجليز يمقتونهم . أما السيد ساترثوايت ـ

الذى كان يفخر بكونه مواطنًا عالميًا ـ فكان يحبهم . فكانت صراحتهم ونشاطهم يروقان له بالرغم من أن خروجهم عن العرف فى السلوك الاجتماعى كان يجعله يرتعد .

وقد رأى أن الكونتيسة كزارنوفا كانت صديقة غير ملائمة للشاب فرانكلين رودج .

خلع قبعته بأدب حينما مرا بجانبه ، وقد انحنت له الكونتيسة وابتسمت .

كانت سيدة طويلة للغاية . كان شعرها أسود وكذلك عيناها ، وكانت رموشها وحاجباها شديدى السواد بطريقة غريبة .

وقد أعجب السيد ساترثوايت ـ والذى كان يعلم عن أسرار النساء أكثر مما يعلم أى رجل آخر ـ بشدة بالطريقة التى كانت تتزين بها . لقد بدت بشرتها خالية من أية عيوب ، وكانت ذا لون أبيض كريمى متسق .

وكانت الظلال السمراء الداكنة الخفيفة أسفل عينيها هى الأكثر تأثيرًا . ولم يكن فمها قرمزيًا ولكن كان مائلا للون النبيذ . كانت ترتدى مزيجًا من اللونين الأبيض والأسود ، وتحمل مظلة تلقى بظل أحمر وردى على بشرتها ، والذى زاد من جمالها .

كان فرانكلين رودج يبدو سعيدًا ومهمًا .

قال السيد ساترثوايت لنفسه : " يا له من شاب أحمق . ولكنى أعتقد أننى لا شأن لى بذلك وهو لن ينصت

لى على أية حال من الأحوال . حسنًا ، حسنًا ، لقد كنت عديم الخبرة ذات مرة حينما كنت فى سنه " .

ولكنه كان لا يزال يشعر بالقلق ، لأنه كانت هناك فتاة أمريكية شابة فى المجموعة ، والتى كان واثقًا من أنه لن يعجبها صداقة فرانكلين رودج والكونتيسة .

كان على وشك أن يعود أدراجه بالاتجاه المقابل حينما لمح تلك الفتاة تأتى ناحيته . كانت ترتدى حلة أنيقة مكونة من بلوزة بيضاء من الموسلين وحذاء سير أنيق ، وتحمل كتاب إرشادات . إن هناك بعض الأمريكيين الذين يأتون إلى باريس بملابس تجعلهم يبدون مثل ملكة سبأ ، ولكن إليزابيث مارتن لم تكن واحدة منهم . فكانت تجوب أوروبا بروح صارمة وحادة . كانت تعتنق أفكارًا ثقافية وفنية راقية ، وكانت تتوق إلى فهم أكبر قدر من الثقافة مقابل مواردها المالية المحدودة .

ولم يعرف السيد ساترثوايت هل يعتبرها مثقفة أم فنانة . ولكن بالنسبة له بدت فقط صغيرة .

قالت إليزابيث : " صباح الخير يا سيد ساترثوايت . هل رأيت فرانكلين ـ السيد رودج ـ فى أى مكان هنا ؟ " .

" لقد رأيته منذ بضع دقائق مضت " .

قالت الفتاة فى حدة : " مع صديقته الكونتيسة على ما أعتقد " .

اعترف السيد ساترثوايت : " نعم مع الكونتيسة " .

قالت الفتاة بصوت عال وصاخب : " أنا وهذه الكونتيسة لسنا على وفاق إطلاقًا . إن فرانكلين مفتون بها ، ولا أعرف *السبب* فى ذلك " .

قال السيد ساترثوايت وهو يشعر بالإثارة : " إنها ذات طبيعة ساحرة للغاية " .

" هل تعرفها ؟ " .

" قليلاً " .

قالت الآنسة مارتن : " أنا قلقة للغاية على فرانكلين . إنه يتمتع بعقلية متفتحة تجعل من الصعب على المرء أن يصدق أنه قد يعجب بداهية مثل هذه . وهو لا ينصت لأحد ، فيجن جنونه إن حاول أحد أن يسدى له النصح بشأنها . أصدقنى القول ـ هل هى كونتيسة حقيقية ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " لا أعرف ، ربما " .

قالت إليزابيث وأمارات الضيق تبدو عليها : " هذا هو السلوك الإنجليزى المعهود . كل ما أستطيع قوله هو أنه فى سارجون سبرينجز ـ تلك هى مدينتنا يا سيد ساترثوايت ـ ستبدو تلك الكونتيسة امرأة غريبة وشاذة " .

فكر السيد ساترثوايت أن ذلك ممكن . وقد منع نفسه من أن يوضح لها أنهم ليسوا فى سارجون سبرينجز بل فى إمارة موناكو ، حيث تنسجم الكونتيسة مع بيئتها بشكل أفضل كثيرًا من انسجام الآنسة مارتن مع هذه البيئة .

لم يُدل بأية إجابة ، واتجهت إليزابيث نحو الكازينو . جلس السيد ساترثوايت على مقعد فى الشمس وقد انضم إليه فى ذلك الوقت فرانكلين رودج .

كان رودج مليئًا بالحماسة .

قال بحماسة ساذجة : " أنا مستمتع للغاية . نعم يا سيدى ! إن هذا هو ما أطلق عليه رؤية الحياة ـ إنها حياة مختلفة تمامًا عن تلك التى نعرفها فى الولايات المتحدة " .

نظر إليه الرجل الأكبر بعمق .

وقال بضجر : " إن الحياة هى نفسها فى كل مكان . إنها فقط ترتدى ملابس مختلفة ـ ذلك هو كل شىء " .

حدق فيه فرانكلين رودج ، قائلاً :

" أنا لا أفهمك " .

قال السيد ساترثوايت : " لا ، إن ذلك لأنه مازال أمامك رحلة طويلة لتقطعها . لا يجب على أى رجل عجوز أن يسمح لنفسه بوعظ الآخرين " .

ضحك رودج كاشفًا عن أسنانه الجميلة التى يتميز بها جميع أهل بلده . وقال : " آه ! لا بأس . أنا لا أقصد أننى لست محبطًا من الكازينو . لقد ظننت أن المقامرة ستكون مختلفة ـ شيئًا ينبض بالحيوية . ولكنها بدت ـ بدلاً من ذلك ـ مملة ووضيعة " .

قال السيد ساترثوايت : " إن المقامرة بمثابة الحياة والموت للمقامر ، ولكنها فى حد ذاتها عديمة القيمة . إن القراءة عنها أكثر إثارة من رؤيتها " .

أومأ الشاب موافقًا .

سأل بصراحة وإخلاص بالغين جعلا من المستحيل على المرء اعتبار سؤاله هذا إهانة ، قائلاً : " إنك بالمناسبة تشبه الحيوان الاجتماعى ، أليس كذلك ؟ أقصد أنك تعرف كل الدوقات والإيرلات والكونتيسات وما إلى ذلك " .

قال السيد ساترثوايت : " نعم ، عدد كبير منهم . أعرف كذلك بورتغاليين ويونانايين وأرجنتينيين " .

قال السيد رودج : " حقًا ؟ " .

قال : " كنت أقول لتوى إننى أتحرك كثيرًا فى المجتمع الإنجليزى " .

أخذ فرانكلين رودج يتأمل لدقيقة أو اثنتين .

قال : " إنك تعرف الكونتيسة كزارنوفا ، أليس كذلك ؟ " .

قال السيد ساترثوايت مبديًا نفس الإجابة التى أعطاها لإليزابيث : " قليلاً " .

" إنها امرأة يحب المرء أن يتعرف عليها حقًا . قد يعتقد المرء أن الأرستقراطية فى أوروبا قد أصبحت مستنفدة وعقيمة . قد ينسحب ذلك بالفعل على الرجال ، ولكن النساء أمرهن مختلف . أليس ذلك أمرًا رائعًا حقًا أن تلتقى بامرأة فاتنة مثل الكونتيسة ؟ ذكية وجميلة وتقف وراءها أجيال من الحضارة ، إنها أرستقراطية من رأسها وحتى أخمص قدميها ! " .

سأل السيد ساترثوايت : " حقًا ؟ " .

" حسنًا ، بالطبع . هل تعرف من هى عائلتها ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " لا ، أخشى أن معلوماتى عنها شحيحة للغاية " .

قال فرانكلين : " إنها من عائلة رازنسكى . إحدى أقدم العائلات فى المجر . لقد عاشت حياة رائعة حقًا . هل تعرف عقد اللؤلؤ المذهل الذى ترتديه ؟ " .

أومأ السيد ساترثوايت .

" لقد أعطاه إياها ملك البوسنة . لقد هرّبت إليه بعض الأوراق السرية من المملكة " .

قال السيد ساترثوايت : " نعم ، لقد سمعت أن ملك البوسنة قد أهداها بعض اللؤلؤ " .

لقد ظل الناس فى الواقع يتناقلون هذا الخبر ، وقد قيل إن السيدة كانت صديقة مقربة لجلالته فيما مضى .

قال الشاب : " الآن سأخبرك بشىء آخر " .

أنصت السيد ساترثوايت ، وكلما أنصت زاد إعجابه بالخيال الخصب للكونتيسة كزارنوفا . إنه لم يعتقد أنها داهية (كما وصفتها إليزابيث مارتن) . إن هذا الشاب كان صادقًا تمامًا ومثاليًا . لا ، إن الكونتيسة خاضت الكثير من المؤامرات الدبلوماسية الصارمة والقاسية . لقد كان لها أعداء وأناس يحاولون الحط من قدرها . لقد كانت أسطورة ! فقد ظن الشاب بأن الكونتيسة هى

شخصية كبيرة القدر وأرستقراطية وذات معرفة وثيقة بالمستشارين والأمراء . شخصية بإمكانها إلهام الآخرين .

أنهى الشاب كلامه الدافئ قائلاً : " وهى لا تزال تناضل . إنه أمر غير مألوف ، ولكنها لم تجد امرأة واحدة تستطيع أن تتخذها صديقة لها . فقد ظل النساء يقفن ضدها طوال حياتها " .

قال السيد ساترثوايت : " ربما " .

سأل رودج : " ألا ترى ذلك أمرًا مشينًا حقًا ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " لا ، لا أعتقد ذلك . إن النساء لهن معاييرهن الخاصة كما تعلم . وليس من الحكمة التدخل فى شئونهن . فيجب تركهن لإدارة أمورهن بأنفسهن " .

قال رودج فى حماسة : " أنا لا أتفق معك . إنه أحد أكثر الأمور بشاعة فى عالمنا اليوم ، أن تقسو امرأة على امرأة أخرى . هل تعرف إليزابيث مارتن ؟ إنها تتفق معى فى هذه النظرية تمامًا . إنها مازالت فتاة ، إلا أن أفكارها ناضجة . ولكن حينما تتعرض لاختبار عملى - تصبح فى مثل أى واحدة منهن . إنها تبغض الكونتيسة دون أن تعرف أى شىء عنها ، وترفض الإنصات حينما أحاول أن أحدثها عنها . إنه أمر *خاطئ* تمامًا يا سيد ساترثوايت . أنا أومن بالديمقراطية - وماذا تعنى هذه الكلمة سوى انتشار شعور التراحم بين الرجال وبين النساء ؟ " .

سكت السيد ساترثوايت قليلاً محاولاً أن يفكر فى أية ظروف كان يمكن أن تنشأ خلالها مشاعر التراحم بين الكونتيسة وإليزابيث مارتن ولكنه فشل فى ذلك .

واصل رودج حديثه قائلاً : " أما الكونتيسة - على الجانب - الآخر فهى معجبة بإليزابيث للغاية ، وتعتقد أنها ساحرة فى كل شىء . الآن ، ما معنى هذا ؟ " .

قال السيد ساترثوايت بجفاء : " يعنى أن الكونتيسة قد عاشت حياة أطول من تلك التى عاشتها الآنسة مارتن " .

انحرف فرانكلين رودج فجأة عن الموضوع .

قال : " هل تعرف كم عمرها ؟ لقد أخبرتنى . إنها تتمتع بروح رياضية رائعة حقا . لقد خمنت إنها فى التاسعة والعشرين من عمرها ، ولكنها قالت لى أنها فى الخامسة والثلاثين . إنها لا تبدو فى الخامسة والثلاثين أليس كذلك ؟ " . رفع السيد ساترثوايت حاجبيه فقط ، حيث إن تقديره الشخصى لسنها كان ما بين الخامسة والأربعين والتاسعة والأربعين .

قال : " لابد أن أحذرك من تصديق كل ما تسمعه فى مونت كارلو " .

وقد كان يمتلك الخبرة التى تؤهله لمعرفة أنه لا جدوى من الجدال مع الشاب . ففرانكلين رودج كان من النوع الذى لا يصدق شيئًا إلا إذا أتيت له ببرهان دامغ عليه .

قال الفتى وهو ينهض : " ها هى الكونتيسة " .

اقتربت منهما بوقار شديد . جلس الثلاثة معًا . كان السيد ساترثوايت يعتقد أنها ساحرة للغاية ولكن بطريقة متحفظة . وقد تعاملت معه باحترام بالغ ، وطلبت رأيه وعاملته وكأنه يشغل منصبًا مهمًا في الريفييرا .

كانت متحدثة بارعة . وقد مرت بضع دقائق قبل أن يجد فرانكلين رودج نفسه مطرودًا بلباقة من هذا اللقاء . وأصبحت الكونتيسة والسيد ساترثوايت وحدهما .

أغلقت مظلتها وبدأت في رسم أشكال بها في الرمال .

" أنت معجب بالفتى الأمريكي ، أليس كذلك يا سيد ساترثوايت ؟ " .

كان صوتها منخفضًا ولطيفًا .

قال السيد ساترثوايت : " إنه شاب لطيف " .

قالت الكونتس بنبرة تحليلية : " أنا أجده عطوفًا . لقد أخبرته بالكثير عن حياتي " .

قال السيد ساترثوايت : " حقًا " .

واصلت حديثها قائلة : " تفاصيل مثل التي أخبرتها لأشخاص آخرين قليلين . لقد خضت حياة غير عادية يا سيد ساترثوايت . فالقليلون هم من سيصدقون الأشياء المذهلة التي حدثت لي " .

كان السيد ساترثوايت ذكيًا بما فيه الكفاية لفهم ما تعنيه . فعلى أية حال ، قد تكون الحكايات التي قصتها على فرانكلين رودج حقيقية . نعم إنها تبدو زائفة

وخيالية ، ولكنها ممكنة ... لا يستطيع أحد أن يقول وهو متأكد : " هذا لم يحدث — " .

لم يجب السيد ساترثوايت ، فاستمرت الكونتيسة في النظر بطريقة حالمة إلى الشاطئ .

وفجأة تولد لدى السيد ساترثوايت انطباع غريب وجديد إزاءها . إنه لم يعد يراها كامرأة خبيثة ؛ بل كمخلوقة بائسة في محنة ، تصارع بكل ما أوتيت من قوة . وقد استرق بعض النظرات الجانبية إليها . كانت تضع المظلة بالأسفل ، وكان بإمكانه أن يرى خطوطًا تنم عن الشقاء حول عينيها . وفي أحد صدغيها كان هناك نبض .

ازداد هذا الشعور بداخله قوة . لقد كانت مخلوقة بائسة . إنها لن ترحمه أو ترحم أي شخص آخر يحاول التفريق بينها وبين فرانكلين رودج . ومع ذلك فقد شعر بأنها لا تملك سيطرة كاملة على الموقف . من الواضح أنها كانت تملك ثروة طائلة . كانت ترتدي دومًا ملابس جميلة وكانت مجوهراتها رائعة . لماذا كانت تريده إلى هذه الدرجة ؟ هل تحبه ؟ لقد كان يعلم جيدًا أن النساء في سنها يقعون في حب شبان صغار . قد يكون ذلك هو كل ما في الأمر . لكنه كان واثقًا أنه يوجد شيء غير عادي في هذا الأمر .

لقد أدرك أن حوارها معه كان بمثابة طلب نزال . لقد كانت تعتبره عدوها الرئيسي . كان واثقًا أنها تتمنى أن

تنجح فى حثه على التحدث عنها بشكل سيئ لفرانكلين رودج . ابتسم السيد ساترثوايت بينه وبين نفسه . فقد كان عجوزًا للغاية لدرجة لا تجعله يقع فى هذا الشرك . لقد كان يعلم متى يكون من الحكمة أن يمسك المرء لسانه .

أخذ يراقبها فى هذه الليلة فى سيركل بريفيه بينما كانت تراهن بأموالها فى الروليت .

وقد راهنت مرارًا وتكرارًا ، وكانت تخسر فى كل مرة . وكانت تتقبل خسارتها بشكل جيد مثل أتباع المذهب الرواقى ، ممن يؤمنون أن المرء يجب أن يتحرر من الانفعال ويكون رابط الجأش . وقد راهنت فى الوسط مرة أو مرتين . ولكن كانت معظم رهاناتها على اللون الأحمر . وقد ربحت قليلاً على العشرة الوسطى ، ثم خسرت ما ربحته ثانية ، وفى النهاية راهنت ست مرات بأموال استدانتها ولكنها خسرت فى كل مرة . وبعد ذلك هزت كتفيها فى وقار وذهبت مبتعدة .

كانت تبدو رائعة الجمال فى فستان ذى نسيج ذهبى مبطن بقماش أخضر . وكان عقد اللؤلؤ البوسنى الشهير يلتف حول عنقها ، ويتدلى قرط لؤلؤى طويل من أذنها .

سمع السيد ساترثوايت رجلين بجواره يثنيان عليها .

قال أحدهما : " الكونتيسة كزارنوفا ، إنها أنيقة للغاية ، أليس كذلك ؟ إن المجوهرات الملكية التى أخذتها من البوسنة تبدو رائعة عليها " .

حدق فيها الآخر فى فضول .

سأل : " إذن تلك هى اللآلئ البوسنية ، أليس كذلك . فى الواقع هذا غريب " .

ضحك بينه وبين نفسه فى خفوت .

لم يستطع السيد ساترثوايت سماع المزيد ، حيث إنه فى هذا اللحظة استدار وشعر بسعادة مفرطة لأنه رأى صديقًا قديمًا .

" عزيزى السيد كوين " . صافحه بحرارة . " إن هذا هو آخر مكان أتوقع رؤيتك فيه " .

ابتسم السيد كوين وأضاء وجهه الجذاب داكن اللون .

قال : " لا يجب أن تندهش . إنه وقت الكرنفال . وأنا آتى إلى هنا عادة فى هذا الوقت " .

" حقًا ؟ حسنًا ، أنا سعيدة للغاية لرؤيتك . هل تفضل البقاء هنا بالداخل ؟ أنا أجد الجو حارًا هنا " .

وافق الآخر قائلاً : " إن الجو ألطف بالخارج . يمكننا التنزه فى الحدائق " .

وكان الجو بالخارج باردًا ولكن ليس شديد البرودة . بدأ كلا الرجلين فى التنفس بعمق .

قال السيد ساترثوايت : " هذا أفضل " .

وافقه السيد كوين قائلاً : " أفضل كثيرًا . ونستطيع التحدث بحرية . أنا واثق من أن لديك الكثير مما تود إخبارى به " .

" نعم ، هذا صحيح " .

بدأ السيد سارترثوايت فى الكشف عن حيرته . كالعادة أخذ يتباهى بمقدرته على رسم الجو العام . الكونتيسة ، الشاب فرانكلين ، إليزابيث العنيدة ـ صورهم جميعًا بلمسة فنية .

قال السيد كوين ، وهو يبتسم حينما انتهى الآخر من سرد حكاياته : " لقد تغيرت منذ أول مرة رأيتك فيها " .

" كيف ؟ " .

" لقد كنت راضيًا حينها بتقلد دور المتفرج على الدراما التى تعرضها الحياة عليك . الآن تود الاشتراك ـ التمثيل " .

اعترف السيد سارترثوايت قائلاً : " هذا صحيح . ولكن فى هذه الحالة لا أعرف ماذا أفعل . إن الأمر كله محير . ربما ـــ " . تردد قليلاً ، ثم قال : " ربما ستساعدنى ؟ " .

قال السيد كوين : " بكل سرور . سوف نرى ما يمكننا فعله " .

ساور السيد سارترثوايت شعور غريب بالراحة والسكينة .

وفى اليوم التالى قام بتقديم فرانكلين رودج وإليزابيث مارتن لصديقه السيد هارلى كوين . وقد شعر بالسعادة حينما رأى أنهما قد انسجما معًا . ولم يأت أحد على ذكر الكونتيسة ، ولكن فى وقت الغداء سمع أخبارًا لفتت انتباهه .

قال بحماسة إلى السيد كوين : " إن ميرابيل ستصل إلى مونت كارلو الليلة " .

" الممثلة المسرحية الباريسية المشهورة ؟ " .

" نعم . إنها المرأة التى كان ملك ألبوسنة مفتونًا بها مؤخرًا . لقد أمطرها بالمجوهرات على حد علمى . إنهم يقولون إنها أكثر النساء الباريسيات جشعًا وتهورًا " .

" سيكون من المثير حقًا رؤية لقائها بالكونتيسة كزارنوفا الليلة " .

" هذا ما كنت أفكر فيه " .

كانت ميرابيل طويلة ونحيفة ، وذات شعر رائع مصبوغ بلون فاتح . كانت بشرتها بنفسجية شاحبة ، وكانت شفتاها برتقالية اللون . كانت شديدة الأناقة ، كانت ملابسها تجعلها تبدو مثل طائر جميل للغاية . وكانت ترتدى سلاسل من المجوهرات تتدلى فوق ظهرها العارى . وكان سوارًا ثقيلاً مرصعًا بماسات رائعة ملفوفًا حول كاحلها .

لقد أبهرت الجميع حينما دخلت الكازينو .

همس السيد كوين إلى السيد سارترثوايت : " إن صديقتك الكونتيسة ستلاقى صعوبة فى التغلب على هذا " .

أومأ الآخر . كان يريد أن يرى كيف ستنسجم الكونتيسة مع هذا الأمر .

جاءت متأخرة وساد همس خفيف بالمكان ، بينما كانت تسير فى لامبالاة إلى إحدى طاولات الروليت المركزية .

كانت ترتدى فستانًا أبيض طويلاً يشبه أثواب المثلات ، وكانت رقبتها البيضاء وذراعاها لا يزينهم شيئًا . فهى لم ترتد أية مجوهرات .

قال ساترثوايت باستحسان فورى : " يا لها من بارعة . إنها تزدرى المنافسة وتقلب الطاولة على منافسيها وأعدائها " .

سار السيد ساترثوايت ووقف عند الطاولة . ومن وقت لآخر كان يراهن مرة . فى بعض الأحيان كان يفوز ولكن فى معظم الأحيان كان يخسر .

كانت هناك جولة مدهشة على العشرة الأخيرة .

تكاثرت الرهانات على أسفل القماش .

راهن السيد ساترثوايت وهو يبتسم رهانه الأخير فى هذه الليلة ، ووضع كل ما لديه من فيش على الرقم خمسة .

وقامت الكونتيسة فى دورها بالاتكاء للأمام ووضع كل ما لديها من فيش على الرقم ستة .

قال مدير اللعبة بصوت أجش : " ستلعبان بكل ما لديكما ، فإما أن تربحا كل شىء ، وإما أن تخسرا كل شىء " .

أخذت الكرة فى الدوران وهى تصدر طنينًا . بدأ السيد ساترثوايت يفكر : " *هذا يعنى شيئًا مختلفًا لكل منا . صراع من الأمل واليأس ، الملل ، التفاهة ، التسلية ، الحياة والموت* " .

توقفت الكرة .

انحنى مدير اللعبة للأمام كى يرى .

" *الفائز هو رقم خمسة ، الأحمر* " .

لقد فاز السيد ساترثوايت !

جمع مدير اللعبة الرهانات الأخرى ودفعها ناحية السيد ساترثوايت . مد يده ليأخذها . قامت الكونتيسة بالمثل . أخذ مدير اللعبة ينظر إلى أحدهما ثم ينظر إلى الآخر .

قال بشكل فظ : " السيدة هى التى فازت " .

جمعت الكونتيسة المال . عاد السيد ساترثوايت للوراء . فقد ظل رجلاً نبيلاً . نظرت إليه الكونتيسة فى وجهه مباشرة وبادلها هو النظرة . أوضح بعض الحاضرين لمدير اللعبة بأنه قد أخطأ ، ولكن الرجل هز رأسه . لقد اتخذ قراره . تلك كانت النهاية . رفع صوته الأجش قائلاً :

" *هيا العبوا أيها السيدات والسادة* " .

انضم السيد ساترثوايت للسيد كوين . كان مختبئًا وراء سلوكه المثالى والشعور بالسخط . أنصت إليه السيد كوين .

قال : " يا له من شيء مؤسف . ولكن هذه الأمور تحدث " .

" سوف نقابل صديقك فرانكلين رودج فيما بعد . فأنا سوف أقيم حفلاً فاخرًا " .

تقابل ثلاثتهم فى منتصف الليل وشرح السيد كوين خطته .

قال : " إنها ما يسمى حفل السياجات والطرق . إننا نختار مكان لقائنا ، ثم يذهب كل واحد منا فى طريقه ويدعو أول شخص يقابله " .

أعجب فرانكلين رودج بالفكرة .

" وماذا يحدث إذا لم يقبلوا الدعوة ؟ " .

" لابد أن تستخدم كل قدراتك الإقناعية " .

" جيد . وأين مكان اللقاء ؟ " .

" فى مقهى بوهيمى ـ حيث يستطيع المرء العثور على ضيوف غرباء . إنه يسمى لى كافو " .

أخبرهم عن مكانه وتفرق الثلاثة . كان السيد ساترثوايت محظوظًا لأن أول من قابله كانت إليزابيث ، فقام بدعوتها . وصلا إلى لى كافو وهبطا إلى شيء يشبه القبو ، حيث وجدا طاولة معدة لتناول العشاء ، ومضاءة بشمع قديم الطراز موضوع داخل شمعدان .

قال السيد ساترثوايت : " لقد جئنا قبل الآخرين . آه ! ها هو ذا فرانكلين ـــ "

سكت فجأة . فقد جاءت الكونتيسة مع فرانكلين . لقد كانت لحظة حرجة . أظهرت إليزابيث من الكياسة أقل مما كان عليها إظهاره . ظلت الكونتيسة ـ باعتبارها امرأة مجتمع ـ محتفظة بلباقتها .

وأخيرًا جاء السيد كوين . جاء بصحبته رجل ضئيل الحجم وداكن البشرة وأنيق ، بدا وجهه مألوفًا للسيد ساترثوايت . وبعد مضى دقيقة تعرف عليه . لقد كان مدير اللعبة الذى ارتكب فى وقت مبكر من هذه الليلة تلك الغلطة المؤسفة .

قال السيد كوين : " دعنى أقدمك لباقى الرفاق يا سيد بيير فوتشر " .

بدا الرجل الضئيل مرتبكًا . قام السيد كوين بتقديم الجميع لبعضهم البعض بسلاسة وخفة . ثم جلب العشاء ـ عشاء فاخرًا . جاءت المشروبات ، وكانت رائعة حقًا . كانت الكونتيسة صامتة ، وكذلك إليزابيث . أصبح فرانكلين رودج ثرثارًا . حكى الكثير من الحكايات ـ والتى لم تكن حكايات مسلية ، بل كانت من النوع الجاد . قام السيد كوين ، بهدوء ، بتمرير المشروب .

قال فرانكلين رودج : " سوف أحكى لكم قصة ـ وهى قصة حقيقية ـ عن رجل حقق إنجازًا كبيرًا " .

ولأنه شخص جاء من بلد تحرم بيع المسكرات فقد أظهر تقديرًا كبيرًا للمشروب الكحولى الذى قدم إليه .

روى حكايته ـ ربما بتطويل غير ضرورى . وكانت ـ مثلها مثل العديد من القصص الحقيقية ـ تفتقر إلى الخيال .

وبينما كان يتفوه بكلمته الأخيرة ، بدا بيير فوتشر ـ والذى كان يجلس قبالته ـ وكأنه يستيقظ . وقد شرب هو أيضًا الكثير من الكحول . مال للأمام على الطاولة .

قال بتثاقل : " سوف أقص عليكم أنا أيضًا رواية . ولكننى سأحكى لكم حكاية رجل لم يحقق إنجازًا . إنها قصة رجل هبط إلى أسفل التل ، لا إلى أعلاه . ومثلها مثل قصتك ، فهى حقيقية " .

قال السيد ساترثوايت بكياسة : " من فضلك اسردها علينا يا مسيو بيير" .

رجع بيير للوراء فى مقعده ونظر نحو السقف ، وقال :

" بدأت الحكاية فى باريس . كان هناك رجل يعمل فى مجال المجوهرات . كان شابًا سعيدًا ومجتهدًا فى عمله . وقد قالوا إن بانتظاره مستقبلا مبهرًا . وقد تم الترتيب لزواجه زيجة جيدة ، ولم تكن العروس قبيحة ، وكان مهرها مرضيًا . وبعد ذلك ، ماذا تظنون أنه قد حدث ؟ فى صباح أحد الأيام رأى فتاة . فتاة هزيلة وبائسة أيها السادة . جميلة ؟ نعم ، ربما ، إن لم تكن بمثل هذه النحافة . ولكن على أية حال ، بالنسبة لهذا الشاب . فقد كانت تمتلك سحرًا لم يستطع مقاومته .

كانت تبذل قصارى جهدها لتجد عملا ، كانت عفيفة ـ أو على الأقل ذلك هو ما أخبرته به . لا أعلم إن كان ذلك حقيقيًا " .

علا صوت الكونتيسة فجأة وسط المكان شبه المظلم قائلة :

" لماذا لا يكون ذلك حقيقيًا ؟ إن هناك كثيرات مثلها " .

" حسنًا ، مثلما قلت ، لقد صدقها الشاب . وقد تزوجها ـ لقد قام بشىء أحمق حقًا ! ولم يكن فى وسع عائلته إثناؤه عن ذلك . لقد أساء إلى مشاعرهم وأهانهم . لقد تزوج ـ سوف أطلق عليها جان ـ واعتبر ذلك شيئًا جيدًا . لقد شعر أنها يجب أن تكون ممتنة لما فعله من أجلها . لقد ضحى بالكثير فى سبيلها " .

قالت الكونتيسة بسخرية : " بداية رائعة للفتاة المسكينة " .

" لقد أحبها ، نعم ، ولكنها من البداية أثارت جنونه . لقد كانت متقلبة المزاج ، فتكون باردة يومًا وعاطفية يومًا آخر . وفى النهاية أدرك الحقيقة . إنها لم تكن تحبه . لقد تزوجته من أجل المال . وقد جرحته هذه الحقيقة ، جرحته بشده ، ولكنه بذل كل جهده حتى لا يشعر الآخرون بما يحدث . وكان لا يزال يشعر أن عليها احترام وتلبية رغباته . تشاجرا معًا . بدأت تلومه ـ يا إلهى ، كانت تلومه على كل شىء .

يمكنكم أن تتوقعوا ماذا حدث بعد ذلك ، أليس كذلك ؟ لقد كان شيئًا محتم الحدوث . لقد تركته . طوال عامين ظل وحيدًا يعمل فى متجره الصغير دون أن يعرف عنها شيئًا . لقد كان له صديق واحد ـ الكحول . ولم ينجح عمله كثيرًا .

وفى أحد الأيام دخل متجره ليجدها جالسة هناك . كانت ترتدى ملابس جميلة . وكانت هناك خواتم بأصابعها . وقف يتأملها . لقد كان قلبه ينبض بشدة . لم يدر ماذا يفعل . لقد أراد أن يضربها ، أن يأخذها بين ذراعيه ، أن يدفعها على الأرض ويسحقها بقدميه ، أن يلقى بنفسه بين قدميها . ولكن لم يفعل أى شىء من ذلك كله . أخذ أدواته وبدأ يعمل . سأل بطريقة رسمية : " *كيف أستطيع خدمتك يا سيدتى ؟* " .

انزعجت من تلك الطريقة التى قابلها بها . إنها لم تنتظر هذا . قالت : " *بيير ، لقد عدت* " . وضع كماشته ونظر إليها قائلاً : " *أتريدين منى أن أسامحك ؟ هل تريدين منى قبول عودتك ؟ هل ندمت فعلاً على ما فعلتِ ؟* " . *قالت : " هل مازلت تريدنى ؟* " . يا إلهى ! لقد قالتها برقة شديدة .

كان يعلم أنها تريد إيقاعه فى شرك . كان يتوق إلى أن يأخذها بين ذراعيه ، ولكنه لم يفعل ذلك . لقد تظاهر بالبرود وعدم الاهتمام بأمرها .

قال : " *أنا رجل يعرف التقاليد جيدًا ويحاول التمسك بها* " . ثم بدأ يفكر : " *نعم ! سوف أجعلها تتذلل لى ، وتجثم على ركبتيها أمامى* " .

ولكن جان ـ هكذا سأدعوها ـ مالت برأسها للوراء وضحكت . كانت ضحكة خبيثة وشريرة . قالت : " *لقد خدعتك يا عزيزى بيير . انظر إلى هذه الملابس الغالية ، إلى تلك الخواتم والأساور . لقد جئت لأريك ما أصبحت عليه . لقد ظننت أننى سأستطيع جعلك تأخذنى بين ذراعيك ، وعندما تفعل كذلك ، حينها كنت سأبصق على وجهك وأخبرك كم أكرهك !* " .

وبعد ذلك خرجت من المتجر . هل يمكنكم تصديق ذلك ، هل يمكنكم أن تصدقوا أنه توجد امرأة بمثل هذا الشر ـ تأتى فقط لكى تعذبنى ؟ " .

قالت الكونتيسة : " لا ، أنا لا أصدق هذا ، وأى رجل طبيعى لم يكن ليصدق ذلك أيضًا . ولكن كل الرجال حمقى " .

لم يعبأ بها بيير فوتشر وواصل كلامه قائلاً :

" وبذلك أخذت أحوال هذا الشاب تنحدر من سيئ إلى أسوأ . شرب المزيد من الخمر . تم إغلاق المتجر . وأصبح هو مجرد حثالة ، ينتمى إلى الدرك الأسفل من المجتمع . بعد ذلك نشبت الحرب . لقد عادت عليه هذه الحرب بالنفع . لقد انتشلت هذا الرجل من المستنقع الذى كان يعيش فيه وعلمته أنه لا ينبغى له أن يعيش بقية حياته

كوحش قاس ـ لقد دربته وأفاقته من غفوته . لقد تحمل البرد والألم والخوف من الموت ـ ولكنه لم يمت . وحينما انتهت الحرب أصبح رجلاً حقيقيًا مرة أخرى .

كان فى ذلك الوقت قد سافر إلى الجنوب أيها السادة . كان رئتاه قد تأثرتا بالغاز وقالوا له إنه يجب أن يجد له عملاً فى الجنوب . لن أزعجكم بسرد كل ما فعله . يكفينا القول بأن الحال انتهى به كمدير لعبة ، وهناك ـ هناك ـ فى الكازينو فى إحدى الليالى ، رآها مرة أخرى ، المرأة التى دمرت حياته . لم تتعرف عليه ولكنه عرفها . بدت غنية ولا ينقصها شيء ـ ولكن ـ يا أيها السادة ـ كانت عينا مدير اللعبة حادتين للغاية . جاءت ليلة وضعت فيها آخر رهاناتها فى العالم على الطاولة . لا تسألونى كيف عرفت هذا ـ أنا أعرف ـ إن المرء يمكنه الشعور بهذه الأشياء . قد لا يصدق الآخرون هذا . إنها مازالت تملك ملابس غالية ـ كيف لها أن تتخلى عنها ؟ لأنها إن فعلت ذلك بذلك انهارت مصداقيتها . ومجوهراتها ؟ يا إلهى ! ألم أكن صاحب متجر مجوهرات فيما مضى ؟ منذ وقت طويل مضى باعت جميع المجوهرات . لقد باعت لآلئ الملك واحدة تلو الأخرى واستبدلتها بأخرى زائفة . فيجب على المرء أن يأكل ويدفع حساب الفندق . وهى تعرف الكثير من الرجال الأثرياء أيضًا . ويقولون إنها تعدت الخمسين .

نعم ، لقد كانت لحظة عظيمة . ظللت أراقبها طوال ليلتين . تخسر وتخسر ، ثم تخسر ثانية . والآن جاءت النهاية . وضعت كل فيشها على رقم واحد . وإلى جوارها راهن لورد إنجليزى بكل فيشه أيضًا على الرقم المجاور . دارت الكرة . حانت اللحظة الحاسمة ، لقد خسرت ...

تلاقت عيناها بعينىّ . ماذا عساى أن أفعل ؟ خاطرت بوظيفتى فى الكازينو . قمت بسرقة اللورد الإنجليزى . قلت : " *لقد فازت السيدة* " وأعطيتها المال " .

كان هناك صوت اصطدام ، حيث هبت الكونتيسة واقفة على قدميها وانحنت على الطاولة مطيحة بكأسها على الأرض .

صاحت قائلة : " لماذا ؟ هذا ما أود معرفته . لماذا فعلت هذا ؟ " .

سادت فترة صمت طويلة بدت بلا نهاية ، وظل هذان الشخصان المواجهان لبعضهما البعض على الطاولة يحملقان فى كليهما الآخر ... بدا الأمر كمبارزة .

تسللت ابتسامة دنيئة على وجه بيير فوتشر . رفع يديه .

قال : " يا سيدتى . إن هناك شيئًا يسمى الشفقة ... " .

" آه ! " .

جلست ثانية .

" حسنًا " .

كانت هادئة وتبتسم ، وعادت لطبيعتها مرة أخرى .

" يا لها من قصة مثيرة يا سيد فوتشر ، أليس كذلك؟ دعني أشعل لك سيجارتك " .

أخرجت لفافة ورقية وأشعلتها من الشمعة ومدتها ناحيته . مال للأمام حتى التقط طرف السيجارة اللهب .

ثم نهضت فجأة ، قائلة :

" والآن يجب أن أترككم جميعًا . من فضلكم لا أريد أن يأتي معي أحد" .

وقبل أن يدرك أحدهم ذلك كانت قد ذهبت . كان السيد ساترثوايت سيهرع خلفها ولكن أوقفته صرخة الرجل الفرنسي العالية .

" يا إلهي ! " .

كان يحدق في لفافة الورق نصف المحروقة التي ألقتها الكونتيسة على الطاولة .

قال : " يا إلهي ! خمسون ألف فرنك . هل تدركون ما فعلت ؟ إنها الأموال التي كسبتها الليلة . كل ما تملك في الحياة . وقد أشعلت سيجارتي بها ! لأن غرورها منعها من قبول ـ الشفقة ، آه ! غرورها ، لقد كانت دومًا مغرورة وتختال بنفسها كالشيطان . إنها فريدة من نوعها ـ رائعة " .

قفز من مقعده وخرج مندفعًا للخارج . نهض السيد ساترثوايت والسيد كوين أيضًا . اقترب النادل من فرانكلين رودج .

قال له : " الحساب يا سيدى " .

أخذ منه السيد كوين الفاتورة سريعًا .

قال فرانكلين رودج : " أنا أشعر بالوحشة يا اليزابيث . هؤلاء الأجانب ـ إنهم غريبو الأطوار ! أنا لا أفهمهم . ماذا كان يعنى هذا ؟ " .

ثم نظر إليها .

" من الرائع حقًا أن ينظر المرء إلى مواطن أمريكي مائة بالمائة مثلك " . كان صوته حزينًا كصوت طفل صغير .

" هؤلاء الأجانب غريبو الأطوار للغاية " .

شكرا السيد كوين وخرجا معًا . التقط السيد كوين باقي نقوده وابتسم للسيد ساترثوايت ، والذى كان معتزًا للغاية بما حقق .

قال الأخير : " حسنًا ، لقد انتهى الأمر بشكل رائع . إن المتحابين الصغيرين سيكونان على ما يرام الآن " .

سأل السيد كوين : " أيهما ؟ " .

قال السيد ساترثوايت فى دهشة : " آه ! نعم ، حسنًا أعتقد أنك محق ــ "

وبدا مترددًا .

ابتسم السيد كوين ، وعكس اللوح الزجاجي من خلفه على ملابسه ألوانًا عديدة .

الفصل ٦

رجل من البحر

كان السيد ساترثوايت يشعر بأنه رجل عجوز . وهذا ليس مدهشًا حيث إن الكثير من الناس يعتبرونه عجوزًا . فالشباب المستهترون يقولون لآبائهم : " ساترثوايت العجوز ؟ آه ! لابد أنه فى المائة من عمره ـ أو ربما يكون فى الثمانين " . وحتى أكثر الفتيات لطفًا يقلن : " آه ! ساترثوايت . إنه عجوز للغاية . لابد أنه فى الستين " . وذلك كان أسوأ ، حيث إنه كان فى التاسعة والستين .

ولكن وفقًا له هو ، فإنه لم يكن عجوزًا . فالتاسعة والستين هى سن مثيرة ـ سن الاحتمالات غير المحدودة ـ السن التى تبدأ فيها بقص خبراتك الحياتية . ولكن أن يشعر المرء بأنه عجوز ـ كان ذلك مختلفا ، فذلك عبارة عن حالة عقلية متعبة ومحبطة ، يوجه الإنسان فيها لنفسه أسئلة تبعث على الاكتئاب . فماذا أصبح فى النهاية ؟ رجل عجوز ليس له زوجة أو أطفال ، ليس له

أقرباء ، فقط مقتنيات فنية ذات قيمة ، والتي بدت له حاليًا غير مرضية . لا يوجد من يهتم إن كان حيًا أم ميتًا ...

وفي هذه المرحلة من تأملاته أفاق السيد ساترثوايت . فما كان يفكر فيه كان عقيمًا وكئيبًا . إنه يعلم جيدًا ــ أفضل من أى شخص آخر ـ أنه لو كان قد تزوج فإن زوجته كانت ستكرهه أو أنه كان سيكرهها ، وأن الأطفال كانوا سيصبحون مصدرًا دائمًا للإزعاج والقلق ، وأنهم كانوا سيشكلون عبئًا على وقته وعاطفته .

قال السيد ساترثوايت فى حزم : " لقد كان ذلك هو السبيل الوحيد للبقاء فى مأمن ، وللشعور بالراحة " .

تلك الفكرة الأخيرة ذكرته بخطاب وصله هذا الصباح . سحبه من جيبه وأعاد قراءته وهو يستمتع بمحتواه . وقد كان من إحدى الدوقات ، وكان السيد ساترثوايت يحب تلقى خطابات من الدوقات . نعم ، لقد بدأ الخطاب بطلب للتبرع بمبلغ كبير ، ولولا هذا المطلب ما كانت كتبت الخطاب ، ولكن الطريقة التى صاغته بها راقت للغاية للسيد ساترثوايت ، لدرجة جعلته يتغاضى عن سبب كتابة الخطاب .

كتبت الدوقة : " إذن لقد غادرت الريفييرا . كيف هى الجزيرة التى توجد بها حاليًا ؟ هل هى رخيصة ؟ إن كانوتى رفعت أسعارها بشكل مخز هذا العام ، وأنا لن أذهب إلى الريفييرا ثانية . قد أجرب جزيرتك فى العام المقبل إن أبلغتنى برضاك عنها بالرغم من أننى قد أمضى بضعة أيام على ظهر قارب . ومع ذلك ، فإن أى مكان تزكيه لابد له أن يكون رائعًا ـ شديد الروعة . فأنت تبدو لى أحد هؤلاء الأشخاص الذين لا يهتمون بشىء سوى تدليل أنفسهم وتوفير الراحة لها . وهناك شىء واحد يلهيك أحيانًا عن هذا يا سيد ساترثوايت وهو اهتمامك غير العادى بشئون الآخرين ..."

وبينما كان السيد ساترثوايت يطوى الخطاب ، إذ راودته رؤية واضحة وحيوية للدوقة . دناءتها ، عطفها غير المتوقع والمزعج ، لسانها اللاذع ، روحها التى لا تقهر .

روح ! يحتاج الجميع إلى الروح . أخرج خطابًا آخر عليه طابع ألمانى ـ كان المرسل مغنية شابة كانت تستحوذ على اهتمامه . كان خطابًا رائعًا ومليئًا بالعاطفة جاء فيه :

" كيف يمكننى أن أشكرك يا سيد ساترثوايت ؟ إنه أمر رائع حقًا أن أعرف أننى سأغنى Isolde خلال بضعة أيام ..."

إنه شيء مؤسف حقًا أنها ستغنى فى ظهورها الأول أغنية Isolde . إن تلك الفتاة - والتى تدعى أولجا - ساحرة حقًا وتعمل بكد ، كما أنها تمتلك صوتًا جميلاً ولكنه يفتقر إلى الإحساس . همس بكلمات الأغنية بينه وبين نفسه . لا ، إن الفتاة لا تملك بداخلها - الروح - الإرادة القوية .

حسنًا ، على أية حال ، فقد أسدى لشخص ما معروفًا . إن تلك الجزيرة قد أصابته بالاكتئاب - لماذا ؟ لماذا ترك الريفييرا التى كان يعرفها جيدًا ، والتى كان معروفًا بها ؟ لم يبد أى شخص هنا اهتمامًا به . لا يبدو أن هناك من يدرك أن هذا هو السيد ساترثوايت - صديق الدوقات والكونتيسات والمطربين والأدباء . لم يبد أنه كان يوجد على الجزيرة أى شخص ذى مكانة اجتماعية أو حتى فنية . معظم الموجودين هناك مقيمون بالجزيرة منذ سبعة أعوام أو أربعة عشر أو واحد وعشرين عامًا . وكانوا يعتقدون أنهم مهمون ويعتقد الآخرون أنهم مهمون بالتبعية .

بعد تنهدات عميقة ، خرج السيد ساترثوايت من الفندق متوجهًا إلى الميناء المتد . كان طريقه يقع بين شارع مزين بنبات البوغنفيلية - وهو عبارة عن كتلة نباتية جميلة قرمزية اللون ، الأمر الذى جعله يشعر بشيخوخته وتقدمه فى العمر .

تمتم قائلاً : " لقد أصبحت كهلاً . لقد أصبحت عجوزًا ومتعبًا " .

وقد شعر بالسعادة حينما اجتاز نبات البوغنفيلية ، وأصبح يسير بالشارع الأبيض المؤدى إلى البحر الأزرق . كان هناك كلب قذر يقف فى منتصف الطريق ، يتثاءب ويمد جسمه فى الشمس . بعد أن مد جسمه لحده الأقصى جلس وبدأ يحك جسده . بعد ذلك نهض ونظر حوله بحثًا عن أى شئ جيد يمكن للحياة أن تقدمه له .

كان هناك مقلب نفايات بجانب الطريق ، فاتجه إليه فى سعادة وترقب . وكان محقًا ، فلم تخدعه أنفه ! لقد كانت هناك رائحة عفونة شديدة فاقت توقعاته ! أخذ يتشممها بترقب متزايد ثم فجأة استلقى على ظهره واستدار فى اهتياج على المقلب اللذيذ . من الواضح أن الحظ كان حليفه فى هذا اليوم !

وبعدما تعب نهض وهبط ثانية إلى منتصف الطريق . بعد ذلك ودون أى إنذار سابق جاءت سيارة بسرعة من عند المنعطف ودهست الكلب ومضت فى طريقها .

نهض الكلب على قدميه ووقف لدقيقة ينظر للسيد ساترثوايت نظرة عتاب حمقاء غامضة ثم سقط . ذهب السيد ساترثوايت إليه وانحنى ناحيته . كان الكلب ميتًا . مضى فى طريقه يفكر فى مدى قسوة الحياة وكآبتها . يا لها من نظرة عتاب غريبة تلك التى كانت فى عينى الكلب . لقد كانتا تقولان : " *يا له من عالم . هذا العالم*

الذى كنت أعتقد أنه رائع وكنت أثق فيه . لماذا فعلت هذا بى ؟" .

مضى السيد ساترثوايت فى طريقه مارًا بالنخل والمنازل البيضاء الممتدة ، وشاطئ الحمم السوداء حيث ثارت الأرض ذات مرة ، وحيث غرق ـ منذ وقت طويل ـ سباح إنجليزى مشهور ، وأحواض السباحة الصخرية حيث كانت السيدات العجائز والأطفال يقفزون فى الماء ويطلقون على ذلك استحمامًا ، وأخيرًا الطريق شديد الانحدار الذى ينتهى بجرف . وعلى حافة هذا البحر كان يوجد منزل يطلق عليه اسم لاباز . كان منزلاً أبيض ، ذا نوافذ خضراء قريبة من بعضها البعض ، وحديقة جميلة وممشى بين أشجار السرو . وكان يقود إلى سهل واسع على حافة الجرف ، حيث يمكنك النظر لأسفل ـ أسفل ـ أسفل إلى البحر الأزرق العميق .

كان السيد ساترثوايت متجهًا إلى هذا المكان . فقد كان يعشق ، للغاية ، حديقة لاباز . وهو لم يسبق له دخول الفيلا . لقد بدت دومًا شاغرة . وكان مانويل ـ البستانى الأسبانى ، يهدى باقة من الورود للسيدات ، ووردة واحدة للرجال ليضعوها فى عروة السترة .

وفى بعض الأحيان كان السيد ساترثوايت يؤلف حكايات من وحى خياله عن مالك الفيلا . وكانت حكايته المفضلة أنها كانت راقصة أسبانية كانت معروفة

بجمالها فى كل أنحاء العالم ، والتى انتهى بها الحال هنا ، حتى لا يعرف العالم أنها لم تعد جميلة .

لقد كان يتخيلها تخرج من المنزل فى وقت الغسق وتسير فى الحديقة . فى بعض الأحيان كانت تراوده رغبة ملحة فى سؤال مانويل عن الحقيقة ، ولكنه قاوم هذه الرغبة . لقد فضل تخيلاته .

بعد التحاور قليلاً مع مانويل وقبول ثمرة برتقال ، سار السيد ساترثوايت فى ممشى أشجار السرو متجهًا إلى البحر . لقد كان مكانًا خلابًا هناك ؛ فوق حافة لا شىء وراءها ، ووجود هذا المنحدر الهائل بالأسفل . لقد جعله يفكر فى حكاية تريستان وآيسوليد ـ هذا العاشق الذى ينتظر وحده ثم ظهور آيسوليد من البحر وموت تريستان بين ذراعيها (لا ، أوليجا الصغيرة لن تستطيع قط أداء دور آيسوليد ، فآيسوليد من كورووال تلك الباغضة الملكية والعاشقة الملكية ... " بدأ يرتعد . شعر بأنه عجوز ووحيد ... بماذا خرج من هذه الحياة ؟ لا شىء ـ لا شىء . لم يخرج بالكثير مثل هذا الكلب الموجود بالطريق ...

كان صوتًا غير متوقع هو الذى أفاقه من حلم يقظته . إنه لم يسمع صوت خطى الأقدام بممشى السرو ، وكان الشىء الذى جعله يعرف بوجود شخص معه هو كلمة " اللعنة " .

استدار ليجد شابًا يحملق فيه فى دهشة وإحباط بالغين . تعرف عليه السيد ساترثوايت على الفور ، حيث إنه كان قد وصل إلى الفندق فى اليوم السابق ، وبطريقة أو بأخرى أثار فضوله . وكان السيد ساترثوايت يدعوه شابًا ، لأنه بالمقارنة بكبار السن الموجودين بالفندق كان يعد شابًا ، ولكنه بدون شك كان رجلاً تعدى الأربعين ، وفى طريقه فى الغالب لبلوغ الخمسين . ومع ذلك فإن صفة شاب كانت تلائمه ـ كان السيد ساترثوايت فى العادة محقًا بخصوص هذه الأمور ـ فقد تولد لديه انطباع بأنه غير ناضج . فكما كانت هناك لمسة طفولية بالعديد من الكلاب الناضجين ، كان هذا الغريب كذلك أيضًا .

فكر السيد ساترثوايت : " إن هذا الشاب لم ينضج قط ـ ليس بالطريقة الصحيحة ، هذا هو كل ما فى الأمر " .

ومع ذلك فلم يكن هناك شيء مميز به . كان أنيقًا وبدينًا بعض الشيء ، ويعطيك الانطباع بأنه إنسان عاش دومًا حياة مترفة من الناحية المادية ، ولكن من ذلك الذى حرم نفسه المتع أو الشعور بالرضا . كانت عيناه بنيتين ـ مستديرتين دائرتين بعض الشيء ـ وشعره أصفر فى طريقه *ليصبح رماديًا* ـ وذو شارب صغير ووجه وردى اللون .

الشيء الذى أربك السيد ساترثوايت هو السبب الذى جعله يأتى إلى الجزيرة . كان بإمكانه أن يتخيله يصطاد ويلعب البولو أو الجولف أو التنس ويغازل النساء

الجميلات . ولكن فى هذه الجزيرة لم يكن هناك شيء لصيده ، لا ألعاب ، فيما عدا كروكيت الجولف ، وأفضل طريقة للوصول إلى امرأة جميلة تكون عن طريق السيدة بابا كيندرسلى العجوز . وبالطبع كانت هناك فنانات جميلات ، ولكن السيد ساترثوايت كان واثقًا أنه ليس فنانًا . لقد كان لا يقدر الفنون ولا الآداب .

بينما كانت تدور هذه الأمور فى رأسه تحدث الشخص الآخر مدركًا ، متأخرًا بعض الشيء ، أن شعوره بالفزع فيما سبق قد يكون عرضة للنقد .

قال وهو يشعر ببعض الإحراج : " أستميحك عذرًا . فى الواقع ـ حسنًا ، لقد شعرت بالفزع . فأنا لم أتوقع وجود *أحد* هنا " .

ابتسم ابتسامة منمقة . كانت له ابتسامة ساحرة وودودة .

قال السيد ساترثوايت وهو يبتعد قليلاً ناحية المقعد : " إنه مكان معزول بعض الشيء " . قبل الآخر الدعوة الصامتة وجلس .

قال : " لا أعتقد أنه معزول . يبدو أن هذا المكان لا يخلو أبدًا من الزوار " .

بدت فى صوته *لمحة من الاستياء الخفى* . تساءل السيد ساترثوايت عن السبب . لقد رأى هذا الشخص ودودًا . إذن لماذا هذا الإصرار على الوحدة ؟ ربما لديه موعد ؟ لا ـ ليس هذا . نظر ثانية نظرة متفحصة إلى

رفيقه . أين رأى هذا التعبير مؤخرًا ؟ نظرة الاستياء الحائرة الصامتة تلك .

سأله السيد ساترثوايت من أجل حثه على قول شيء ما أكثر من أى شيء آخر ، قائلاً : " لقد جئت إلى هنا من قبل إذن ؟ " .

" لقد أتيت إلى هنا فى الليلة الماضية ، بعد العشاء " .

" حقًا ، كنت أظن أن البوابات تكون دومًا مغلقة " .

سادت دقيقة من الصمت ثم قال الشاب وهو مقطب جبينه :

" لقد تسلقت الجدار " .

أخذ السيد ساترثوايت ينظر إليه باهتمام حقيقى الآن . لقد كان يتمتع بقدرات بوليسية وكان يدرك أن هذا الشاب لم يصل إلا فى ظهيرة يوم أمس . فهو لم يتح له وقت كاف لاستكشاف جمال الفيلا فى ضوء النهار . كما أنه لم يتحدث إلى أحد حتى الآن . ومع ذلك فبعد حلول الظلام توجه مباشرة إلى لاباز . لماذا ؟ وعلى نحو غير مقصود ، تقريبًا أدار السيد ساترثوايت رأسه لينظر إلى الفيلا ذات النوافذ الخضراء ، ولكنها كانت كحالها دومًا تبدو غير مأهولة وكانت نوافذها مغلقة . لا ، إن حل اللغز لم يكن هناك .

قال : " وأنت وجدت حقًا شخصًا ما هنا فى ذلك الوقت ؟ " .

أومأ الآخر ، قائلاً :

" نعم . لابد أنه من الفندق الآخر . لقد كان يرتدى ملابس تنكرية " .

" ملابس تنكرية ؟ " .

" نعم ، شيء يشبه ملابس المهرجين " .

" ماذا ؟ " .

انفجر هذا الاستفسار من بين شفتى السيد ساترثوايت . استدار رفيقه ليحدق فيه فى دهشة .

" إنهم عادة ما يقيمون حفلات تنكرية فى الفنادق ، على ما أعتقد ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " آه ! فعلاً ، فعلاً " .

سكت قليلاً ثم أضاف :

" لابد أن تعذرنى لأجل كل هذه الإثارة التى أشعر بها . هل تعرف أى شيء يسمى العامل الحفاز ؟ " .

حملق فيه الشاب ، وقال :

" لا ، لم أسمع به قط . ما هذا ؟ " .

قال السيد ساترثوايت بجدية : " *هو تفاعل كيميائى يعتمد نجاحه على وجود مادة معينة ، تبقى هى نفسها دون تأثر* " .

قال الشاب فى عدم ثقة : " حقًا " .

" إن لدىّ صديقًا يدعى السيد كوين ، والذى يعد مصطلح عامل حفاز هو أفضل وصف له . إن وجوده يكون مؤشرًا على أن ثمة أشياء سوف تحدث ، فأثناء وجوده ينزاح الستار من فوق بعض الأسرار فلا تظل أسرارا . ومع

ذلك فهو نفسه لا يشترك فى الأحداث . يساورنى شعور بأن صديقى هذا هو من قابلته ليلة أمس " .

" لابد أنه يتمتع بخفة حركة كبيرة . لقد أفزعنى بشدة . ففى لحظة لم يكن أحد موجودًا ، وفجأة وجدته أمامى ! وكأنه خرج من البحر " .

نظر السيد ساترثوايت إلى السهل الصغير وإلى الأسفل بالمنحدر .

قال الآخر : " هذا هراء بالطبع . ولكن هذا هو الانطباع الذى ولده بداخلى فلا يوجد موطئ قدم لذبابة " .

نظر من فوق الحافة ، وأردف قائلا : " إنه منحدر مستقيم . فإن عبرت الحافة فسوف تسقط للأسفل على الفور " .

قال السيد ساترثوايت فى بهجة : " مكان مثالى لارتكاب جريمة قتل " .

حملق فيه الآخر وكأنه لم يفهم ما سمعه لدقيقة . ثم قال فى غموض : " آه ! نعم - بالطبع ... "

جلس هناك وشرع فى الضرب برفق بعصاه على الأرض وهو مقطب جبينه . وفجأة وجد السيد ساترثوايت الشبه الذى كان يبحث عنه . نفس الاستفسار الغبي والمحير . إذن هل رأى الكلب من دهسه . كانت عيناه وعينا هذا الرجل تطرحان نفس السؤال المثير للشفقة ، بنفس درجة العتاب : " *هذا العالم الذى كنت أعتقد أنه رائع وكنت أثق فيه . لماذا فعلت هذا بى؟* " .

وقد وجد أوجه شبه أخرى بين الاثنين ، نفس الحياة المستهترة والانغماس فى اللذات ، نفس الافتقار للتفكير العقلانى . فهما يكتفيان بالعيش فى اللحظة الحالية - حيث كان المكان جميلاً ، وصالحا لإشباع الرغبات الجسدية - الشمس ، البحر ، السماء ، كومة نفايات جميلة . وبعد ذلك - ماذا حدث ؟ لقد صدمت سيارة الكلب . ماذا صدم هذا الرجل ؟

لكن بطل هذه التأملات بدأ يتحدث - إلى نفسه أكثر من التحدث إلى السيد ساترثوايت .

قال : " إننى لأتساءل : ما الفائدة من كل ذلك ؟ " .

كلمات مألوفة - كلمات عادة ما كانت تجعل السيد ساترثوايت يبتسم ؛ حيث إنها تعد خيانة غير واعية للأنانية الداخلية للإنسانية ، والتى تصر على النظر لكل وجه من أوجه الحياة بوصفه مصممًا لإسعادها أو تعذيبها . لم يجبه ، فقال الغريب بنبرة ضاحكة :

" لقد سمعت أن كل إنسان عليه بناء منزل وزرع شجرة وإنجاب طفل " . سكت ثم أضاف : " أعتقد أننى زرعت شجرة بلوط ذات مرة .... "

تحرك السيد ساترثوايت قليلاً . لقد أثير فضوله - ذلك الاهتمام الدائم بشئون الآخرين الذى أشارت إليه الدوقة . لم يكن الأمر صعبًا . لقد كان السيد ساترثوايت يتمتع بصفة أنثوية ، فقد كان منصتًا جيدًا شأنه شأن أى

امرأة ، وكان يعلم اللحظة المناسبة للتفوه بكلمات تحفيزية . حاليًا كان يسمع القصة بالكامل .

أنتونى كوسدن ، كان هذا هو اسم الرجل الغريب ، وكانت حياته تشبه كثيرًا ما تخيله السيد سانرثوايت . لقد كان يروى الحكاية بشكل سيئ ، ولكنه استطاع أن يملأ الفجوات بسهولة . حياة عادية للغاية ، دخل متوسط ، فترة قصيرة من الحياة العسكرية ، ممارسة الكثير من الرياضة عندما تتاح الفرصة ، الكثير من الأصدقاء ، الكثير من الأمور الممتعة للقيام بها ، عدد كاف من النساء . هذا النوع من الحياة الذى يقوض الفكر ويعزز الإحساس . بصراحة ، إنها حياة حيوانية . فكر السيد سانرثوايت من منطلق أعماق خبرته : " ولكن هناك أشياء أسوأ من هذا . يا إلهى ! هناك الكثير من الأشياء التى تعد أسوأ من هذا ... " . لقد بدا هذا العالم مكانًا جميلاً لأنتونى كوسدن . لقد كان يتذمر لأن الآخرين يتذمرون دومًا ولكنه ليس تذمرًا حقيقيًا .

وصل إلى نهاية القصة أخيرًا - بعد التحدث طويلاً بغموض وبشكل غير مترابط . لم يشعر بأنه على ما يرام - ليس أكثر . ذهب إلى طبيبه فنصحه بالذهاب إلى متخصص . وبعد ذلك - كانت الحقيقة المرعبة . حاولوا السيطرة على المرض ، ولكن جميع محاولاتهم ذهبت هباء . وقد انتهى بهم الأمر إلى أن يقولوا له إن أمامه ستة أشهر . تلك هى المدة التى أعطوها له . ستة أشهر .

استدار لينظر بتلك العينين البنتين الحائرتين إلى السيد سانرثوايت . لقد كان الأمر بالطبع بمثابة صدمة بالنسبة له . إنه لم يعرف ماذا يفعل .

أومأ السيد سانرثوايت بجدية وتفهم .

استكمل أنتونى كوسدن كلامه ، قائلاً إنه كان من الصعب مواجهة هذه الحقيقة . كيف يعيش ما تبقى له من وقت . إنه أمر كريه حقًا أن تنتظر الموت . وهو لم يكن يشعر بأنه مريض - بعد . بالرغم من أنه قد أحس بذلك لاحقًا . فهكذا قال له المتخصص ، وهو أمر محتم . أليس من العبث أن يكون المرء على وشك أن يموت فى حين أنه لا يمتلك أدنى رغبة فى ذلك . وقد فكر أن أفضل ما يمكنه فعله هو المضى فى حياته وكأن شيئًا لم يحدث . ولكنه بطريقة ما لم يستطع ذلك .

هنا قاطعه السيد سانرثوايت . سأله فى رقة عن وجود أية امرأة فى حياته ؟

ولكن لم تكن هناك واحدة على ما يبدو . كانت هناك نساء بالطبع فى حياته ولكن لسن من هذا النوع . كانت النساء فى حياته من النوع الصاخب . إنهن لم يحببن - كما قال - الجثث . وهو لم يرغب فى إقامة جنازة له أثناء حياته . فذلك سوف يكون مهينًا للجميع . لذا فقد سافر للخارج .

قال : " وقد جئت إلى هذه الجزر ؟ ولكن لماذا ؟ " .

كان السيد سانرثوايت يريد الوصول إلى شىء ما ، شىء

غير ملموس ودقيق يتملص منه ، ولكن الذى كان واثقاً من وجوده . " ربما أتيت إلى هنا قبل ذلك ؟ " .

اعترف بدون قصد تقريبًا : " نعم . منذ سنوات حينما كنت أصغر سنًا " .

وفجأة ، وعن غير وعى تقريبًا كما بدا ، رمق الفيلا بنظرة سريعة من فوق كتفه .

قال وهو يشير إلى البحر : " لقد تذكرت هذا المكان . *خطوة واحدة إلى الأبدية !* " .

قال السيد ساترثوايت بهدوء : " ولهذا السبب أتيت إلى هنا الليلة الماضية " .

نظر إليه أنتونى كوسدن فى رعب .

قال معترضًا : " أنا أقول - فى الواقع — "

" فى الليلة الماضية وجدت شخصًا ما هنا . اليوم وجدتنى . لقد تم إنقاذ حياتك - مرتين " .

" يمكنك أن تقول ما تشاء - ولكن ، اللعنة ، إنها حياتى أنا . أنا أملك الحق للتصرف كيف أشاء بها " .

قال السيد ساترثوايت بضجر : " إن هذا هو مجرد كلام مكرر " .

قال أنتونى كوسدن : " بالطبع ، أنا أرى ما ترمى إليه . فمن الطبيعى أن تحاول قول كل ما تستطيعه . فأنا أيضًا كنت سأنصح شخصًا فى مثل ظروفى بالعدول عن قراره ، حتى ولو كنت أعلم فى أعماقى أن هذا القرار صحيح . وأنت تعلم أننى محق . فنهاية سريعة نظيفة

أفضل من واحدة طويلة تسبب المتاعب وتزعج وتكلف الجميع. وعلى أية حال ، أنا ليس لدىّ أى أشخاص يهمنى أمرهم فى هذا العالم ... " .

قال السيد ساترثوايت بحدة " وإن كان لديك — ؟ "

أخذ كوسدن نفسًا عميقًا ، وقال :

" لا أعرف . حتى فى ذلك الحين ، أعتقد أن ذلك القرار سيكون الأمثل . ولكن على أية حال ، ليس لدىّ مثل هؤلاء الأشخاص ... " .

سكت فجأة . نظر إليه السيد ساترثوايت فى فضول . سأله ثانية عن وجود امرأة ما فى حياته . ولكن كوسدن نفى ذلك . لا يجب عليه - على حد قوله - أن يشكو . فهو قد عاش بشكل عام حياة رائعة . كل ما فى الأمر أنه من المؤسف حقًا أن تنتهى حياته بهذه السرعة . ولكنه ، على أية حال ، قد حظى بكل شىء يستحق أن يحظى به المرء ، فيما عدا الابن . كان يحب أن يكون له ابن . كان يحب أن يعرف الآن أن لديه ابنًا سيعيش بعده . ومع ذلك فقد كرر ثانية أنه عاش حياة رائعة .

فى هذه المرحلة نفد صبر السيد ساترثوايت . أشار إلى أنه ليس بإمكان أى شخص لا يزال فى مرحلة الشباب أن يدعى أنه يعرف شيئًا بهذه الحياة . وحيث إن عبارة " مرحلة الشباب " لم تكن تعنى شيئًا لكوسدن فقد واصل السيد ساترثوايت حديثه ليوضح مقصده ، قائلاً :

" إنك لم تبدأ حياتك بعد . فأنت لا تزال فى بداية حياتك " .

ضحك كوسدن ، وقال :

" كيف هذا ، إن شعرى رمادى . أنا فى الأربعين من عمرى — " .

قاطعه السيد ساترثوايت ، قائلاً :

" إن ذلك لا علاقة له بالأمر . إن الحياة ما هى إلا تركيب معقد من الخبرات الجسدية والعقلية . فأنا ، على سبيل المثال ، فى التاسعة والستين من عمرى ، وأنا حقًا فى التاسعة والستين . وقد اكتسبت جميع الخبرات التى يمكن للحياة أن تقدمها بشكل عملى . إنك بمثابة رجل يتحدث عن عام كامل فى حين أنه لم ير سوى الثلج والصقيع ! أما أزهار الربيع ، أيام الصيف الباعثة على التراخى ، أوراق الشجر المتساقطة فى الخريف ـ فإنه لا يعرف شيئًا عن هذه الأمور ـ ولا يدرك حتى وجودها . وأنت سوف تدير ظهرك لتلك الفرصة السانحة للتعرف عليها " .

قال أنتونى كوسدن بجفاء : " يبدو أنك نسيت أنه لم يتبق أمامى سوى ستة أشهر " .

قال السيد ساترثوايت : " إن الوقت ـ شأنه شأن أى شىء آخر ـ نسبى ؛ ففترة الستة أشهر هذه قد تصبح أطول فترة فى حياتك وأكثرها اكتسابًا للخبرات " .

بدا كوسدن غير مقتنع .

قال : " لو كنت مكانى لفعلت نفس الشىء " .

هز السيد ساترثوايت رأسه .

قال ببساطة : " لا . فى المقام الأول ، لا أعتقد أننى أملك الشجاعة الكافية . فالأمر يتطلب شجاعة وأنا لست شجاعًا على الإطلاق . وثانيًا — " .

" حسنًا ؟ " .

" أنا دومًا أريد أن أعرف ماذا سيحدث غدًا ؟ " .

ضحك كوسدن فجأة ، وقال :

" حسنًا يا سيدى . كان لطفًا كبيرًا منك أن سمحت لى بالتحدث إليك . وأنا لا أعرف لماذا قمت بهذا . ولكننى أخبرتك بالكثير . عليك أن تنسى ما قلته لك " .

" وغدًا ، عند اكتشاف وقوع الحادث ، ماذا علىّ أن أفعل ؟ أيجب أن أخبرهم أنه كان انتحارًا ؟ " .

" افعل ما يحلو لك . أنا سعيد أنك أدركت شيئًا واحدًا ـ أنه ليس باستطاعتك إثنائى عما أريد أن أفعل " .

قال السيد ساترثوايت بهدوء : " عزيزى الشاب . أنا لا أستطيع إلصاق نفسى بك كحيوان البطلينوس . فآجلاً أم عاجلاً سوف تنجح فى إلهائى وتنفيذ ما تريد . ولكنك محبط للغاية الآن . كما أنك لن ترضى أن تلقى حتفك وتترك الشرطة تتهمنى بدفعك من فوق الجرف " .

قال كوسدن : " إن هذا محتمل . إن صممت على البقاء هنا " .

قال السيد ساترثوايت بحزم : " أنا مصمم " .

ضحك كوسدن .

" إذن يجب تأجيل الخطة لبعض الوقت . فى هذه الحالة سأعود إلى الفندق . أراك لاحقًا ، ربما " .

بعدما أصبح السيد ساترثوايت وحده أخذ ينظر إلى البحر .

قال لنفسه برقة : " والآن . ماذا بعد ؟ لابد أن يحدث شئ بعد ذلك . أتساءل ... " .

ثم نهض . ولبرهة وقف عند حافة السهل ينظر للأسفل إلى الأمواج المتراقصة . ولكنه لم يجد أى إلهام هناك ، استدار ببطء وسار ثانية عبر الممشى بين أشجار السرو ، ومنه إلى الحديقة الهادئة . نظر إلى المنزل الهادئ ذى النوافذ الخضراء وتساءل ، كما كان يتساءل دومًا ، عمن كان يعيش هناك ، وعما حدث داخل تلك الجدران الهادئة . وقد دفعه حافز فجائى إلى تسلق بعد السلالم الصخرية المفتتة ودفع إحدى النوافذ الخضراء بيده .

وقد فوجئ حينما اكتشف أنها تحركت حينما دفعها . تردد للحظة ثم دفعها لتفتح . وفى اللحظة التالية عاد إلى الوراء فى فزع . فقد وجد امرأة تقف فى النافذة أمامه . كانت ترتدى ثوبًا أسود وتضع على شعرها طرحة أسبانية سوداء .

شرع السيد ساترثوايت فى ارتباك فى التحدث ببعض الكلمات الإيطالية والألمانية - أقرب لغتين للأسبانية ، استطاع التفكير فيهما . شرح فى بؤس وخزى سبب قيامه

بذلك ، وطلب من السنيورة السماح . عاد أدراجه سريعًا دون أن تتفوه السيدة بكلمة واحدة .

كان قد قطع نصف المسافة فى الفناء حينما دوى صوتها كالطلق النارى :

" عد إلى هنا ! " .

كانت نبرتها آمرة وكأنها تنادى على كلب ، ولكنها كانت حازمة لدرجة جعلت السيد ساترثوايت يستدير ويهرول إلى النافذة تلقائيًا دون أن يخطر حتى بباله أن يشعر بأى استياء . فقد انصاع لأمرها ككلب . كان السيدة لا تزال تقف بلا حراك فى النافذة . أخذت تنظر إليه من الأعلى إلى الأسفل وهى تتفحصه فى هدوء شديد .

قالت : " إنك إنجليزى على ما أعتقد " .

بدأ السيد ساترثوايت يعتذر ثانية .

قال : " أنا لم أكن أعرف أنك إنجليزية ، الآن أستطيع أن أتحدث بشكل أوضح . أعتذر عما بدر منى من وقاحة حينما فتحت النافذة . وأخشى ألا يكون لدىَّ عذر أستطيع تقديمه سوى الفضول . فقد كنت أريد بشدة أن أرى كيف يبدو هذا المنزل الرائع من الداخل " .

ضحكت فجأة ضحكة غنية وعميقة .

قالت : " إن كنت ترغب حقًا فى رؤيته ، فمن الأفضل أن تدخل " .

تنحت جانبًا ودخل السيد ساترثوايت الذى كان يشعر بإثارة بالغة . كان المنزل مظلمًا حيث إن جميع النوافذ

كانت مغلقة ولكن كان بإمكانه أن يرى أن الأثاث كان شحيحًا وباليًا ، وكان الغبار يوجد بكثافة فوق كل شيء .

قالت : " ليس هنا . أنا لا أستعمل هذه الغرفة " .

قادته ، فتبعها هو خارج الغرفة عبر ممر ، ودخل غرفة بالجانب المقابل . هناك كانت النوافذ تطل على البحر وكانت أشعة الشمس تملأ المكان . كان الأثاث - كذلك الذى يوجد فى الغرفة الأخرى - منخفض الجودة ولكن كانت توجد بعض السجاجيد الرثة التى كانت جيدة فيما سبق ، ولوحة كبيرة المصنوعة من الجلد الأسبانى المدبوغ ، وأوانى تحتوى على زهور ندية .

قالت مضيفة السيد ساترثوايت : " ستتناول الشاى معى " . أضافت فى تأكيد : " إنه شاى ممتاز نعده بالماء المغلى " .

خرجت من الغرفة وقالت شيئًا بالأسبانية ، ثم عادت أدراجها وجلست على الأريكة المقابلة لضيفها . وللمرة الأولى استطاع السيد ساترثوايت دراسة مظهرها .

كان تأثيرها الأول عليه هو أنها جعلته يشعر بأنه أكبر سنًا وأكثر شيخوخة بسبب شخصيتها القوية . كانت امرأة طويلة أصابتها الشمس باسمرار شديد ، وكانت جميلة جدًا بالرغم من أنها لم تعد شابة . وحينما كانت بالغرفة بدت الشمس أنها أشرقت مرتين ، وقد تسلل شعور بالدفء والحيوية إلى السيد ساترثوايت . لقد بدا الأمر وكأنه مد يديه النحيفتين والمرتعشتين نحو بريق من

الأمل . فكر بينه وبين نفسه : " إنها مليئة بالحيوية ، ويوجد لديها فائض يمكنها أن تغدق به الآخرين " .

تذكر النبرة الآمرة فى صوتها حينما أوقفته ، وتمنى لو كان بإمكان محظيته أولجا أن تتمتع بقليل من هذه القوة . فكر فى قرارة نفسه : " يمكنها أن تشدو آيسوليد بشكل رائع حقًا ! ولكنها على الأرجح لا تمتلك الصوت الذى يؤهلها لذلك . إن الحياة تقسم الأدوار بين الناس بطريقة غريبة " . وقد كان خائفًا منها بعض الشيء ، إنه لم يكن يحب النساء قويات الشخصية .

كانت تتأمله بوضوح بينما كانت جالسة وذقنها بين يديها دون أن تحاول إخفاء ذلك . فى النهاية أومأت وكأنها توصلت لقرار .

قالت فى النهاية : " إننى سعيدة لأنك أتيت . لقد كنت بحاجة ماسة لأن أتحدث مع أحد فى ظهيرة هذا اليوم . وأنت معتاد على هذا ، أليس كذلك ؟ " .

" أنا لا أفهمك " .

" أعنى أن الناس يخبرونك بأسرارهم . أنت تعلم ماذا أعنى ! لماذا تتظاهر بغير ذلك ؟ " .

" حسنًا - ربما — " .

واصلت حديثها غير مكترثة بما قاله :

" يمكن للمرء أن يقول أى شيء لك . هذا لأنك نصف امرأة . أنت تعلم بماذا نشعر - بماذا نفكر - والأشياء الغريبة التى نقوم بها " .

سكتت عن الكلام . جلبت الشاى فتاة أسبانية ضخمة مبتسمة . لقد كان شايًا جيدًا - ارتشفه السيد ساترثوايت فى تقدير .

استفسر قائلاً : " أنت تعيشين هنا ؟ " .

" نعم " .

" لكن ليس دومًا . فالمنزل عادة ما يكون مغلقًا ، أليس كذلك ؟ على الأقل هكذا سمعت ! " .

" أنا هنا منذ زمن طويل ، أطول مما يظن أى شخص . لكننى أستخدم هذه الغرف فقط " .

" هل تملكين هذا المنزل منذ فترة طويلة ؟ " .

" أنا أملكه منذ اثنين وعشرين عامًا ، وقد عشت هنا قبل ذلك بعام " .

قال السيد ساترثوايت تلقائيًا (أو هكذا شعر) : " يا لها من فترة طويلة " .

" العام ؟ أم الاثنين والعشرين عامًا ؟ " .

زاد فضوله وقال بجدية : " ذلك حسب رؤيتك " .

أومأت ، قائلة :

" نعم ، حسب رؤيتى . إنهما فترتان منفصلتان . ولا علاقة لواحدة منهما بالأخرى . أيتهما أطول ؟ أيتهما أقصر ؟ حتى الآن ، لا أعرف الإجابة " .

ظلت صامتة لدقيقة تفكر . ثم قالت وهى تبتسم :

" لقد مر وقت طويل قبل أن أتحدث إلى أى شخص - وقت طويل للغاية ! أنا لا أعتذر . لقد أتيت إلى نافذتى .

وهذا هو ما تفعله دومًا ، أليس كذلك ؟ تفتح النافذة وتنظر عبرها إلى حقيقة حياة الآخرين . وذلك إذا سمحوا لك ، وفى معظم الأحوال لا يسمحون لك ! سوف يكون صعبًا أن أخفى شيئًا عليك . فأنت سوف تخمن ، وسوف تنجح فى التخمين " .

راود السيد ساترثوايت شعور غريب استحثه على تحرى الصدق .

قال : " أنا فى التاسعة والستين . وكل شىء أعرفه عن الحياة اكتسبته عن طريق الخبرة . فى بعض الأحيان كانت تتسم هذه الخبرات بالقسوة . ومع ذلك وبسببها فأنا أعرف الكثير " .

أومأت وهى تفكر .

قالت : " أعلم . فالحياة غريبة حقًا . أنا لا يمكننى أن أتخيل كيف يكون الأمر عندما يعيش المرء كمتفرج فقط " .

كان صوتها حائرًا . ابتسم السيد ساترثوايت . قائلاً :

" لا ، ليس بإمكانك معرفة ذلك . فمكانك فى منتصف المسرح . فأنت سوف تكونين ، دومًا ، البريمادونا " .

" يا له من تعبير مثير " .

" ولكننى محق . لقد مررت بكثير من الظروف ، وسوف تمرين بظروف أخرى . وأحيانًا كانت هذه الظروف مأساوية . أليس كذلك ؟ " .

ضاقت عيناها . نظرت إليه مباشرة ، وقالت :

" إن كنت قد أمضيت هنا وقتًا طويلاً بما فيه الكفاية فلابد أن تكون قد سمعت عن السباح الإنجليزى الذى غرق أسفل هذا الجرف . سوف يخبرونك كم كان وسيمًا وقويًا ، وسوف يخبرونك كيف أن زوجته الشابة كان تقف أعلى الجرف وشاهدته وهو يغرق " .

" نعم ، لقد سمعت عن هذا الأمر " .

" هذا الرجل كان زوجى . وكانت تلك هى الفيلا الخاصة به . وقد أحضرنى معه إلى هنا حينما كنت فى الثامنة عشر ، وبعد عام توفى ـ فقد ألقت الأمواج به على الصخر الأسود الذى مزق جسمه وشوهه ، وضربه بقوة حتى لقى حتفه " .

شعر السيد ساترثوايت بالصدمة . اتكأت للأمام وحدقت فيه بعينيها الحمراواتين .

" إنك تتحدث عن المآسى . هل يمكنك أن تتخيل مأساة أبشع من هذه ؟ أن تقف زوجة شابة ، مضى على زواجها عام واحد ، قليلة الحيلة وهى ترى الرجل الذى أحبته يصارع للنجاة بحياته ، ثم يفقدها ببشاعة " .

قال السيد ساترثوايت : " شىء مريع " . كان يتحدث بعاطفة حقيقية وقد أضاف : " شىء رهيب . أنا أتفق معك أنه لا يمكن أن يكون هناك ما هو أبشع من ذلك " .

ضحكت فجأة وعادت برأسها للوراء .

قالت : " أنت مخطئ . إن هناك شيئًا أكثر بشاعة . وهو أن تقف زوجة شابة هناك وتتمنى أن يغرق زوجها ... " .

صاح السيد ساترثوايت : " يا إلهى ، إنك لا تعنين ـــ ؟ " .

" نعم ، أعنى ذلك . هذا هو ما حدث . لقد جثوت على ركبتىّ هناك ، جثوت على ركبتىّ على الجرف ودعوت الله . لقد ظن الخدم الأسبان أننى أدعو الله كى ينجيه ، ولكننى كنت أدعو الله أن يغرقه . لقد كنت أردد عبارة واحدة مرارًا وتكرارًا : " ساعدنى يا إلهى كى لا أتمنى موته . ساعدنى يا إلهى كى لا أتمنى موته " . ولكن لم يجد هذا نفعًا . فكلما تمنيت تحولت أمانىّ إلى حقيقة " .

ظلت صامتة لبرهة أو اثنتين ، ثم قالت برقة شديدة وبنبرة صوت مختلفة تمامًا :

" إن هذا بشع حقًا ، أليس كذلك ؟ إنه أحد الأمور التى لا يستطيع المرء نسيانها . لقد كنت سعيدة للغاية حينما عرفت أنه مات بالفعل ولا يمكن العودة لتعذيبى مرة أخرى " .

قال السيد ساترثوايت فى صدمة : " يا لك من مسكينة " .

" أعلم . لقد كنت صغيرة للغاية كى يحدث كل هذا لى . لابد أن تحدث هذه الأمور للمرء حينما يكون أكبر

سنًا ـ حينما يكون أكثر استعدادًا للـ ـ للقسوة . لا أحد كان يعلم حقيقة أمره . لقد اعتقدت أنه إنسان رائع حقًا حينما التقيته للمرة الأولى ، وكنت سعيدة وفخورة للغاية حينما طلبنى للزواج . ولكن ساءت الأمور على الفور تقريبًا . كان غاضبًا منى طوال الوقت ـ لم يكن فى وسعى القيام بشىء لإرضائه ـ ومع ذلك فقد حاولت جاهدة . وبعد ذلك بدأ يؤذينى ، وفوق كل شىء كان يخيفنى . كان هذا هو أكثر شىء يشعره بالمتعة ـ لقد كان يقوم بجميع الأمور البشعة والرهيبة . وأنا لن أرويها عليك . أعتقد حقًا أنه كان معتوها قليلاً . كنت وحدى هنا تحت سلطته ، وبدأت أصبح هوايته وتسليته " . اتسعت عيناها واسودت ، وواصلت : " أسوأ ما فى الأمر هو طفلى . كنت سأنجب طفلاً . لكن بسبب بعض الأشياء التى فعلها بى ولد هذا الطفل ميتًا . طفلى المسكين . لقد كنت على وشك الموت أيضًا ولكننى لم أمت . أتمنى لو كنت قد مت " .

تمتم السيد ساترثوايت بصوت غير واضح .

" وبعد ذلك ولدت من جديد بالطريقة التى حدثتك عنها . بعض الفتيات اللاتى كن يقمن بالفندق قمن بتحديه . هكذا بدأ الأمر . وجميع الأسبان أخبروه أنه من الجنون السباحة فى هذا المكان . ولكن كان مغرورًا ـ أراد أن يستعرض قدراته . وأنا ، أنا رأيته وهو يغرق ـ وكنت

سعيدة للغاية . إن الله لا يسمح للظالمين بالنجاة بأفعالهم " .

مد السيد ساترثوايت يده الصغيرة الجافة وأمسك بيدها . ضغط عليها بقوة وكأنها طفلة صغيرة . لقد اختفى النضج من وجهها . وقد استطاع دون صعوبة أن يراها وهى فى التاسعة عشر .

" فى البداية بدا الأمر رائعًا لدرجة تجعل من الصعب تصديقه . فقد أصبح المنزل ملكى وكان بإمكانى العيش فيه ، ولم يعد أحد يتسبب فى إيذائى بعد الآن ! كنت يتيمة ، ولم يكن لى أقرباء أو أى أحد يهتم بما حدث لى . وقد أدى ذلك إلى تبسيط الأمور . نعم وكأننى أصبحت أعيش فى الجنة . شعرت بسعادة غامرة لم أشعر بها قبل ذلك ولا حتى بعد ذلك . فمن الرائع حقًا أن يستيقظ المرء ليجد أن كل شىء على ما يرام ـ لا ألم ، لا خوف ، لا تفكير فيما سيحدث لى بعد ذلك . نعم ، لقد كانت الجنة " .

سكتت فترة طويلة ، وقال السيد ساترثوايت أخيرًا :

" وبعد ذلك ؟ " .

" أعتقد أن بنى البشر لا يشعرون بالرضا قط ، فكونى حرة فقط ، فى البداية ، كان كافيًا . ولكن بعد مضى فترة من الوقت بدأت أشعر بالوحدة . بدأت أفكر فى طفلى الذى مات . لو كان فقط لدىّ طفل ! لقد أردت طفلاً بشدة وكأنه شىء كنت أريد اللعب به . لقد أردت شيئًا أو

شخصًا ألعب معه . بدا ذلك الأمر سخيفًا وطفوليًا ، ولكن كان ذلك هو ما أردته ".

قال السيد ساترثوايت : " أتفهَّمُ ذلك " .

" من الصعب أن أقص عليك ما حدث فيما بعد . ولكنه حدث على أية حال . كان هناك شاب إنجليزى يقيم فى الفندق . وقد ضل طريقه ذات مرة فى الحديقة . كنت أرتدى ثوبًا أسبانيًا ، وقد اعتقد أننى أسبانية . وقد اعتقدت أنه يمكننى أن أحظى ببعض المرح إن تظاهرت بأنى أسبانية . وقد كانت لغته الأسبانية سيئة حقًا ولكنه كان يستطيع التحدث إلىّ قليلاً بها . وقد أخبرته أن الفيلا ملك سيدة إنجليزية وأنها ليست مقيمة بها حاليًا . أخبرته أنها علمتنى بعض الإنجليزية وتظاهرت بأننى أتحدث الإنجليزية قليلاً . كان الأمر ممتعًا حقًا ـ فإلى الآن أستطيع أن أتذكر قدر المتعة التى حظيت بها . وقد بدأ يتودد إلىّ . اتفقنا أن نتظاهر بأن الفيلا ملكنا وأننا تزوجنا لتونا وأتينا للعيش هنا . وقد اقترحت عليه تجربة إحدى النوافذ ـ تلك التى دفعتها أنت هذا المساء . كانت مفتوحة وكانت الغرفة بالداخل مليئة بالغبار وغير مهندمة . زحفنا للداخل . كان الأمر ممتعًا ورائعًا . لقد تظاهرنا بأنه منزلنا ".

سكتت فجأة ونظرت بإعجاب إلى السيد ساترثوايت ، وأردفت :

" بدا الأمر رائعًا ـ مثل الحكايات الخرافية وكان أكثر ما راق لى أنه لم يكن حقيقيًا ".

أومأ السيد ساترثوايت . لقد كان يراها بشكل أوضح مما كانت ترى نفسها على الأرجح ـ تلك الفتاة الخائفة والوحيدة التى كانت ترى الأمان فى أحلام اليقظة لأنها لم تكن حقيقية .

" كان ، على ما أعتقد ، شابًا عاديًا للغاية . كان محبًا للمغامرة وكان لطيفًا حقًا . استمررنا فى التظاهر ".

سكتت ثم نظرت إلى السيد ساترثوايت ، وقالت ثانية :

" أتفهم ذلك ، لقد استمررنا فى التظاهر... "

واصلت حديثها بعد دقيقة .

" جاء مرة أخرى فى صباح اليوم التالى إلى الفيلا . وقد رأيته من نافذة حجرة نومى . وبالطبع ، لم يحلم بأننى بالداخل . فقد كان يعتقد أننى فلاحة أسبانية شابة . وقف هناك ينظر حوله . كان قد طلب منى مقابلته وقد وافقته ، ولكنى لم أعنى ذلك قط .

ظل واقفًا هناك وهو يبدو قلقًا . أعتقد أنه كان قلقًا علىّ . كان لطيفًا منه حقًا أن يشعر بالقلق علىّ . كان لطيفًا للغاية ... "

سكتت ثانية ، ثم واصلت :

" وفى اليوم التالى غادر الجزيرة . ولم أره منذ ذلك الحين .

وقد أنجبت طفلى بعدها بتسعة أشهر . كنت سعيدة للغاية طوال الوقت . فقد استطعت أن أنجب طفلاً بسهولة ودون أن أتعرض للأذى . كنت أتمنى لو أننى تذكرت سؤال هذا الشاب الإنجليزى عن اسمه الأول . فقد كنت أود أن اسمى الطفل باسمه . بدا من غير المنصف عدم القيام بذلك . لقد أعطانى الشىء الوحيد الذى أردته بشدة فى هذا العالم . وهو حتى لن يعرف مطلقًا أى شىء عنه ! ولكنى بالطبع أخبرت نفسى أنه لن ينظر للأمر بهذه الطريقة - فمعرفته به لن تسبب له على الأرجح سوى القلق والانزعاج . لقد كنت بالنسبة له بمثابة تسلية عابرة فقط ، هذا هو كل ما فى الأمر " .

سأل السيد ساترثوايت : " ماذا عن الطفل ؟ " .

" كان رائعًا - أسميته جون - رائعًا حقًا . أتمنى لو كان بإمكانك رؤيته الآن . إنه فى العشرين من عمره . وهو سوف يصبح مهندس تعدين . وقد ظل دومًا أفضل وأحب ابن فى الوجود . وقد أخبرته أن والده قد مات قبل أن يولد " .

حملق فيها السيد ساترثوايت . قصة مثيرة . ولكن بطريقة ما لم تكن قصة كاملة . فقد كان واثقًا أن هناك شيئًا آخر .

قال وهو يفكر بعمق : " إن عشرين عامًا فترة طويلة . ألم تفكرى مطلقًا فى الزواج ثانية ؟ " .

هزت رأسها . زحف لون أحمر فوق وجنتيها السمراوين .

" لقد كان الطفل كافيًا بالنسبة لك - دومًا ؟ " .

نظرت إليه . كانت عيناها أكثر رقة مما سبق له أن رآها .

قالت : " مثل هذه الأشياء الغريبة تحدث ! مثل هذه الأشياء الغريبة ... وأنت لا يمكنك تصديقها - لا ، أنا مخطئة ، إنك قد تصدقها ، ربما . أنا لم أحب والد جون ، ليس خلال الوقت الذى عرفته فيه . فأنا لم أعتقد أننى كنت أعرف معنى الحب حينها . وقد افترضت أن الطفل سيرث طباعى . ولكن هذا لم يحدث . فهو لا يشبهنى على الإطلاق ، إنه يشبه أباه . لقد بدأت أتعرف على الرجل من خلال ابنه ، ومن خلال ابنه بدأت أحبه . أنا أحبه الآن ، وسوف أحبه دومًا . قد تقول إننى خيالية وإننى رسمت لهذا الشخص صورة مثالية ، ولكن هذا ليس صحيحًا . أنا أحب هذا الرجل ، الرجل والإنسان الحقيقى . وسوف أتعرف عليه إذا قابلته غدًا - بالرغم من أنه قد مضى عشرون عامًا على آخر لقاء لنا . إن حبه قد جعلنى امرأة ثانية . أنا أحبه كما يمكن لامرأة أن تحب رجلاً طوال عشرين عامًا . وسوف أموت وأنا أحبه " .

سكتت عن الكلام فجأة ، ثم قامت بتحدى السيد ساترثوايت قائلة :

" هل تعتقد أننى مخبولة - لأننى أقول مثل هذه الأشياء ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " لا ، يا عزيزتى " . ثم أخذ يدها مرة أخرى .

" أنت تفهم ما أقوله " .

" أعتقد ذلك . ولكن هناك شيئًا آخر ، أليس كذلك ، شيئًا لم تخبرينى به ؟ " .

رفعت حاجبيها ، وقالت :

" نعم هناك شىء آخر ، وكان من الذكاء منك أن تخمن ذلك . لقد علمت على الفور أنك لست من النوع الذى يمكن للمرء إخفاء شىء عنه ، ولكننى لا أريد أن أخبرك - والسبب فى ذلك هو أنه من الأفضل لك ألا تعلم " .

نظر إليها . تلاقت عيناهما فى جدية وتحد .

قال لنفسه : " إن هذا هو الاختبار . إن كل الأدلة موجودة بين يدىّ . يجب أن أعرف ما هو هذا الشىء . إن فكرت بشكل صحيح فسوف أصل إليه " .

سادت فترة من الصمت ثم قال ببطء :

" ثمة شىء حدث " . رأى جفنيها يرتجفان قليلاً فعرف أنه يسير على الدرب الصحيح .

" ثمة شىء ما لم يكن يسير على ما يرام - فجأة - بعد كل هذه السنوات " . شعر أنه يتلمس طريقه فى الأركان المظلمة لعقلها حيث كانت تحاول إخفاء سرها عنه .

" الابن - لابد أنه شىء ما يتعلق به . فأنت لن تكترثى بأى شىء آخر " .

سمع صوت لهاثها الضعيف ، فعرف أنه قد أصاب الهدف . إنه سيقسو عليها قليلاً ، ولكن هذا ضرورى . لقد كانت إرادته ضد إرادتها . إنها تمتلك إرادة قوية ومهيمنة ، ولكنه أيضًا يمتلك إرادة قوية تحت سلوكياته الوديعة . وكان يؤازره الثقة النابعة من كونه رجلاً يفعل الشىء الصحيح . وقد شعر بالشفقة إزاء هؤلاء الرجال ممن يعملون فى مجال تعقب الجرائم وسبر أغوارها . هذا الجهد الاستقصائى للعقل ، جمع الأدلة ، التنقيب عن الحقيقة ، تلك البهجة الغامرة عندما يقترب المرء من الهدف ... وقد ساعدتها عاطفتها لحجب الحقيقة عنه . لقد شعر بصلابتها وعنادها كلما اقترب أكثر من معرفة الحقيقة .

" من الأفضل لى ألا أعلم ، أنت تقولين ذلك . الأفضل لى ؟ ولكنك لست امرأة تراعى شعور الآخرين وتهتم لأمرهم . فأنت لن تكترثى كثيرًا إن جعلت شخصًا غريبًا ما يشعر ببعض الانزعاج . ولكن الأمر يفوق ذلك ، أليس كذلك ؟ فإذا أخبرتنى ستجعلين منى شريكًا فى جريمة ما . نعم ، إن هناك جريمة ما . رائع ! وأنت لا تريدين لى الاشتراك معك فيها . أو هى فقط إحدى أنواع الجرائم . جريمة ضد نفسك " .

ثقُل جفناها رغمًا عنها وغطت عينيها ، فمال للأمام وأمسك بمعصمها .

" الأمر كذلك إذن ! أنت تفكرين فى الانتحار ".

بكت بصوت خافت .

" كيف عرفت ؟ كيف عرفت ؟ ".

" ولكن لماذا ؟ أنت لست متعبة من الحياة . فأنا لم يسبق لى أن رأيت امرأة لا يشغل بالها شىء ، وأكثر حيوية منك ".

نهضت وذهبت إلى النافذة ، وأرجعت إلى الوراء خصلة من شعرها الأسود .

" بما أنك استطعت تخمين كل هذا فسوف أخبرك بالحقيقة . ما كان ينبغى لى دعوتك إلى الدخول هذا المساء . فكان لابد لى أن أعرف أنك ستكتشف الكثير . إنك من هذا النوع من الأشخاص . أنت محق بشأن السبب . إنه الولد . إنه لا يعلم أى شىء . ولكن فى المرة الأخيرة التى جاء فيها إلى المنزل تحدث بشكل مأساوى عن صديق ما له مما جعلنى أكتشف شيئًا ما . فإن اكتشف أنه ابن غير شرعى فسوف ينفطر قلبه . إنه يعتز بذاته للغاية . وهناك هذه الفتاة . يا إلهى ! أنا لن أخوض فى التفاصيل . ولكنه سيأتى قريبًا ويريد أن يعلم كل شىء عن أبيه - إنه يريد التفاصيل . فوالدا الفتاة - وهذا طبيعى - يريدان معرفة كل شىء عنه . وحينما يكتشف الحقيقة فسوف يتركها ويعزل نفسه عن العالم

ويدمر حياته . يا إلهى ! أعلم ما سوف تقوله . إنه صغير وأحمق ولا يجب عليه التعامل مع الأمور بهذه الطريقة ! كل ذلك صحيح ، ربما ، ولكن هل يهم حقًا كيف ينبغى أن يفكر الآخرون ؟ إنهم سيظلون كما هم . سوف يفطر هذا الأمر قلبه ... ولكن إن وقع حادث - قبل أن يأتى - فسوف ينسى أمر والده ولن يشغله شىء سوى الشعور بالحزن علىّ . سوف يقرأ أوراقى ولا يجد شيئًا ، وسوف يشعر بالضيق لأننى لم أخبره سوى بالقليل . ولكنه لن يشك فى الحقيقة . إن ذلك هو الحل الأمثل . فلابد على المرء أن يدفع ثمن السعادة ، وأنا حظيت بكثير من السعادة . وفى الواقع سيكون الثمن سهلاً أيضًا . فقط بعض الشجاعة - للقفز - وربما دقيقة من الشعور بالحزن ".

" ولكن يا عزيزتى — ".

استشاطت غضبًا وقالت : " لا تجادلنى . أنا لن أنصت لجدالات تقليدية . إن حياتى ملكى وحدى . حتى الآن كانت مهمة من أجل جون . ولكنه لا يحتاجها بعد الآن . إنه يريد زوجة - شريكة حياة - وسوف يلجأ إليها أكثر ، لأننى لن أكون متواجدة من أجله . إن حياتى عديمة القيمة ، ولكن موتى سيكون ذا نفع . وأنا أملك الحق فى التصرف كيف أشاء فى حياتى ".

" هل أنت متأكدة ؟ ".

وقد أدهشتها صرامة صوته . تمتمت بصوت خافت :

" إن لم تكن حياتى مفيدة لأى أحد ـ وأنا أفضل من يمكن أن يعرف هذا ـــ "

قاطعها مرة أخرى :

" ليس بالضرورة ".

" ماذا تعنى ؟ ".

" اسمعى . سوف أعرض عليك أمرًا ما . هناك رجل يأتى إلى مكان معين كى ينتحر . ولكنه بالمصادفة يجد رجلاً آخر هناك ، لذا فإنه يفشل فى القيام بما أراده ويذهب مبتعدًا ـ كى يعيش . لقد أنقذ الرجل الثانى حياة هذا الرجل ليس لأنه يلعب دورًا مهمًا وبارزًا فى حياته ، ولكن بسبب حقيقة تواجده الجسدى فى مكان معين فى وقت معين . فأنت تقتلين نفسك اليوم وربما بعد مضى خمس أو ست أو سبع سنوات من الآن يموت شخص ما أو تحدث له كارثة بسبب عدم وجودك فى مكان معين . فقد يحدث أن يهرب فرس وينطلق بسرعة كبيرة فى أحد الطرق ، ثم ينحرف جانبًا لرؤيتك أمامه مما يجعله يسحق طفلاً كان يلعب فى جانب الطريق ، وكان يمكن لهذا الطفل أن يكبر ليصبح موسيقيًا عظيمًا أو يكتشف علاجًا للسرطان ، أو دعينا نقلل عنصر الميلودراما . فهو قد يكبر فقط ليعيش حياة هانئة وسعيدة ... ".

أخذت تحملق فيه .

" إنك رجل غريب حقًا . هذه الأشياء التى تقولها ـ أنا لم أفكر فيها مطلقًا من قبل ... ".

واصل السيد ساترثوايت حديثه قائلاً : " إنك تقولين بأن حياتك ملكك . لكن هل تجرؤين تجاهل حقيقة اشتراكك فى دراما عظمى يتحكم فيها الله عز وجل ؟ إن الدور الذى عليك تمثيله ربما لن يحين حتى نهاية المسرحية ـ قد يكون غير مهم بالمرة ـ مجرد عبور المسرح ، ولكن ربما تعم الفوضى بأحداث المسرحية إن لم تقومى به . فقد ينهار الصرح بأكمله . فأنت نفسك قد لا تمثلين أهمية لأى شخص فى هذا العالم ولكن أنت كشخص فى مكان معين قد تشكلين أهمية كبيرة ".

جلست وهى لاتزال تحدق فيه .

قالت ببساطة : " ماذا تريدنى أن أفعل ".

كانت تلك هى لحظة انتصار السيد ساترثوايت . فالآن أصبح بإمكانه توجيه الأوامر .

" أريدك على الأقل أن تعدينى بشىء واحد ـــ ألا تقدمى على فعل شىء متهور طوال أربع وعشرين ساعة ! ".

ظلت صامتة لدقيقة أو اثنتين ، ثم قالت : " أعدك ".

" هناك شىء آخر ـ معروف ".

" ما هو ؟ ".

" اتركى نافذة الغرفة التى حاولت فتحها غير موصدة واسهرى هناك الليلة ".

نظرت إليه فى فضول ، ولكنها أومأت بالموافقة .

قال السيد ساترثوايت وهو مدرك لانتهاء الجزء الأكثر إثارة من المسرحية : " والآن ، لابد لى من أن أذهب . بارك الله فيك يا عزيزتى " .

غادر وهو يشعر ببعض الحرج . قابلته الفتاة الأسبانية قوية البنية فى الممر ، وفتحت له بابًا جانبيًا وهى تحدق فيه فى فضول .

كان الليل قد بدأ يرخى سدوله حينما وصل إلى الفندق . كان هناك رجل يجلس بمفرده فوق الأريكة . توجه إليه السيد ساترثوايت مباشرة . كان يشعر بالإثارة وكان قلبه ينبض بسرعة . شعر بأنه يمتلك خيوطًا مهمة بين يديه ، وأية حركة خاطئة .....

ولكنه حاول إخفاء شعوره والتحدث بشكل طبيعى إلى أنتونى كوسدن .

قال : " إنها ليلة دافئة . أنا لم أشعر بمرور الوقت وأنا أجلس هناك فوق الجرف " .

" هل كنت هناك كل هذا الوقت ؟ " .

أومأ السيد ساترثوايت . انفتح باب الفندق المتأرجح ليدخل شخص ما ، وسقط شعاع من الضوء فجأة على وجه كوسدن ليكشف عن شعور بالمعاناة .

فكر السيد ساترثوايت : " الأمر سيىء بالنسبة له أكثر مما هو سيئ بالنسبة لى . الخيال ، التأمل - بإمكانهما فعل الكثير لك . المعاناة الصامتة للحيوان - إن هذا مريع ... " .

تحدث كوسدن فجأة بصوت أجش :

" سأذهب للتمشية بعد العشاء . أنت - أنت تفهم ؟ فى المرة الثالثة سيحالفنى الحظ . بالله عليك لا تتدخل . أنا أعلم أن تدخلك سيكون من منطلق النية الحسنة وما إلى ذلك - ولكن صدقنى ، إنها لن تجدى نفعًا " .

سحب السيد ساترثوايت نفسه لأعلى .

قال : " لن أتدخل " مخفيًا بذلك هدفه الأساسى وسبب تواجده هناك .

قال كوسدن : " أعلم فيم تفكر ــ " . ولكن السيد ساترثوايت قاطعه .

قال : " لابد أن تعذرنى . ولكن هنا يكمن الفارق بينى وبينك . لا أحد يمكنه أن يعلم ما يدور فى ذهن أى شخص آخر . قد يتخيل البعض أن بمقدورهم ذلك ، ولكنهم يكونون دومًا مخطئين " .

" حسنًا ، ربما تكون محقًا " . كان كوسدن متشككًا ، وشعر بقليل من الدهشة .

قال رفيقه : " إن أفكارك هى ملك لك أنت وحدك . فليس باستطاعة أحد أن يغير أو يؤثر على الغرض الذى يقصده المرء من تفكيره . دعنا نتحدث عن موضوع أقل إيلامًا . الفيلا القديمة على سبيل المثال ؛ إنها تتميز بسحر مثير ، كما أنها معزولة عن العالم ، والله وحده يعلم ما اللغز وراءها . وقد أغوتنى للإقدام على عمل جرئ . لقد دفعت إحدى النوافذ " .

أدار كوسدن رأسه بحدة ، وقال : " حقًا ؟ ولكنها كانت مغلقة بالطبع ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " لا ، لقد كانت مفتوحة " . أضاف برفق : " النافذة الثالثة من النهاية " .

أصيب كوسدن بالذهول وقال : " ماذا ؟ إنها هى نفس النافذة ــ "

سكت فجأة ، ولكن السيد ساترثوايت كان قد رأى البريق الذى لمع فى عينيه . نهض وهو يشعر بالرضا .

كان لا يزال يشعر ببعض القلق . فبعد استخدامه للأسلوب الدرامى الذى يفضله تمنى لو أنه قد أدى دوره بالشكل الصحيح واستخدم الكلمات المناسبة ، حيث إنها على قدر كبير من الأهمية .

ولكن بعد إعادة التفكير فيما قاله ، كان راضيًا عن أدائه الفنى . ففى أثناء تسلقه الجرف سوف يحاول كوسدن دفع هذه النافذة . فالمقاومة ليست من سمات الطبيعة البشرية . إن ذكرى عمرها عشرين عامًا أتت به إلى هنا ، ونفس هذه الذكرى سوف تأخذه إلى النافذة . وبعد ذلك ؟

قال : " سوف أعرف غدًا " ، ثم ذهب ليتناول عشاءه .

كان ذلك فى العاشرة تقريبًا حينما ذهب السيد ساترثوايت مرة أخرى إلى حديقة لاباز . قال له مانويل : " صباح الخير " ، وأعطاه وردة ليضعها فى عروة

سترته ، فأخذها ووضعها هناك على الفور . وبعد ذلك اتجه صوب المنزل . وقف هناك بضع دقائق ينظر إلى الأعلى ناحية الجدران البيضاء والنباتات المعترشة المتسلقة البرتقالية ، والنوافذ الخضراء الباهتة . كان يسود المكان الهدوء والسلام . هل الأمر برمته كان مجرد حلم ؟

ولكن فى هذه اللحظة فتحت إحدى النوافذ وخرجت السيدة التى كانت تشغل تفكير السيد ساترثوايت . جاءته مباشرة وهى تمشى فى ابتهاج ومرح . كانت عيناها تبرقان وتبدو مشرقة . لم يبد عليها أى تردد أو شكوك أو مخاوف . اتجهت مباشرة نحو السيد ساترثوايت وعانقته وقبلته . كان يشعر بأنه فى الجنة ، وأنه محاط بأشعة الشمس وتغريد الطيور . كان يشعر بالدفء والبهجة والنشاط .

قالت : " أنا سعيدة للغاية . يا عزيزى ! كيف عرفت ؟ كيف استطعت أن تعرف ؟ إنك مثل الساحر الطيب فى الحكايات الخيالية " .

ثم توقفت عن الكلام ، حيث جعلتها السعادة عاجزة عن الكلام .

" إننا ذاهبان لنتزوج اليوم . وحينما يأتى جون فإن والده سيكون هنا . سوف نخبره أن بعض سوء الفهم حدث فى الماضى . إنه لن يطرح أية أسئلة . أنا سعيدة للغاية . سعيدة للغاية " .

وكانت السعادة تتدفق بالفعل من داخلها كالأمواج ـ وقد التفت حول السيد ساترثوايت لتشعره بالبهجة والدفء .

" كانت مفاجأة مذهلة لأنتونى ليعرف أن لديه ابنًا . لم يخطر ببالى قط أنه سيكترث لذلك " . نظرت بثقة فى عينى السيد ساترثوايت . وأكملت : " أليس من الغريب أن تنتهى الأمور على ما يرام بهذه الطريقة ؟ " .

أصبح يراها بوضوح الآن . طفلة ـ لازالت طفلة ـ تحب الحكايات الخيالية التى تنتهى نهاية سعيدة بشخصين *" يعيشان فى سعادة معًا للأبد "* .

قال برقة :

" إن استطعت أن تسعدى هذا الرجل فى هذه الشهور الأخيرة فستكونين قد قمت بالفعل بشىء جميل حقًا " .

اتسعت عيناها فى دهشة .

وقالت : " لا ! هل تعتقد أننى سأدعه يموت ؟ بعد كل هذه السنوات ـ وبعد عودته لى . أنا أعرف العديد من الأشخاص الذين استسلم أطباؤهم ولا يزالون يعيشون حتى اليوم ؟ يموت ؟ بالطبع هو لن يموت ! " .

نظر إليها ـ إلى قوتها ، وجمالها ، وحيويتها ـ إلى إرادتها وشجاعتها . هو أيضًا كان يعرف أن الأطباء يخطئون ... العنصر البشرى ـ إنك لا يمكنك الاعتماد عليه .

قالت ثانية بنبرة يشوبها الازدراء والبهجة :

" هل تعتقد أننى سأدعه يموت ؟ " .

قال السيد ساترثوايت فى النهاية برقة شديدة : " لا . بطريقة ما يا عزيزتى ، لا أعتقد أنك ... " .

وبعد ذلك سار فى ممشى السرو إلى المقعد المطل على البحر ، وهناك وجد الشخص الذى كان يتوقعه . نهض السيد كوين وقام بتحيته ـ وكان كعهده دومًا أسمر البشرة ، وساخرا ، ومبتسمًا ، وحزينًا .

سأل : " لقد كنت تتوقع مجيئى ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " نعم ، كنت أتوقع حضورك " .

جلسا معًا فوق المقعد .

قال السيد كوين : " يساورنى شعور بأنك كنت تمارس هوايتك المفضلة ، فذلك يبدو واضحًا عليك " .

نظر إليه السيد ساترثوايت فى عتاب :

" كما لو أنك لا تعلم عن الأمر شيئًا " .

قال السيد كوين ، وهو يبتسم : " إنك دومًا تتهمنى بأنى أعرف كل شىء " .

سأله السيد ساترثوايت : " إن كنت لا تعلم شيئًا ، لماذا كنت هنا فى الليلة قبل الماضية ـ تنتظر ؟ " .

" نعم ، ذلك ـــ ؟ " .

" نعم ، ذلك " .

" كان لدىّ تفويض أقوم به " .

" ممن ؟ " .



" لقد أطلقت عليَّ ذات مرة لقب المدافع عن الأموات " .

قال السيد ساترثوايت وهو مرتبك قليلاً : " الأموات ؟ أنا لا أفهم " .

أشار السيد كوين بإصبعه إلى الأعماق الزرقاء بالأسفل ، وقال :

" لقد غرق رجل هنا منذ اثنين وعشرين عامًا " .

" أعرف ـ ولكنى لا أفهم ــ "

" لنفترض أن هذا الرجل كان يحب زوجته الشابة . والحب بمقدوره تحويل الرجال إلى شياطين ، كما يمكن تحويلهم إلى ملائكة . كانت تحبه بطريقة طفولية ولكنه لم يستطع قط لمس الجانب الأنثوى بها ـ وقد جن جنونه لذلك . لقد عذبها لأنه كان يحبها . مثل هذه الأمور تحدث . أنت تعلم هذا مثلما أعلمه أنا " .

اعترف السيد ساترثوايت قائلاً : " نعم ، لقد رأيت مثل تلك الأمور ولكنها نادرة ، نادرة للغاية ... "

" ولكنك كثيرًا ما رأيت شيئًا يسمى الندم ـ الرغبة فى إصلاح ما حدث ، مهما كلف الأمر " .

" نعم ، ولكن الموت جاء سريعًا ... "

كانت هناك نبرة ازدراء فى صوت السيد كوين :

" الموت ! أنت تؤمن بالحياة بعد الموت ، أليس كذلك ؟ ومن أنت لتجزم أنه ليس فى الاستطاعة تنفيذ نفس

الأمنيات والرغبات فى العالم الآخر ؟ فإن كانت الرغبة قوية بما فيه الكفاية ـ يمكن إيجاد رسول " .

اختفى صدى صوته تدريجيًا .

نهض السيد ساترثوايت وهو يرتعد قليلاً .

قال : " لابد أن أعود إلى الفندق . إن كنت ستمضى فى هذا الاتجاه " .

ولكن السيد كوين هز رأسه .

قال : " لا ، سوف أعود من حيث أتيت " .

نظر السيد ساترثوايت من فوق كتفه ليرى صديقه يسير ناحية حافة الجرف .

الفصل ٧

صوت فى الظلام

١

قالت الليدى سترانلى : " أنا قلقة بعض الشيء على مارجرى " .

أضافت : " ابنتى مارجرى " .

تنهدت وهى مستغرقة فى التفكير :

" إن المرء يشعر بأنه عجوز للغاية حينما يكون له ابنة راشدة " .

قال السيد ساترثوايت ، الذى كان هو الطرف الآخر فى هذا الحوار .

قال وهو ينحنى قليلاً : " لا يمكن أن يصدق أحد أن لك ابنة راشدة " .

قالت السيدة سترانلى : " لقد جعلتنى أشعر بالإطراء " ، ولكنها قالتها بشكل غامض وكان واضحًا أن عقلها كان مشغولاً بشىء ما .

نظر السيد ساترثوايت إلى السيدة النحيفة ذات الملابس البيضاء فى إعجاب . كانت أشعة الشمس تملأ المكان ، وبالرغم من ذلك كانت الليدى سترانلى تبدو جميلة . فعند النظر إليها من بعيد سوف تعتقد أنها مازالت شابة . فكانت تجعل المرء يتساءل إن كانت امرأة ناضجة أم لا . لكن السيد ساترثوايت الذى كان يعرف كل شىء كان يعلم أنه من المحتمل أن يكون لليدى سترانلى أحفاد راشدون . لقد كانت تمثل انتصار الفن على الطبيعة . كان قوامها رائعًا ، وكانت بشرتها رائعة . وقد ارتادت الكثير من بيوت الجمال ، وكانت النتائج بدون شك رائعة .

أشعلت الليدى سترانلى سيجارة ووضعت ساقها المكسوة بجورب حريرى فوق الأخرى وقالت : " أنا حقًا قلقة على مارجرى " .

قال السيد ساترثوايت : " ما الأمر يا عزيزتى ؟ " .

نظرت إليه الليدى سترانلى بعينيها الزرقاوين الجميلتين .

قالت : " إنك لم ترها من قبل ، أليس كذلك ؟ إنها ابنة تشارلز " .

إن أراد أحد تعريف هوايات الليدى سترانلى فيمكن تلخيصها فى كلمة واحدة : *الزواج* . فقد مضت خلال الحياة وهى تتنقل من زوج لآخر . وكانت قد انفصلت عن ثلاثة رجال بالطلاق ، ومات أحد أزواجها .

قالت الليدى سترانلى : " لو كانت ابنة رودولف لأصبح ذلك أكثر منطقية ولعذرتها . هل تذكر رودولف ؟ كان دومًا متقلب المزاج . فبعد ستة أشهر من زواجنا كان علىّ التكيف مع تلك الأمور الغريبة - ماذا يطلقون عليها ؟ تلك المشكلات الزوجية ، أنت تعلم ماذا أعنى . وأحمد الله أن الأمور أصبحت أبسط كثيرًا الآن . أنا أتذكر أنه كان علىّ أن أكتب له خطابًا سخيفًا للغاية - أملانى كلماته المحامى الخاص بى . أن أطلب منه العودة وأننى سوف أفعل ما بوسعى ، إلخ ، إلخ ، ولكن لا يمكن لأحد قط أن يعتمد على رودولف ، فهو متقلب للغاية . وقد عاد للمنزل على الفور ، وهو التصرف الذى كان خاطئًا للغاية ، والذى لم يكن يريده المحامون " .

تنهدت .

قال السيد ساترثوايت ، محاولاً جعلها تواصل حديثها عن الموضوع محل النقاش : " ماذا عن مارجرى ؟ " .

" بالطبع ، لقد كنت على وشك أن أخبرك ، أليس كذلك ؟ إن مارجرى ترى أو تسمع أشياء . أشباح . وما إلى ذلك . لم أكن أتخيل أن تكون مارجرى خيالية إلى هذه الدرجة . إنها فتاة صالحة ، كانت دومًا كذلك ، ولكنها منعزلة - وكسولة " .

قال السيد ساترثوايت محاولاً أن يكون مجاملاً : " مستحيل " .

قالت الليدى سترانلى : " فى الواقع ، إنها كسولة للغاية . لا تهتم بالرقص أو بحفلات الكوكتيل ، أو بأى شىء آخر يجب أن تهتم به فتاة فى عمرها . إنها تفضل ، أكثر ، البقاء فى المنزل ، والذهاب للصيد عن الحضور معى إلى هنا " .

قال السيد ساترثوايت : " يا إلهى . أترفض الحضور معك ؟ " .

" حسنًا ، أنا لا أضغط عليها كثيرًا . فالفتيات يكن ذوات تأثير محبط على أمهاتهن ، كما اكتشفت " .

حاول السيد ساترثوايت التفكير فى الليدى سترانلى وهى بصحبة ابنة جادة ، ولكنه فشل .

واصلت والدة مارجرى حديثها بصوت مرح : " لا أستطيع أن أكف عن التفكير فى أن مارجرى سوف تفقد عقلها . فسماع أصوات هو مؤشر سيئ للغاية ، هكذا قالوا لى . وأنا لا أعتقد أن منزل أبوت ميد مسكون بالأشباح . فالمبنى القديم قد احترق حتى تساوى بالأرض فى عام ١٨٣٦ ، وأسسوا مكانه قصرًا على الطراز الفيكتورى ، لا يمكن أن يكون مسكونًا بالأشباح . فهو قبيح للغاية ومبتذل " .

سعل السيد ساترثوايت ، وتساءل لماذا تخبره بهذه الأمور .

قالت الليدى سترانلى وهى تبتسم له : " وقد فكرت أنه ربما قد يكون فى إمكانك مساعدتى " .

" أنا ؟ " .

" نعم ، إنك ستعود إلى إنجلترا غدًا ، أليس كذلك ؟ " .

اعترف السيد ساترثوايت فى فضول : " نعم هذا صحيح " .

" وأنت تعرف جميع هؤلاء الأطباء النفسيين . بالطبع تعرفهم ، فأنت تعرف كل الناس " .

ابتسم السيد ساترثوايت قليلاً . لقد كانت إحدى نقاط ضعفه هى معرفته بكل الناس .

قالت الليدى سترانلى : " إذن سيكون الأمر سهلاً بالنسبة لك . أنا لا أندمج مطلقًا مع مثل هؤلاء الأشخاص . أنت تعرفهم ، هؤلاء ذوى اللحى ، وممن يرتدون النظارات . إنهم يشعروننى بالملل وأنا لا أستطيع التعامل معهم " .

شعر السيد ساترثوايت بالدهشة ، وواصلت الليدى سترانلى التبسم له .

قالت ببهجة : " إذن ، هل اتفقنا ؟ سوف تذهب إلى أبوت ميد وتقابل مارجرى ، وتقوم بجميع الترتيبات الضرورية . سوف أكون ممتنة للغاية لك . بالطبع إن كانت مارجرى ستفقد عقلها *بالفعل* فسوف أذهب إليها . آه ! ها هو بيمبو " .

تحولت ابتسامتها إلى ارتباك .

كان هناك شاب يرتدى ملابس التنس البيضاء يقترب منهما . كان فى الخامسة والعشرين من عمره تقريبًا ، وكان وسيمًا للغاية .

قال الشاب ببساطة :

" لقد كنت أبحث عنك فى كل مكان يا عزيزتى " .

" كيف كانت مباراة التنس ؟ " .

" سيئة " .

نهضت الليدى ستراتلى . أدارت رأسها فوق كتفها وقالت بصوت عذب للسيد ساترثوايت : " من الرائع حقًا أن تقوم بمساعدتى . لن أنسى لك ذلك مطلقًا " .

نظر السيد ساترثوايت إليهما وهما يبتعدان .

قال لنفسه : " أتساءل عما إذا كان بيمبو سيصبح الزوج رقم خمسة " .

٢

كان بائع التذاكر بقطار دولوكس يشير للسيد ساترثوايت إلى المكان الذى وقعت فيه حادثة على الخط منذ بضع سنوات مضت . وبعد انتهائه من حديثه نظر الآخر إلى الأعلى ورأى وجهًا مألوفًا يبتسم له من فوق كتف بائع التذاكر .

قال السيد ساترثوايت : " عزيزى السيد كوين " .

ابتسم وجهه المجعد .

" يا لها من مصادفة ! أن نعود إلى إنجلترا معًا على نفس القطار . أنت عائد إلى إنجلترا على ما أعتقد " .

قال السيد كوين : " نعم . لدىَّ عمل مهم أقوم به هناك . هل ستطلب عشاء من الدرجة الأولى ؟ " .

" أنا أقوم بذلك دائمًا . بالطبع إنه وقت سخيف لتناول الطعام - الساعة السادسة والنصف ، ولكن المخاطرة ستكون أقل إذا طلبنا طعامًا مطهوًا جيدًا " .

أومأ السيد كوين .

قال : " وأنا أيضًا سأقوم بذلك . ربما علينا أن نرتب للجلوس معًا " .

فى الساعة السادسة والنصف كان السيد ساترثوايت والسيد كوين يجلسان قبالة بعضهما البعض على مائدة صغيرة فى مطعم القطار . درس السيد ساترثوايت بتأن قائمة المشروبات ، ثم نظر إلى رفيقه .

" أنا لم أرك منذ - آه ، نعم منذ أن كنا فى كورسيكا . لقد غادرت بسرعة فى هذا اليوم " .

هز السيد كوين كتفيه فى لامبالاة .

" إن ذلك هو عادتى . فأنا آتى وأذهب كما تعلم . آتى وأذهب " .

بدا أن الكلمات قد أيقظت ذكرى ما فى عقل السيد ساترثوايت . ارتعد قليلاً - لم يكن ذلك شعورًا سيئًا ؛ بل على العكس ، كان مدركًا لوجود شعور مبهج بالترقب بداخله .

كان السيد كوين يمسك بزجاجة شراب ويتفحص الملصق الموجود فوقها . كانت الزجاجة توجد بينه وبين الضوء ، ولذلك ، فقد انعكس عليه بريق أحمر اللون لدقيقة أو دقيقتين .

شعر السيد ساترثوايت ، ثانية ، بتدفق فجائى للإثارة بداخله .

قال وهو يبتسم لأنه تذكر هذا الأمر : " أنا أيضًا لدىّ مهمة أقوم بها فى إنجلترا . هل تعرف الليدى سترانلى ؟ " .

هز السيد كوين رأسه .

قال السيد ساترثوايت : " إنها تنحدر من عائلة كبيرة ومن أصحاب الألقاب . فهى بارونة . وهى لها تاريخ رومانسى فى الواقع " .

اعتدل السيد كوين فى مقعده ، واتخذ وضعا مريحا أكثر . جاء النادل وهو يدفع عربة الطعام ، ووضع أطباق الحساء أمامهما . أخذ السيد كوين يرتشفها فى فضول .

قال : " أنت على وشك أن ترسم لى إحدى صورك الوصفية الرائعة . أليس كذلك ؟ " .

ابتسم السيد ساترثوايت إليه .

قال : " إنها حقًا امرأة رائعة . فى الستين من عمرها تقريبًا . نعم ، على الأقل فى الستين . كنت أعرفهما منذ أن كانتا طفلتين ، هى وأختها . بياترس ، هذا هو اسم الأخت الأكبر . بياترس وباربرا . أنا أتذكرهما كبارونتين

صغيرتين . كانتا جميلتين حقًا ، ولكن فى تلك الأيام كانتا فى فقر شديد . ولكن كان ذلك منذ سنوات بعيدة - كنت أنا نفسى مازلت شابًا " . تنهد السيد ساترثوايت ، وأكمل : " كان يحول بينهما وبين اللقب عدة أرواح . وكان ابن العم العجوز اللورد سترانلى هو أول من ابتعد عن الطريق ، على ما أعتقد . كانت حياة الليدى سترانلى رومانسية للغاية . ثلاثة أشخاص يموتون على نحو غير متوقع - اثنان من أعمامها ، وأحد أولاد عمومتها . وبعد ذلك كانت هناك حادثة " أوراليا " . هل تذكر تحطم قارب " أوراليا " ؟ لقد تحطمت عند ساحل نيوزيلندا . كانت ابنتا البارونة على متن هذه القارب . وقد غرقت بياترس . وهذه السيدة - باربرا - كانت واحدة من بين الناجين القلائل . وبعد ستة أشهر توفى سترانلى العجوز ، واستطاعت هى نيل اللقب وورثت ثروة طائلة . ومنذ ذلك الحين ظلت تعيش من أجل شىء واحد فقط - نفسها ! وهى لم تتغير مطلقًا ، فقد ظلت جميلة ، وعديمة الضمير وقاسية الفؤاد ولا تهتم سوى بنفسها . وقد تزوجت أربع مرات ، وأعتقد أن بإمكانها إيجاد زوج خامس خلال دقيقة " .

أخذ يصف المهمة التى كلفته بها الليدى سترانلى .

قال : " وقد قررت الذهاب إلى أبوت ميد لمقابلة هذه الشابة . أشعر بأنه يجب القيام بشىء ما إزاء هذا الأمر .

من المستحيل التفكير فى الليدى ستراتلى كأم عادية " . توقف عن الكلام ونظر عبر الطاولة إلى السيد كوين .

قال : " أتمنى لو كان بمقدورك الذهاب معى . هل هذا ممكن ؟ " .

قال السيد كوين : " أخشى أننى لن أستطيع . ولكن دعنى أفكر . إن أبوت ميد توجد فى ويلتشاير ، أليس كذلك ؟ " .

أومأ السيد ساترثوايت .

" سوف أقيم فى مكان ليس ببعيد عن أبوت ميد ، فى مكان نعرفه أنا وأنت جيدًا " . ابتسم ثم أضاف متسائلاً : " أتذكر النزل الصغير بيلز آند موتلى ؟ " .

صاح السيد ساترثوايت : " بالطبع . هل ستكون هناك ؟ " .

أومأ السيد كوين : " لمدة أسبوع أو عشرة أيام . ربما أطول . فإن جئت بحثًا عنى فى أحد الأيام فسأكون سعيدًا بلقائك " .

وبطريقة ما ، شعر السيد ساترثوايت بطمأنينة غريبة تتسلل إليه .

٣

قال السيد ساترثوايت : " عزيزتى مارجرى . أؤكد لك بأننى لا أسخر منك " .

قطبت مارجرى جيل جبينها قليلاً . كانا يجلسان فى ردهة كبيرة مريحة بمنزل أبوت ميد . كانت مارجرى جيل فتاة ضخمة البنية . لم تكن تشبه والدتها إطلاقًا ، ولكنها كانت تشبه عائلة والدها - والتى كانت تعد مالكة الأراضى الرئيسية بالبلدة . كانت تبدو نقية وعاقلة . ومع ذلك كان السيد ساترثوايت يفكر فيما بينه وبين نفسه كيف يكون جميع البارونات أكثر عرضة للإصابة بالاضطرابات العقلية . ربما تكون مارجرى قد ورثت صفاتها الشكلية من أبيها ، وفى نفس الوقت ورثت بعض السمات العقلية من أمها .

قالت مارجرى : " أتمنى لو أستطيع أن أتخلص من هذه المرأة التى تدعى كاسون . أنا لا أومن بما يسمى تحضير الأرواح ولا أحبه . إنها إحدى هؤلاء السيدات السخيفات المهووسات بالموت . وهى تلح علىّ دومًا لجلب وسيط روحى إلى المنزل " .

سعل السيد ساترثوايت وتململ قليلاً فى مقعده ثم قال :

" دعينى أتأكد من أننى أعرف جميع الحقائق . إن الظاهرة الأولى حدثت منذ شهرين ، أليس كذلك ؟ " .

وافقت قائلة : " نعم . فى بعض الأحيان كانت همسًا ، وفى أحيان أخرى كانت صوتًا واضحًا ، ولكنه كان يقول دومًا الشىء نفسه " .

" وما هو ؟ " .

كان يقول : " *ردى ما ليس ملكك . ردى ما قمت بسرقته* " . وفى كل مرة كنت أضىء مصباح الغرفة فلا أجد أحدًا . وفى النهاية أصبت بالتوتر حتى إننى طلبت من كلايتون - خادمة أمى - النوم على الأريكة فى غرفتى " .

" ومع ذلك لم يختف الصوت ؟ " .

" نعم لم يختف - وهذا قد أخافنى - فإن كلايتون لم تسمعه " .

ظل السيد ساترثوايت يفكر لدقيقة أو اثنتين ، ثم قال : " وهل كان عاليًا أم منخفضًا فى هذه الليلة ؟ " .

قالت مارجرى : " كان يشبه الهمس . لو كانت كلايتون مستغرقة فى النوم فأعتقد أنه ما كان فى إمكانها سماعه . لقد أرادت منى زيارة طبيب " . ثم ضحكت الفتاة فى مرارة .

قالت : " ولكن ما حدث فى الليلة الماضية جعل حتى كلايتون تؤمن بوجود شىء غريب " .

" وماذا حدث فى الليلة الماضية ؟ " .

" سوف أخبرك الآن . أنا لم أخبر أحدًا بهذا الأمر بعد . لقد ذهبت للصيد أمس ، وأمضيت وقتًا طويلاً

بالخارج . كنت متعبة جدًا ، لذا فقد نمت بعمق . وقد راودنى حلم بشع - حلمت بأننى سقطت فوق درابزين حديدى . وكان أحد المسامير الكبيرة يدخل فى حلقى ببطء . استيقظت لأجد أن الحلم حقيقة - فكانت هناك أداة حادة تكاد تنغرس فى جانب رقبتى ، وفى الوقت ذاته كان هناك صوت يهمس : " *لقد سرقت ما هو ملكى . هذا هو الموت* " .

واصلت مارجرى حديثها قائلة : " صرخت وأخذت أتشبث بيدى فى الهواء ، ولكن لم يكن هناك شىء . سمعتنى كلايتون أصرخ بينما كانت فى الغرفة المجاورة حيث كانت نائمة . جاءت مسرعة ، وفى أثناء ذلك شعرت بشىء يمر بجانبها فى الظلام ، ولكنها قالت إنه بغض النظر عن ماهية هذا الشىء ، فهو لم يكن بشريًا " .

حملق السيد ساترثوايت فيها . من الواضح أن الفتاة كانت خائفة ومنزعجة . وقد لاحظ بالجانب الأيسر من حلقها وجود شريط لاصق صغير للجروح . رأت المكان الذى يحدق فيه وأومأت .

قالت : " نعم . إنه لم يكن مجرد تخيلات كما ترى " .

طرح عليها السيد ساترثوايت سؤالاً وبدا مؤثرًا للغاية . سأل قائلاً : " ألا تعرفين أى شخص يكن لك ضغينة ما ؟ " .

قالت مارجرى : " بالطبع لا . يا لها من فكرة ! " .

بدأ السيد ساترثوايت يشن هجومًا آخر .

" من الزوار الذين أتوا إلى المنزل خلال الشهرين الماضيين ؟ " .

" إنك لا تعنى الأشخاص الذين يأتون لقضاء عطلة نهاية الأسبوع فقط ، على ما أعتقد ؟ لقد كانت مارشا كين معى طوال الوقت . إنها صديقتى المقربة وهى تعشق الخيول مثلى تمامًا . وهناك أيضًا ابن عمى رولى فافاسور ، والذى أمضى هنا وقتًا طويلاً كذلك " .

أومأ السيد ساترثوايت وطلب رؤية الخادمة كلايتون .

سأل : " إنها تقيم معك منذ وقت طويل على ما أعتقد ؟ " .

قالت مارجرى : " منذ زمن بعيد للغاية . فقد كانت خادمة أمى وخالتى بياترس حينما كانتا طفلتين . ولهذا السبب ظلت أمى محتفظة بها بالرغم من أن لديها خادمة فرنسية خاصة بها . وتقوم كلايتون بالحياكة ، وشغل نفسها بمهام صغيرة غريبة " .

أخذته إلى الطابق العلوى وأتت كلايتون إليهما . كانت امرأة طويلة ونحيفة وعجوزًا ، وذات شعر رمادى مصفف بطريقة منمقة ، وتتعامل مع الآخرين باحترام بالغ .

أجابت على استفسارات السيد ساترثوايت قائلة : " لا يا سيدى . أنا لم أسمع مطلقًا بأن المنزل مسكون بالأشباح . ولأصدقك القول ؛ لقد ظننت أن الأمر برمته

وليد خيال الآنسة مارجرى حتى الليلة الماضية . لكننى فى الواقع شعرت بشىء ينطلق ، بخفة ، بجانبى فى الظلام . وأستطيع أن أؤكد لك ، يا سيدى ، *بأنه لم يكن بشريًا* . علاوة على ذلك ، هناك هذا الجرح الموجود على رقبة الآنسة مارجرى . إنها لم تجرح نفسها ، تلك الفتاة المسكينة " .

ولكن كلماتها كانت موحية للسيد ساترثوايت . هل يمكن أن تكون مارجريت قد قامت بجرح نفسها ؟ فقد سمع حكايات غريبة عن فتيات كن فى مثل عقلانية واتزان مارجرى ، ومع ذلك قمن بأشياء عجيبة ومذهلة حقا .

قالت كلايتون : " سرعان ما سوف تبرأ . إنها ليست مثل هذه الندبة التى لدىّ " .

وأشارت إلى علامة موجودة على جبهتها .

" لقد أصبت بهذا الجرح منذ أربعين عامًا يا سيدى ولايزال هناك أثر له " .

قالت مارجرى : " كان ذلك حينما غرقت سفينة " أوراليا " . فقد اصطدمت رأس كلايتون بالصارى ، أليس كذلك يا كلايتون ؟ " .

" نعم يا آنستى " .

سأل السيد ساترثوايت : " ماذا حدث فى اعتقادك أنت يا كلايتون ، فى رأيك ماذا يعنى هذا الهجوم الذى تعرضت له الآنسة مارجرى ؟ " .

" لا أحب حقًا التعبير عن رأيى حيال هذا الأمر يا سيدى " .

فسر السيد ساترثوايت هذا الرد بوصفه التحفظ المعتاد لخادم تم تدريبه جيدًا .

قال بنبرة إقناع : " ما هو رأيك حقًا يا كلايتون ؟ " .

" أعتقد يا سيدى أن شيئًا بغيضًا حقًا لابد أن يكون قد حدث فى هذا المنزل ، وإلى أن يتم التخلص من هذا الشر فلن ننعم بأى سلام " .

كانت السيدة تتحدث بوقار ، وكانت عيناها الزرقاوان تلاقى عينيه بثبات .

هبط السيد ساترثوايت وهو يشعر بالإحباط . فكان من الواضح أن كلايتون تتبنى الرأى القائل بأن المنزل " مسكون بالأشباح " نتيجة لحدوث فعل شرير فى الماضى . ولكن السيد ساترثوايت لم يكن مقتنعًا تمامًا بهذا . فتلك الظاهرة لم تحدث سوى من شهرين فقط . إنها لم تحدث إلا عند انتقال مارشا كين ورولى فافاسور إلى المنزل . لابد أن يكتشف أمر هذين الشخصين . فمن المحتمل أن يكون الأمر برمته مجرد مزحة . ولكنه هز رأسه وهو غير شاعر بالرضا عن هذا الحل . إن ما يحدث كان أكثر شؤمًا من هذا . وصل البريد لتوه ، وأخذت مارجرى تفتح خطاباتها وتقرأها . وفجأة عبرت عن دهشتها .

قالت : " إن أمى سخيفة للغاية . اقرأ هذا الخطاب " . ثم أعطت الخطاب للسيد ساترثوايت .

كان خطابًا أنيقًا من النوعية التى اعتادت الليدى سترانلى كتابتها .

(كتبت قائلة) : " عزيزتى مارجرى :

أنا سعيدة للغاية لوجود السيد ساترثوايت اللطيف معك . إنه بارع للغاية ويعرف كل الأشخاص الذين لهم باع فى التعامل مع الأشباح . لابد أن تأتى بهم جميعا إلى المنزل وتدعيهم يجرون أبحاثًا شاملة . أنا واثقة من أنك ستحظين بوقت رائع ، وأتمنى أن لو كان باستطاعتى أن آتى ، ولكننى كنت مريضة للغاية فى الأيام القليلة الماضية . إن الفنادق لا تكترث تمامًا لنوعية الطعام الذى تقدمه لنزلائها . لقد قال الطبيب إننى مصابة بنوع من تسمم الطعام . لقد كنت مريضة حقًا .

كم من اللطيف منك أن ترسلى لى هذه الشيكولاتة يا عزيزتى ، ولكنه أمر سخيف بعض الشىء ، أليس كذلك ؟ أعنى أنه توجد الكثير من أنواع الحلويات هنا .

إلى اللقاء ، واحظى بوقت ممتع فى مقاتلة أشباح العائلة . إن بيمبو يقول إننى أصبحت ماهرة فى لعب التنس .

مع حبى .

المخلصة

باربرا .

قالت مارجرى : " إن أمى تريد منى دومًا أن أدعوها باربرا . أمر سخيف على ما أعتقد " .

ابتسم السيد ساترثوايت قليلاً . وأدرك أن الليدى سترانلى لابد وأنها تعانى بشدة فى بعض الأحيان من تحفظ ابنتها الشديد . وقد صدمه فحوى خطابها بشدة . فى حين لم يبد أن مارجرى قد شعرت بنفس الصدمة .

سأل : " هل أرسلت لوالدتك صندوقًا من الشيكولاتة ؟ " .

هزت مارجرى رأسها قائلة : " لا ، لم أفعل . لابد أن يكون شخص آخر هو من قام بذلك " .

بدا السيد ساترثوايت منشغل التفكير . فقد أدهشه للغاية أمران ، تلقت الليدى سترانلى صندوقًا من الشيكولاتة ثم عانت من تسمم حاد . من الواضح أنها لم تربط بين هذين الأمرين . هل هناك علاقة بينهما ؟ لقد كان يعتقد بوجود علاقة .

خرجت فتاة طويلة داكنة البشرة من إحدى الغرف وانضمت إليهما .

وقد قدمتها مارجرى إلى السيد ساترثوايت . لقد كانت مارشا كين . ابتسمت إلى السيد ساترثوايت بطريقة مرحة .

سألت بصوت متشدق : " هل جئت كى تصطاد شبح الآنسة مارجرى . إننا جميعًا نقول لها إن هذا هو مجرد هراء . ها هو رولى " .

توقفت سيارة عند الباب الأمامى . خرج منها شاب طويل ، ذو شعر فاتح وسلوك صبيانى .

صاح : " مرحبًا يا مارجرى . مرحبًا يا مارشا ! لقد جلبت معى التعزيزات " . استدار ناحية السيدتين اللتين كانتا تدخلان الردهة . أدرك السيد ساترثوايت أن الأولى هى السيدة كاسون التى كانت تتحدث عنها مارجرى لتوها .

تشدقت وهى تقول مبتسمة : " لابد أن تسامحينى يا عزيزتى مارجرى . لقد قال لنا السيد فافاسور إن الأمر لا بأس به . لقد كانت فكرته هو أننى لابد أن أحضر السيدة لويد معى " .

وقد أشارت إلى رفيقتها بيدها .

قالت بنبرة تنم عن النصر : " هذه هى السيدة لويد ، إنها أمهر وسيطة روحية على وجه البسيطة " .

لم تتفوه السيدة لويد بأى شيء يوحى بالتواضع ، وقد انحنت قليلاً وذراعاها لا يزالان متشابكين أمامها . كانت شابة سوداء تبدو مألوفة . ولم تكن ملابسها مسايرة للموضة ، ولكنها كانت منمقة . كانت ترتدى قلادة من أحجار القمر ، والعديد من الخواتم .

وكما كان باستطاعة السيد ساترثوايت أن يلاحظ ، فلم تكن مارجرى جيل سعيدة بهذا التطفل . فقد رمقت رولى فافاسور بنظرة غاضبة . ولكنه بدا غير منتبه تمامًا لمشاعر الغضب التى أثارها .

قالت مارجرى : " الغداء جاهز على ما أعتقد " .

قالت السيدة كاسون : " جيد . سنعقد جلسة استحضار الأرواح بعد الغداء مباشرة . هلا جلبتِ بعض الفاكهة للسيدة لويد ؟ إنها لا تأكل قط طعامًا صلبًا قبل إحدى الجلسات " .

توجهوا جميعًا صوب غرفة تناول الطعام . تناولت الوسيطة الروحية موزتين وتفاحة ، وأخذت تجيب بحرص واختصار على أسئلة مارجرى العديدة المهذبة ، التى كانت توجهها إليها من حين لآخر . وقبل أن ينهضوا من على الطاولة أرجعت رأسها للوراء فجأة واستنشقت الهواء ، وقالت :

" ثمة ما يسوء فى هذا المنزل . أستطيع الشعور به " .

قالت السيدة كاسون بنبرة صوت خفيضة مبتهجة : " أليست رائعة ؟ " .

قال السيد ساترثوايت بجفاء : " نعم ، بدون شك " .

تم عقد جلسة استحضار الأرواح فى المكتبة . وكان بإمكان السيد ساترثوايت أن يرى بوضوح أن مضيفته ليست سعيدة بما يحدث ، ولكن بهجة ضيوفها بما يجرى جعلتها تتعامل مع الأزمة .

أعدت السيدة كاسون الترتيبات بحرص بالغ ، وقد كان من الواضح أنها معتادة على مثل هذه الأمور . فقد رصت المقاعد بشكل دائرى وأسدلت الستائر ، ثم أعلنت الوسيطة أنها مستعدة للبدء .

قالت وهى تنظر حولها فى الغرفة : " ستة أشخاص . هذا سيئ . لابد أن يكون عدد الحاضرين غير زوجى سبعة . فالعدد سبعة هو العدد المثالى . أنا أحصل على أفضل النتائج عندما تكون الدائرة مكونة من سبعة أشخاص " .

اقترح رولى قائلاً : " لنجلب أحد الخدم " ، ثم نهض وقال : " سوف أوقظ كبير الخدم " .

قالت مارجرى : " فلنأت بكلايتون ؟ " .

رأى السيد ساترثوايت نظرة انزعاج تعبر وجه رولى فافاسور الوسيم .

سأل : " ولكن ، لماذا كلايتون ؟ " .

قالت مارجرى ببطء : " أنت لا تحب كلايتون " .

هز رولى كتفيه . قال بطريقة غريبة : " إنها لا تحبنى . فى الواقع إنها تبغضنى للغاية " . انتظر دقيقة أو دقيقتين ولكن مارجرى لم تغير رأيها . قال : " حسنًا . اطلبى منها أن تأتى " .

اكتملت الدائرة .

سادت فترة من الصمت قطعتها نوبات السعال والتململات المعتادة . وبعد ذلك سمع الحاضرون صوت

طرقات متوالية ، ثم صوت الشخص الذى كان يتحدث من خلال الوسيطة ، لقد كان أحد الهنود الحمر يدعى شيروكى . قال الصوت :

" الهندى بريف يقول لكم عمتم مساء أيتها السيدات والسادة . شخص ما هنا يود التحدث بشدة . شخص ما هنا يتوق إلى إرسال رسالة للسيدة الشابة . سوف أمضى لحالى الآن . وسوف تأتى الروح لتقول ما لديها " .

مضت فترة صمت ثم تحدث صوت جديد والذى كان لامرأة ، قالت برقة :

" هل مارجرى هنا ؟ " .

تولى رولى فافاسور على عاتقه مهمة الرد .

قال : " نعم ، إنها هنا . من أنت ؟ " .

" أنا بياترس " .

" بياترس ؟ بياترس من ؟ " .

وقد شعر الجميع بالضيق حينما سمعوا صوت الهندى الأحمر شيروكى مرة أخرى .

" إن لدىّ رسالة لكم جميعًا . إن الحياة هنا جميلة وبراقة . إننا جميعًا نعمل بكد . ساعدوا هؤلاء الذين عانوا كثيرًا " .

سادت فترة صمت أخرى ، ثم عاد صوت المرأة ثانية :

" هذه هى بياترس التى تتحدث " .

" بياترس من ؟ " .

" بياترس بارون " .

مال السيد ساترثوايت للأمام . كان يشعر بإثارة بالغة .

" بياترس بارون التى غرقت فى أوراليا ؟ " .

" نعم ، هذا صحيح . أنا أتذكر أوراليا . إن لدىّ رسالة - من أجل هذا المنزل - *أعيدوا ما ليس لكم* " .

قالت مارجرى فى يأس : " أنا لا أفهم . هل أنت حقًا خالتى بياترس ؟ " .

" نعم ، أنا خالتك " .

قالت السيدة كاسون فى لوم : " بالطبع هى خالتك . كيف يمكن أن تكونى متشككة بهذه الطريقة ؟ إن الأرواح لا تحب ذلك " .

وفجأة خطر على بال السيد ساترثوايت إجراء اختبار بسيط للغاية . كان صوته يرتعد بينما يتحدث .

سأل : " هل تتذكرين السيد بوتاسيتى ؟ " .

وعلى الفور انفجرت الروح فى الضحك .

" بوتسبسيتى المسكين . بالطبع " .

صعق السيد ساترثوايت . لقد نجح الاختبار . لقد كانت حادثة مضى عليها أربعون عامًا ، وقد وقعت عندما وجد نفسه مع فتاتى عائلة بارون بنفس المنتجع . فقد ذهب أحد معارفهما الإيطاليين ليستقل مركبًا ولكنه انقلب به ، وقد أطلقت عليه بياترس بارون ، ممازحة ، اسم بوتسبسيتى . وقد بدا له أنه من المستحيل أن يكون أى أحد هنا بالغرفة على علم بهذه الواقعة فيما عداه هو .

اهتاجت الوسيطة وتأوهت .

قالت السيدة كاسون : " إنها سوف تخرج منها . هذا هو كل ما سنأخذه منها اليوم على ما أعتقد " .

دخل ضوء النهار مرة أخرى إلى الحجرة التى كانت ممتلئة بالأشخاص ، والذين كان اثنان منهما مرعوبان بشدة .

رأى السيد ساترثوايت ، من خلال وجه مارجرى الأبيض أنها كانت قلقة للغاية . وحينما تخلصوا من السيدة كاسون والوسيطة ، سعى إلى التحدث على انفراد مع مضيفته ، فقال :

" أريد أن أطرح عليك سؤالاً أو سؤالين يا آنسة مارجرى . إن وافتك أنت ووالدتك المنية فمن سيرث اللقب والأملاك ؟ " .

" رولى فافاسور على ما أعتقد . إن والدته هى ابنة عم والدتى " .

أومأ السيد ساترثوايت .

قال برقة : " يبدو أنه أتى إلى هنا كثيرًا فى هذا الشتاء . أرجو أن تسامحينى على طرح هذا السؤال - ولكنه يبدو مفتونًا بك ؟ " .

قالت مارجرى بهدوء : " لقد طلبنى للزواج منذ ثلاثة أسابيع مضت . ولكننى رفضت " .

" أرجوك سامحينى ، ولكن هل أنت مخطوبة لأى شخص آخر ؟ " .

رأى وجهها يتورد بعض الشىء .

قالت مؤكدة : " نعم . أنا سوف أتزوج من نويل بارتون . إن أمى تسخر من هذا الأمر ، وتقول إنه سخيف . فهى تعتقد أنه أمر سخيف حقًا أن تتم خطبتى إلى رجل دين . وأنا لا أعرف السبب فى هذا ! إن هناك العديد من رجال الدين فى كل مكان ! لابد أن ترى نويل وهو يمتطى الحصان " .

قال السيد ساترثوايت : " حقًا ؟ " .

دخل أحد الخدم وهو يحمل برقية فوق صينية . فتحتها مارجرى . قالت : " إن أمى ستصل غدًا . يا إلهى . كم كنت أتمنى ألا تأتى " .

لم يعلق السيد ساترثوايت على هذا الشعور العاطفى ، فقد اعتقد أنه ربما له ما يبرره . تمتم قائلاً : " فى هذه الحالة ، أعتقد أن علىّ العودة إلى لندن " .

٤

لم يكن السيد ساترثوايت راضيًا تمامًا عن نفسه . لقد شعر بأنه ترك هذه المشكلة بدون حل . نعم ، صحيح أنه بعودة الليدى سترانلى تكون مسئوليته قد انتهت إلا أنه شعر بأنه لم يسمع آخر أخبار منزل أبوت ميد .

ولكن التطور الأخير للأحداث كان خطيرًا للغاية ، بدرجة لم يكن مستعدًا لها بالمرة . وقد علم بالأمر من

خلال صفحات جريدته الصباحية . فقد نشرت جريدة ديلى ميجافون خبرًا يحمل عنوان : " بارونة تموت في حوض الاستحمام " . وكانت الجرائد الأخرى أكثر تحفظا ورقة فى اللغة التى استخدمتها ، ولكن الوقائع كانت واحدة . فقد وجدت الليدى سترانلى ميتة فى حوض استحمامها ، وقد حدثت الوفاة بسبب الغرق . وقد افترض الأطباء أنها فقدت وعيها ، وفى ذلك الحين انزلقت رأسها تحت الماء .

ولكن السيد ساترثوايت لم يرض عن هذا التفسير . وقد استدعى خادمه الخصوصى وقام بالتزين ولكن بحرص أقل من المعتاد ، وبعد عشر دقائق استقل سيارته الرولز رويس الكبيرة ، والتى أخذته خارج لندن بأقصى سرعة ممكنة .

ولكن الغريب أنه لم يكن متوجهًا إلى أبوت ميد ، بل كان متجهًا إلى نزل صغير يبعد مسافة خمسة عشر ميلا والذى يحمل اسمًا غريبًا للغاية هو " بيلز آند موتلى " . وقد شعر براحة جمة حينما علم أن السيد هارلى كوين مازال يقيم هناك . وبعد دقيقة كان يقف أمام صديقه .

صافحه السيد ساترثوايت بحرارة ، وبدأ يتحدث على الفور بطريقة تنم عن القلق .

" أنا منزعج للغاية . لابد أن تساعدنى . يساورنى شعور بغيض بالفعل أنه ربما يكون الوقت قد تأخر - فقد تكون تلك الفتاة اللطيفة هى التالية ، ولكنها لطيفة حقًا " .

قال السيد كوين : " عليك فقط أن تخبرنى ما الأمر ؟ " .

نظر إليه السيد ساترثوايت فى لوم ، وقال :

" أنت تعلم ما الأمر . أنا واثق من أنك تعلم . ولكننى سأخبرك " .

قص عليه واقعة إقامته فى أبوت ميد ، وكما هو الحال دومًا حينما يكون بصحبة السيد كوين ، وجد نفسه يستمتع بالسرد . وقد كان فصيحًا وبليغًا وبارعًا وشديد التدقيق .

انتهى من كلامه قائلاً : " لذا كما ترى ، لابد أن يكون هناك تفسير لما يحدث " .

نظر ، وهو يحدوه الأمل ، إلى السيد كوين كما ينظر الكلب إلى سيده .

قال السيد كوين : " ولكنك أنت الذى يجب أن يحل هذه المشكلة وليس أنا . أنا لا أعرف هؤلاء الأشخاص كما تعرف " .

قال السيد ساترثوايت فى فخر : " أنا أعرف فتاتَىْ عائلة بارون منذ أربعين عامًا مضت " .

أومأ السيد كوين ، وبدا متعاطفًا للدرجة التى جعلت الآخر يواصل حديثه بشكل حالم .

" هذا الوقت الذى كنا فيه فى برايتون ، بوتاسيتى - بوتسبسيتى . كانت مزحة سخيفة ولكنها أضحكتنا من قلوبنا . يا إلهى ، لقد كنت شابًا فى ذلك الحين . وقد

قمت بالكثير من الأمور الحمقاء . أتذكر الخادمة التى كانت بصحبتهما . أتذكر أننى قبلتها فى رواق الفندق . وكانت إحدى الفتاتين على وشك ضبطى وأنا أقوم بذلك . كان ذلك منذ زمن بعيد ".

هز رأسه ثانية وتنهد . بعد ذلك نظر إلى السيد كوين .

قال فى حزن : " إذن ليس بإمكانك مساعدتى ؟ فى أوقات أخرى ـــ ".

قال السيد كوين بجدية : " فى أوقات أخرى نجحت فى حل ألغاز بجهودك أنت فقط . أعتقد أنه سيكون بإمكانك القيام بذلك أيضًا هذه المرة . لو كنت مكانك لعدت إلى آبوت ميد الآن ".

قال السيد ساترثوايت : " حسنًا ، حسنًا . فى الواقع هذا ما كنت أنوى القيام به . ألا أستطيع إقناعك أن تأتى معى ؟ ".

هز السيد كوين رأسه .

قال : " لا ، لقد أنهيت عملى هنا . سوف أغادر على الفور ".

بعدما وصل إلى أبوت ميد ، توجه السيد ساترثوايت مباشرة إلى مارجرى جيل . كانت تجلس على مكتب بإحدى الغرف ، حيث كانت الكثير من الجرائد مبعثرة . وقد حرك مشاعره شىء ما فى تحيتها . لقد بدت سعيدة للغاية لرؤيته .

" رولى وماريا غادرا لتوهما . إن الأمر ليس كما يعتقد الأطباء يا سيد ساترثوايت . أنا مقتنعة تمامًا أن أحدًا دفع أمى تحت الماء وظل ممسكًا بها . لقد قتلت . وأيًّا كان الشخص الذى قتلها فهو يريد قتلى أنا أيضًا . أنا واثقة من ذلك . وهذا هو السبب الذى جعلنى أقرر ـــ " ، أشارت إلى الوثيقة التى توجد أمامها .

استطردت قائلة : " هذا هو سبب كتابتى لوصيتى . إن الكثير من المال وبعض الممتلكات لا تذهب مع اللقب ، وهناك أموال والدى أيضًا . سوف أترك كل شىء لنويل . أعلم أنه سيستغل هذا المال استغلالاً جيدًا ، فأنا لا أثق برولى ، لقد كان دومًا طماعًا ، هل ستوقع عليها بصفتك شاهدًا ؟ ".

قال السيد ساترثوايت : " يا عزيزتى ، لابد أن توقعى الوصية فى حضور اثنين من الشهود ، ولابد أن يقوما بتوقيعها فى نفس الوقت ".

ولم تكترث مارجرى كثيرًا لهذا الرأى القانونى .

قالت : " لا أعتقد أن ذلك يهم كثيرًا . لقد رآتنى كلايتون وأنا أوقع ثم وقعت هى باسمها . كنت أنوى استدعاء كبير الخدم ليشهد هو الآخر ، ولكنك أنت ستحل محله ".

لم يعترض السيد ساترثوايت مرة أخرى ، ونزع غطاء قلمه وبينما كان على وشك التوقيع توقف فجأة . فقد أيقظ

فيه الاسم المكتوب فوق اسمه مباشرة العديد من الذكريات . آليس كلايتون .

ثمة شيء ما كان يصارع لينفذ خلاله . آليس كلايتون ، كان هناك شيء مميز فى ذلك الاسم . شيء متعلق بالسيد كوين . شيء قاله لتوه للسيد كوين منذ فترة وجيزة .

آه ، لقد تذكر الآن . آليس كلايتون ، كان ذلك اسمها . تلك المرأة . إن الناس يتغيرون - نعم ، ولكن ليس بهذه الطريقة . فقد كانت آليس كلايتون التى يعرفها ذات عينين بنيتين . بدا أن الغرفة تدور من حوله . استشعر مكان المقعد كما لو أنه قادم من مسافة بعيدة للغاية . سمع صوت مارجرى تتحدث إليه فى قلق: " هل أنت مريض ؟ ما الأمر . أنا واثقة من أنك مريض " .

استرد طبيعته مرة أخرى . أمسك بيدها .

" يا عزيزتى ، لقد أدركت كل ما حدث الآن . لابد أن تعدى نفسك لهذه الصدمة الكبرى . إن المرأة التى توجد بالطابق العلوى والتى تسميها كلايتون ليست هى كلايتون . إن آليس كلايتون الحقيقية غرقت مع السفينة أوراليا " .

كانت مارجرى تحدق فيه ، قائلة : " من - من هى إذن ؟ " .

" أنا لست مخطئًا ، لا يمكن أن أكون مخطئًا . إن المرأة التى تدعى أنها كلايتون هى خالتك ، بياترس

بارون . هل تذكرين أنك أخبرتينى أن رأسها اصطدم بالصارى ؟ أعتقد أن اللطمة أتلفت ذاكرتها ، وعندما حدث هذا انتهزت والدتك الفرصة — "

سألت مارجرى فى مرارة : " أتقصد لانتزاع اللقب ؟ نعم إنها قد تقوم بشيء كهذا . يبدو الأمر بغيضًا أن نتحدث عنها بهذه الطريقة بعد أن ماتت ، ولكن ذلك كان من شيمها " .

قال السيد ساترثوايت : " كانت بياترس هى الأخت الكبرى . وبموت عمك كانت سترث كل شيء ولم تكن والدتك ستحصل على شيء . وقد ادعت والدتك أن الفتاة المصابة هى خادمتها وليس أختها . وقد تعافت الفتاة من اللطمة وصدقت بالطبع ما أخبروها به ، أنها آليس كلايتون ، خادمة والدتك . وأستطيع أن أتخيل أنه مؤخرًا فقط ، بدأت تسترد ذاكرتها ، ولكن تلك اللطمة برأسها أحدثت تلفًا بمخها بعد مرور كل تلك السنوات " .

كانت مارجرى تنظر إليه فى ذعر .

قالت : " لقد قتلت أمى وأرادت قتلى " .

قال السيد ساترثوايت " يبدو لى الأمر كذلك . فداخل عقلها تقبع فكرة واحدة فقط - أنك ووالدتك سرقتما إرثها ، ووقفتما حائلا دون حصولها عليه " .

" لكن — لكن كلايتون عجوز للغاية " .

سكت السيد ساترثوايت لدقيقة حيث عبرت رؤية أمام عينيه ـ المرأة الهزيلة ذات الشعر الرمادى ، والمرأة ذات الشعر الذهبى التى كانت تجلس فى أشعة الشمس فى كانز . أختان ! هل يمكن أن يكون الأمر كذلك ؟ تذكر الأختين بارون والشبه الذى كان بينهما . فقط لأن حياة كل منهما سلكت دربًا مختلفًا ـــ

هز رأسه بحدة بينما كان يتملكه شعور بالتعجب من الحياة ...

استدار ناحية مارجرى وقال برقة : " من الأفضل أن نصعد لنراها " .

وجدا كلايتون جالسة فى غرفة الأشغال ، حيث كانت تحيك . بينما هى لم تُدِر رأسها حينما دخلا لسبب سرعان ما اكتشفه السيد ساترثوايت .

تمتم قائلاً ، بينما كان يلمس كتفها البارد المتصلب : " أزمة قلبية . ربما كان من الأفضل أن ينتهى الأمر بهذه الطريقة " .



الفصل ٨

وجه هيلين

١

كان السيد ساترثوايت يجلس وحده بالمقصورة الكبيرة ، بالصف الأول بدار الأوبرا . وخارج باب المسرح كانت توجد بطاقة مطبوعة تحمل اسمه . فكان السيد ساترثوايت ـ والذى يملك خبرة كبيرة بجميع الفنون وحسن تقدير لها ـ يعشق الموسيقى الجيدة على وجه الخصوص . وكان يحضر ، بانتظام ، حفلات كونفنت جاردن كل عام ، حيث يحجز مقصورة خاصة أيام الثلاثاء والجمعة خلال الموسم .

ولكنه لم يكن معتادًا على أن يجلس هناك وحده . فقد كان رجلاً اجتماعيًا ، يحب أن يملأ مقصورته بأشخاص من صفوة المجتمع الذين كان ينتمى إليهم ، وأيضًا بأشخاص من الطبقة الاستقراطية من العالم الفنى ، والذى كان يشعر معهم أنه بمنزله . ولكنه كان وحيدًا الليلة ،

لأن إحدى الكونتيسات أثارت إحباطه . فإلى جانب كونها جميلة وشهيرة فهى أيضًا أم تحب أطفالها . فقد أصيب أطفالها بهذا المرض الشائع والبغيض ـ النكاف ـ وقد مكثت الكونتيسة فى المنزل تتباحث ، فى حزن ، مع الممرضات الماهرات . وقد انتهز زوجها ـ والد الأطفال المذكورين آنفًا والذى منحها اللقب وكان شخصًا تافهًا للغاية ـ هذه الفرصة للهرب . فلم يكن هناك ما يجعله يشعر بالملل أكثر من الموسيقى .

لذا فقد جلس السيد ساترثوايت وحده . وكانت معزوفتا " كافالاريا روستيكانا " و " باجاليتشى " تقدمان الليلة ، وحيث إن الأولى لم تحز قط على إعجابه ، فقد وصل بعد أن أسدلت الستارة مباشرة ـ عند مقتل سانتوزا ـ فى وقت مناسب ليلقى نظرة على الدار بعينين متفحصتين قبل أن ينهض الجميع ، أو يقومون بتحية بعضهم البعض أو يصارعون للحصول على قهوة أو عصير ليمون . وضع السيد ساترثوايت نظارة الأوبرا الخاصة به ونظر حوله فى الأوبرا وحدد موقع فريسته ، وانطلق بعد أن وضع خطة يستطيع أن ينضم بها إليها . بيد أنه لم ينفذ هذه الخطة ، فخارج مقصورته مباشرة قابل رجلاً طويلاً وداكن البشرة والذى تعرف عليه بإثارة بالغة .

صاح السيد ساترثوايت : " السيد كوين " .

صافح صديقه بحرارة وهو يمسك به بقوة ، وكأنه يخشى أن يراه يتبخر فى الهواء فى أى لحظة .

قال السيد ساترثوايت فى حزم : " لابد أن تشاركنى مقصورتى . إنك لم تأت مع أحد ؟ " .

أجاب السيد كوين هو يبتسم : " لا ، أنا أجلس وحدى فى المقاعد الأمامية " .

قال السيد ساترثوايت بنبرة تنم عن الارتياح : " إذن ، لقد حسم الأمر " .

ولو كان هناك شخص آخر بصحبتهما للاحظ أن سلوك السيد ساترثوايت كان كوميديًا بعض الشىء .

قال السيد كوين : " أنت عطوف للغاية " .

" إنه لشرف لى أن تنضم إلىّ . لم أكن أعرف أنك تحب الموسيقى ؟ " .

" إن هناك أسبابًا تجعلنى أحب " باجاليتشى " " .

قال السيد ساترثوايت . " نعم ، بالطبع " وكان يومئ بتعقل ، رغم لو أنه فكر فى الأمر قليلا لوجد أنه من الصعب تفسير استخدامه لهذا التعبير : " بالطبع ، بالطبع " .

عادا إلى المقصورة بمجرد أن دق الجرس مباشرة ، وحينما مالا فوق الجزء الأمامى منها كان بإمكانهما رؤية الناس تعود إلى أماكنها .

قال السيد ساترثوايت فجأة : " إن تلك رأس جميلة " .

أشار بنظارته إلى بقعة تقع أسفلهما مباشرة . كانت هناك فتاة تجلس هناك ، ولم يستطيعا رؤية وجهها ـ فقد

رأيا فقط شعرها الذهبى الذى كان يعلو رأسها كالقبعة إلى أن التقى مع رقبتها البيضاء .

قال السيد ساترثوايت بوقار : " رأس يونانية خالصة " . تنهد بسعادة ، وأضاف : " حينما تفكر فى هذا الأمر تجده مثيرًا حقًا - كيف أن عددًا قليلاً من الناس هم من يملكون شعرًا يلائمهم . فمن الشائع الآن أن تجد الجميع يقص شعره ليصبح قصيرًا " .

قال السيد كوين : " أنت دقيق الملاحظة " .

اعترف السيد ساترثوايت قائلاً : " أنا ألاحظ أشياء . أنا حقًا ألاحظ بعض الأشياء . على سبيل المثال ، لقد لاحظت هذه الرأس على الفور . لابد أن نلقى نظرة على وجهها إن آجلاً أم عاجلاً . ولكنه لن يتلائم مع شعرها ، أنا واثق من هذا . فاحتمال المواءمة هو واحد فى الألف " .

وبمجرد أن غادرت الكلمات فاه أُطفئت الأنوار ، ودوى صوت طرق عصا قائد الفرقة الموسيقية وبدأت الأوبرا . كان مغن جديدًا يقال عنه إنه سيصبح " كاروزو " آخر سيغنى الليلة . وقد قالت عنه الصحف إنه يوغسلافى وتشيكى وألبانى ومجرى وبلغارى ، ويتسم بحس عدم تحيز جميل . وكان قد قدم حفلاً رائعًا فى ألبرت هول حيث غنى أغانى شعبية بلغته الأصلية ، بصحبة أوركسترا خاصة . كانت النغمات غريبة ولكن أداء المغنى كان رائعًا . وكان الموسيقيون الحقيقيون متحفظين

فى رأيهم ؛ حيث كانوا يعتقدون أن الأذن لابد أن تألف اللحن وتتدرب جيدًا قبل إصدار أى انتقاد . وقد شعر البعض بكثير من الراحة حينما علموا أن " يوشبم " سيغنى الليلة باللغة الإيطالية التقليدية المتسمة بالتشنجات والارتجافات .

أسدل الستار فور انتهاء الفصل الأول ، وكان الجمهور يصفق بحرارة . استدار السيد ساترثوايت ناحية السيد كوين . فقد كان يدرك أن الأخير كان ينتظر سماع رأيه ، وكان يشعر بالفخر . فعلى الرغم من كل شىء فقد كان خبيرًا . فبوصفه ناقدًا ، فقد كان شبه متأكد من معلوماته .

وببطء شديد أومأ برأسه .

قال : " إنه بارع " .

" هل تعتقد هذا ؟ " .

" إنه صوت رائع كصوت كاروزو . والناس لن يدركوا هذا الأمر فى البداية ؛ حيث إن أسلوبه فى الغناء ليس متقنًا بعد . فهناك بعض الأخطاء ونقص فى الثقة بالغناء . ولكن الصوت أصيل ورائع " .

قال السيد كوين : " لقد ذهبت إلى الحفل فى ألبرت هول " .

" حقًا ؟ لم أتمكن من الذهاب " .

" لقد غنى أغنية " الراعى " بشكل رائع " .

قال السيد ساترثوايت : " لقد قرأت عن هذا الحفل . كانت اللازمة تنتهى فى كل مرة بنغمة موسيقية عالية - شىء يشبه الصرخة . نغمة تتوسط نغمتى A و B المنخفضتين . أمر مثير حقاً " .

قام يوشبم بتحية الجمهور وهو ينحنى ويبتسم . سطعت الأنوار ثانية وبدأ الناس ينهضون . مال السيد ساترثوايت للأمام ليرى الفتاة ذات الشعر الذهبى . نهضت الفتاة وقامت بضبط وشاحها واستدارت .

التقط السيد ساترثوايت أنفاسه . لقد كان يعلم أن العالم به مثل هذه الوجوه - وجوه صنعت تاريخاً .

تحركت الفتاة بالممر وبصحبتها رفيقها الشاب . وقد لاحظ السيد ساترثوايت كيف كان جميع الرجال فى الجوار يختلسون النظر إليها .

قال السيد ساترثوايت لنفسه : " جميلة ! إن هناك هذا الشىء . ليس السحر ولا الجاذبية . وليس أى شىء من الأشياء التى نتحدث عنها عفوياً - فقط جمال حقيقى . شكل الوجه وخط الحاجب ورسم الفك " . وقد تذكر المقولة القديمة " *الوجه الذى أطلق آلاف السفن* " . وللمرة الأولى أدرك معنى هذه الكلمات .

نظر إلى السيد كوين والذى كان ينظر إليه بدوره بطريقة تنم عن أنه يدرك ما يدور فى خلده لدرجة جعلت السيد ساترثوايت يشعر أنه لا حاجة به للكلمات .

قال ببساطة : " أنا أتساءل دوماً كيف تكون مثل هؤلاء النساء " .

" ماذا تعنى ؟ " .

" النساء من أمثال هيلين وكليوباترا ومارى ستيوارت " .

أومأ السيد كوين وهو يفكر بعمق .

اقترح قائلاً : " إذا خرجنا ، ربما نستطيع رؤيتها " .

خرجا معاً وكان مسعاهما ناجحاً . فكان الشخصان اللذان يبحثان عنهما يجلسان على أريكة فى منتصف الطريق إلى السلالم . وللمرة الأولى لاحظ السيد ساترثوايت رفيق الفتاة ، كان شاباً داكن البشرة ، ليس وسيماً . كان يبدو أنه يستشيط غضباً . كان ذا وجه ملىء بالزوايا الغريبة ، وعظام وجنة ناتئة وفك معقوف قوى ، وعينين عميقتين كانتا ذات لون فاتح ، أسفل حاجبين داكنين كثيفين .

قال السيد ساترثوايت لنفسه : " وجه مثير . وجه حقيقى . إنه يعنى شيئاً ما " .

كان الشاب يميل للأمام ويتحدث بجدية . كانت الفتاة تنصت . لم يكن أي منهما ينتمى إلى عالم السيد ساترثوايت . فإنه قد اعتبرهما ينتميان إلى الطبقة " المتطفلة على الفن " . فكانت الفتاة ترتدى ثوباً بسيطاً مصنوعاً من حرير أخضر رخيص . وكان الشاب يرتدى

ملابسًا خاصة بالسهرة ، كان يبدو أنه لا يشعر بالراحة فيها .

مر أمامهما الرجلان عدة مرات . وفى المرة الرابعة التى قاما فيها بذلك كان شخص ثالث قد انضم إليهما - شاب أشقر يبدو أنه موظف . وقد تسبب مجيئه فى توتر الجو . كان الوافد الجديد يتململ وهو يضبط رابطة عنقه ، وبدا متوترًا . وكانت الفتاة تنظر إليه بجدية وكان رفيقها يرمقه فى غضب .

قال السيد كوين برقة وهما يسيران : " القصة المعتادة " .

قال السيد ساترثوايت وهو يتنهد : " نعم ، إنه أمر يتعذر تجنبه على ما أعتقد ؛ تَشَاجُرُ كلبين على عظمة . حدث ذلك من قبل وسيحدث كثيرًا بعد ذلك . ومع ذلك يمكن للمرء أن يتمنى شيئًا مختلفًا ، الجمال ــ " . سكت عن الكلام . إن الجمال بالنسبة للسيد ساترثوايت كان يعنى شيئًا مختلفًا تمامًا . كان يجد صعوبة فى التحدث عنه . نظر إلى السيد كوين الذى أومأ بجدية فى تفهم . توجها إلى مقعديهما لمشاهدة الفصل الثانى .

فى نهاية العرض استدار السيد ساترثوايت فى لهفة ناحية صديقه ، وقال :

" إنها ليلة ممطرة . إن سيارتى هنا . لابد أن تسمح لى أن أقلك - آه - إلى مكان ما " .

كان السيد ساترثوايت يحاول تحرى الكياسة باستخدامه الكلمة الأخيرة . فقد شعر أن عبارة " أقلك إلى المنزل " سوف توحى بالفضول . فقد كان السيد كوين متحفظًا دومًا . وكان السيد ساترثوايت لا يعرف إلا القليل عن السيد كوين .

واصل السيد ساترثوايت كلامه قائلاً : " لكن ربما تكون معك سيارتك الخاصة فى انتظارك ؟ " .

قال السيد كوين : " لا ، ليس هناك سيارة بانتظارى " .

" إذن - "

ولكن السيد كوين هز رأسه .

قال : " إنك عطوف للغاية ، ولكنى أفضل أن أعود بطريقتى الخاصة . علاوة على ذلك " ، قال ذلك وهو يبتسم بفضول ، " إن حدث شىء فأنت الذى ستتصرف بشأنه . عمت مساء ، وإلى اللقاء . ومرة أخرى لقد شاهدنا الدراما معًا " .

مضى بسرعة لدرجة لم تتح للسيد ساترثوايت الفرصة للاعتراض ، ولكنه تركه وبعض الارتباك يجوب بعقله . ما الدراما التى كان يشير إليها السيد كوين ؟ باجاليتشى أم دراما أخرى ؟

كان ماسترز ، سائق السيد ساترثوايت ، ينتظر فى شارع جانبى . وكان سيده يبغض التأخر الطويل الناتج عن تحرك السيارات واحدة تلو الأخرى أمام دار الأوبرا .

والآن ـ كما فعل فى المرات السابقة ـ انحرف سريعًا حول الزاوية ومضى للأمام صوب المكان الذى كان يعلم أن ماسترز ينتظره فيه . وأمامه مباشرة وجد فتاة ورجلا ، واللذين بمجرد أن تعرف عليهما انضم إليهما شخص ثالث .

وقد تطور الأمر فى دقيقة . فقد علا صوت أحد الرجلين فى غضب . ودوى صوت الآخر فى اعتراض بالغ . ثم بدأ الشجار . وتوالت اللكمات ، ثم اللكمات .

وبعد ذلك جاء شخص يبدو أنه شرطى ـ وبعد دقيقة كان السيد ساترثوايت يقف إلى جوار الفتاة التى انكمشت بجانب الحائط .

قال : " اسمحى لى . لا يجب أن تقفى هنا " .

أخذها من ذراعها وأرشدها برقة إلى الطريق . نظرت إلى الخلف .

قالت فى غير ثقة : " ألا يجب أن ـــ ؟ "

هز السيد ساترثوايت رأسه قائلاً :

" ليس من الملائم أن تظلى هناك . فسوف يطلبون منك على الأرجح الذهاب إلى قسم الشرطة معهما . وأنا واثق أن كلا صديقيك هناك لا يرغبان فى حدوث ذلك " .

توقف عن السير ، وقال :

" هذه هى سيارتى . إن سمحت لى فبإمكانى أن أقلك إلى المنزل " .

نظرت إليه الفتاة نظرة متفحصة . وقد أبهرتها رزانة السيد ساترثوايت للغاية . فأومأت برأسها .

قالت : " شكرًا لك " ، ثم دلفت إلى السيارة عبر الباب الذى كان ماسترز يمسكه لها .

وكإجابة عن سؤال طرحه السيد ساترثوايت أخبرتهما بعنوان منزلها فى تشيلسى ، ثم استقل السيد ساترثوايت السيارة إلى جوارها .

كانت الفتاة منزعجة وفى حالة مزاجية لا تسمح لها بالتحدث . وكان السيد ساترثوايت من الكياسة للدرجة التى لا تجعله يتطفل على أفكارها . ومع ذلك فقد استدارت ناحيته وبدأت فى الحديث طواعية .

قالت بغضب : " كم أتمنى ألا يكون الناس بهذه السخافة " .

وافقها السيد ساترثوايت قائلاً : " إنه أمر بغيض حقًا " .

أسلوبه المقنع والرزين جعلها تهدأ بعض الشىء ، ثم واصلت الحديث وكأنها بحاجة إلى أن تفضى بمكنونات صدرها إلى شخص ما :

" إن الأمر ليس كما يبدو ـ أعنى ، حسنًا ، إن هذا ما حدث . أنا والسيد إيستنى صديقان منذ وقت طول ـ منذ أن جئت إلى لندن . فقد أعجب بصوتى وقدمنى إلى بعض الأشخاص . إنه مفتون بالموسيقى . وكانت لفتة جميلة حقًا أن يأخذنى إلى الأوبرا الليلة . أنا واثقة أن سعر تذاكر

مثل هذه الحفلة يفوق إمكاناته المادية . بعد ذلك أتى السيد بيرنز وتحدث إلينا ـ بطريقة لطيفة للغاية ـ ولكن فيل (السيد إيستنى) شعر بالغضب . ولا أعرف لماذا غضب بهذه الطريقة . إنه بلد حر على ما أعتقد . والسيد بيرنز هو شخص لطيف وهادئ . وبعد ذلك وبينما كنا نسير صوب التيوب ، أتى وانضم إلينا ، وما إن تفوه بكلمتين حتى هاجمه فيليب كالمجنون . يا إلهى ! أنا لا أحب ذلك " .

سأل السيد ساترثوايت برقة : " حقًا ؟ " .

تورد وجهها قليلاً . *إنها لم تكن امرأة خبيثة على الإطلاق* . فكان لابد من أن تشعر ببعض النشوة لأن رجلين تشاجرا بسببها ، ولكن السيد ساترثوايت لاحظ أنها تعانى ارتباكًا ، وقد سبر أغواره بعد دقيقة حينما قالت بعفوية :

" أتمنى ألا يكون قد أصابه إصابة خطيرة " .

فكر السيد ساترثوايت وهو يبتسم لنفسه فى الظلام :

" ترى عمن تتحدث الآن ؟ " .

قام بالتخمين ثم قال :

" تتمنين ألا يكون السيد ـ إيستنى قد أصاب ـ السيد بيرنز ؟ " .

أومأت برأسها .

" نعم ، إن هذا هو ما قلته . إن الأمر بغيض للغاية . أتمنى لو أعرف ما حدث " .

توقفت السيارة .

سألها : " هل لديك هاتف ؟ " .

" نعم " .

" إن كنت ترغبين فى هذا ، بإمكانى أن أعرف ما حدث وأتصل بك كى أخبرك " .

أضاء وجه الفتاة ، وقالت :

" كم سيكون ذلك لطيفًا للغاية منك . أواثق أنه ليس فى ذلك إزعاج لك ؟ " .

" لا ، إطلاقًا " .

شكرته مرة أخرى وأعطته رقم هاتفها ، وهى تقول فى خجل : " إن اسمى جيليان ويست " .

وبينما كان يسير بالسيارة فى الظلام فى طريقه لأداء مهمته تسللت ابتسامة يشوبها الفضول على شفتيه .

فكر بينه وبين نفسه : " إذن هذا هو كل ما فى الأمر ... " *شكل وجهها ورسم فكها !* " .

ولكنه أوفى بوعده .

٢

فى فترة ما بعد الظهيرة من يوم الأحد التالى ، ذهب السيد ساترثوايت إلى حدائق كيو ليتأمل النباتات الوردية . منذ فترة بعيدة (بدت بعيدة للغاية للسيد ساترثوايت) ذهب إلى حدائق كيو بصحبة سيدة شابة

لمشاهدة نباتات الجريس . وكان السيد ساترثوايت قد رتب بدقة الكلام الذى سيقوله ، والكلمات التى سيستخدمها فى طلب يد هذه السيدة للزواج . وقد كان يدرس الكلمات فى عقله ويستجيب إلى تعليقاتها المبهجة عن نباتات الجريس حينما جاءته الصدمة . فقد توقفت الشابة عن إبداء إعجابها بالنباتات ، واعترفت للسيد ساترثوايت (بوصفه صديقًا حقيقيًا) بحبها لرجل آخر . فقام السيد ساترثوايت بتنحية الخطبة التى قام بإعدادها جانبًا ، وشرع يفتش بدقة عن بعض التعاطف والصداقة فى جعبة عقله .

كانت تلك هى الرومانسية بالنسبة للسيد ساترثوايت - نوع من الرومانسية الفيكتورية الفاترة . ولكن هذا الأمر أرسى رباطًا رومانسيًا بينه وبين حدائق كيو ، فقد كان يذهب إلى هناك كثيرًا لرؤية نباتات الجريس ، أو الوردية - إن كان قد سافر للخارج فى وقت متأخر عن المعتاد - وكان يتنهد بينه وبين نفسه ، ويشعر بالعاطفة تتسلل إليه ، ويستمتع حقًا بطريقة رومانسية عتيقة الطراز .

وفى ذلك اليوم على وجه التحديد كان يتمشى عند مقاهى الشاى حينما تعرف على شخصين يجلسان على طاولة صغيرة فوق الأعشاب ، لقد كانا جيليان ويست والشاب الأشقر . رأى الفتاة تتورد خجلاً وتتحدث فى لهفة إلى رفيقها . وبعد دقيقة كان يصافحهما بطريقة

متكلفة فى الجد والاحتشام ، وقبل دعوتهما الخجولة للانضمام إليهما لاحتساء الشاى .

قال السيد بيرنز : " لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى امتنانى لك لعنايتك بجيليان هذه الليلة . لقد أخبرتنى بما حدث " .

قالت الفتاة : " هذا حقيقى . لقد كنت لطيفًا معى للغاية " .

شعر السيد ساترثوايت بالسعادة والفضول إزاء هذين الشخصين . فقد لمس صدقهما وسذاجتهما . وقد كانت هذه أيضًا فرصة سانحة كى يلقى نظرة على عالم لا يعرف الكثير عنه . فقد كانا ينتميان لطبقة مجهولة بالنسبة له .

وكان بإمكان السيد ساترثوايت التعاطف بشدة مع الآخرين . وسرعان ما كان يسمع كل أخبار صديقيه الجديدين . وقد لاحظ أن السيد بيرنز قد أصبح تشارلى، ولم يتفاجأ عندما أخبراه بخطبتهما .

قال السيد بيرنز بصدق : " فى الواقع ، لقد تمت خطبتنا اليوم فى فترة ما بعد الظهيرة ، أليس كذلك يا جيل ؟ " .

كان بيرنز موظفًا فى شركة شحن . وكان يأخذ راتبًا جيدًا ، ولديه بعض المال الخاص به ، وكان من المقرر أن يتزوجا سريعًا .

استمع لهما السيد ساترثوايت وأومأ ، وقام بتهنئتهما .

فكر بينه وبين نفسه : " إنه شاب عادى . شاب عادى للغاية . إنه لطيف ومستقيم ، ومعتز بذاته دون غرور ، وحسن المظهر دون أن يكون مفرط الوسامة . لم يكن هناك أى شيء مميز به . ومن الواضح أن الفتاة تحبه ... "

قال بصوت مرتفع : " والسيد إيستنى ـــ "

توقف عن الكلام عن عمد ، ولكنه قال ما يكفى ليستثير مشاعر لم يكن غير مستعد لها . فقد تغير لون وجه تشارلى بيرنز وبدت جيليان منزعجة . لا ، إنها لم تكن منزعجة فقط كما أعتقد ، لقد بدت خائفة .

قالت بصوت منخفض : " أنا لا أحب هذا الأمر " . كانت كلماتها موجهة للسيد ساترثوايت وكأنها تعلم أنه سيفهم غريزيًا الشعور المبهم لحبيبها ، وأكملت : " حسنًا ، لقد فعل الكثير من أجلى . فهو قد شجعنى على خوض مجال الغناء وقدم لى العون ، ولكننى كنت أعرف منذ البداية أن صوتى ليس جميلاً للغاية . وبالطبع كانت لدىَّ ارتباطات ـــ "

سكتت عن الكلام .

قال بيرنز : " لقد مررت ببعض المتاعب كذلك . إن الفتاة يجب أن تجد لها من يعتنى بها . لقد عانت جيليان من صعوبات كثيرة يا سيد ساترثوايت . صعوبات كثيرة للغاية . إنها جميلة كما يمكنك أن ترى و ـــ حسنًا ، هذا عادة ما يجلب المتاعب للفتاة " .

وبينما ، أصبح السيد ساترثوايت على دراية بأشياء كثيرة حدثت كانت " متاعب " على حد وصف بيرنز لها . فقد كان هناك شاب أطلق النار على نفسه ، وهذا التصرف الغريب الذى أتى به مدير بنك (والذى كان متزوجًا !) ، والسلوك الجامح الذى بدر عن فنان عجوز . إنها سلسلة من الأحداث العنيفة والمأساوية التى تركتها جيليان ويست وراءها والتى سردها تشارلز بيرنز بلغة دارجة . وقد ختم حديثه قائلاً : " وفى رأيى فإن هذا الفتى إيستنى معتوه بعض الشيء . وكانت جيليان ستلاقى المتاعب معه . لولا أن ظهرت أنا فى الصورة وقمت بالعناية بها " .

بدت ضحكته بلهاء قليلاً للسيد ساترثوايت . ولم ترتسم أية ابتسامة على وجه الفتاة . كانت تنظر إلى السيد ساترثوايت بجدية .

قالت ببطء : " إن فيل ليس سيئًا للغاية . لقد كان يهتم لأمرى وكنت أنا أهتم لأمره بوصفه صديقًا ــ ليس أكثر من ذلك . أنا لا أعرف ماذا سيكون رد فعله على خبر خطوبتى . أنا خائفة من أن ـــ "

سكتت عن الكلام وهى عاجزة عن الإفصاح عما يدور فى خلدها عن المخاطر التى استشعرتها .

قال السيد ساترثوايت : " فقط أخبرينى عما أستطيع القيام به للمساعدة " .

رأى أن تشارلى بيرنز بدا مستاء بشكل غامض ، ولكن جيليان قالت على الفور : " شكرًا لك ".

ترك السيد ساترثوايت صديقيه بعدما وعدهما باحتساء الشاى مع جيليان يوم الخميس المقبل .

وحينما جاء يوم الخميس شعر السيد ساترثوايت شعورًا مبهجًا بالترقب . فكر بينه وبين نفسه : " أنا رجل عجوز - ولكن ليس عجوزًا للغاية كى يشعره وجه جميل بالبهجة . وجه ... " . بعد ذلك هز رأسه وهو يتوقع حدوث شر أو مصيبة .

كانت جيليان وحدها . وكان من المفترض أن يأتى تشارلى بيرنز لاحقًا . بدت أكثر سعادة - كما اعتقد السيد ساترثوايت - وكأن حملاً كبيرًا قد انزاح من فوق صدرها . وفى الواقع فقد اعترفت بالكثير ، حيث قالت :

" لقد ندمت على قيامى بإخبار فيل بشأن تشارلز . كان ذلك تصرفًا سخيفًا من جانبى . كان لابد لى أن أعرف فيل بشكل أفضل . لقد شعر بالاستياء بالطبع ، ولكنه كان لطيفًا للغاية . كان لطيفًا حقًا . انظر ماذا أرسل لى هذا الصباح - هدية بمناسبة زواجى . أليست رائعة ؟ " .

كانت بالفعل هدية رائعة بالنسبة لشاب يمر بظروف فيليب إيستنى . كانت عبارة عن جهاز راديو لاسلكى من أحدث طراز .

قالت الفتاة : " إن كلاً منا يحب الموسيقى للغاية . وقد قال فيل إننى حينما أستمع إلى إحدى الحفلات لابد

دومًا أن أفكر فيه قليلاً . وأنا واثقة من أننى سأقوم بذلك . فنحن كنا صديقين حميمين ".

قال السيد ساترثوايت : " لابد أن تكونى فخورة بصديقك . فيبدو أنه تلقى الخبر بروح رياضية ".

أومأت جيليان ورأى الدموع تتلألأ سريعًا فى عينيها ، وهى تقول :

" لقد طلب منى القيام بشىء واحد من أجله . الليلة هى ذكرى يوم لقائنا الأول . طلب منى أن أمكث بالمنزل هذه الليلة وأستمع للبرنامج عبر الراديو - وألا أذهب مع تشارلى إلى أى مكان . وقد وافقته بالطبع ، وأخبرته كم تأثرت بطلبه هذا ، وأننى سأفكر فيه بكثير من الامتنان والعاطفة ".

أومأ السيد ساترثوايت ولكنه كان مرتبكًا . فهو نادرًا ما كان يخطئ فى حكمه على الأشخاص ، وقد كان يعرف أن فيليب إيستنى غير قادر على أن يطلب مثل هذا الطلب العاطفى . فربما يكون الشاب أكثر تفاهة مما اعتقد . فمن الواضح أن جيليان رأت أنه لا بأس أن توافق شخصًا يحبها - رغم أنها رفضته - على طلبه . كان السيد ساترثوايت محبطًا قليلاً . فقد كان شخصًا عاطفيًا ويعلم ما هو الحب ، ولكنه كان يتوقع سلوكيات أفضل من باقى البشر . علاوة على ذلك ، فإن العاطفة هى شىء كان يوجد فى زمنه هو فقط ، وليس لها مكان فى العصر الحديث .

وقد طلب من جيليان الغناء فوافقت . وقد أخبرها أن صوتها كان ساحرًا ولكنه كان يعلم جيدًا فى قرارة نفسه أن صوتها من الدرجة الثانية . فأى نجاح كانت ستحققه فى هذا المجال الذى اختارته كان سيكون بسبب وجهها لا صوتها .

ولم يكن يرغب فى رؤية الشاب بيرنز ثانية ، لذا فقد نهض لينصرف . وفى هذه اللحظة لفتت انتباهه حلية على رف المدفأة ، كانت تقف بين مجموعة حلى أخرى تافهة وعديمة القيمة مثل الجوهرة الموضوعة فوق كومة من التراب .

كانت عبارة عن كأس كبيرة منحوتة من زجاج أخضر رقيق القوام ، وذات عنق طويل وجميلة ، وكان يوجد على حافتها ما يشبه فقاعة صابون كبيرة ، كرة مصنوعة من زجاج به ألوان قوس قزح . لاحظت جيليان إلام ينظر ، وقالت :

" إنها هدية أخرى من فيل بمناسبة زواجى . إنها جميلة على ما أعتقد . فهو يعمل فى مصنع زجاج " .

قال السيد ساترثوايت بجدية : " إنها جميلة حقًا . إن أمهر صانعى الزجاج فى مورانو كانوا سيفخرون بمثل هذا الشىء " .

خرج والفضول يملؤه بخصوص هذا الشاب فيليب إيستنى . إنه فتى مثير للفضول حقًا . ومع ذلك فقد

فضلت الفتاة ذات الوجه الرائع تشارلى بيرنز عليه . يا له من عالم غريب وغامض !

وقد خطر ببال السيد ساترثوايت أنه بسبب جمال جيليان ويست لم تكن ليلته مع السيد كوين بنفس الإثارة المعهودة . فكانت كل مقابلة مع هذا الرجل الغامض تتمخض عن حدث غريب وغير متوقع . ولهذا فقد توجه السيد ساترثوايت إلى مطعم أرليشينو آملاً أن يلتقى برجل الغموض ، والذى كان قد قابله فيه ذات مرة فى السابق ، والذى قال عنه السيد كوين إنه يتردد عليه كثيرًا .

ظل السيد ساترثوايت يتحرك من غرفة لغرفة داخل المطعم وهو يبحث عنه والأمل يحدوه ، ولكن لم يكن هناك أثر لوجه السيد كوين الداكن البشوش . ومع ذلك فكان هناك شخص آخر يعرفه . فكان فيليب إيستنى يجلس وحده على طاولة صغيرة .

كان المكان مزدحمًا ، فجلس السيد ساترثوايت فى مقابل الشاب . وقد ساوره شعور غريب بالبهجة وكأنه وجد الفرصة التى يستطيع أن يشارك من خلالها فى الأحداث . لقد كان مشاركًا فى هذا الأمر - مهما كان . لقد أدرك الآن ما الذى كان يعنيه السيد كوين فى هذه الليلة بالأوبرا . فقد كانت هناك أحداث درامية وبها كان هناك دور - دور مهم للسيد ساترثوايت . ولا يجب أن يفشل فى أداء دوره .

جلس فى مقابل فيليب إيستنى وهو يشعر بأنه على وشك المشاركة فى شىء محتوم . وكان من السهل للغاية إثارة حوار . فقد بدا إيستنى متلهفًا للحديث . فكان السيد ساترثوايت كعادته دومًا مستمعًا جيدًا ومتعاطفًا . وقد تحدثا عن الحرب والمتفجرات والغازات السامة ، وكان إيستنى لديه الكثير ليقوله عن هذه الأمور ، حيث إنه خلال فترة كبيرة من الحرب انخرط فى صناعتها . وقد وجده السيد ساترثوايت مثيرًا حقًا .

وقد قال إيستنى إنه هناك نوعًا من الغاز لم تتم تجربته قط . فقد أتت الهدنة سريعًا . فكانت هناك آمال كبيرة معقودة حوله . فأى مقدار ضئيل منه فقط يكون قاتلا . وكان الشاب يتحدث والحيوية تملؤه .

وبعد أن تآلفا بعض الشىء ، أدار السيد ساترثوايت دفة الحوار إلى الموسيقى . وقد أضاء وجه إيستنى الرفيع ، والذى تحدث بعاطفة محب الموسيقى الحقيقى . وقد تحدثا عن يوشيم ، وكانت الحماسة تملأ الشاب . وقد اتفقا على أنه لا شىء فى العالم يمكن أن يكون أفضل من صوت مطرب جميل . وكان إيستنى يستمع إلى كاروزو حينما كان فتى صغيرًا ، وهو لم ينسه قط .

قال : " هل تعلم أنه كان بإمكانه الغناء أمام كأس فيكسره ؟ " .

قال السيد ساترثوايت مبتسمًا : " كنت أعتقد دومًا أن تلك هى مجرد خرافة " .

" لا ، إنها حقيقة . فهذا شىء يمكن أن يحدث . فهى مسألة تتعلق بالرنين " .

بدأ يتحدث عن تفاصيل تقنية . كان وجهه متوردًا وكانت عيناه تبرقان . فقد بدا أنه مولع بهذا الموضوع ، ولاحظ السيد ساترثوايت أنه كان يعرف جيدًا ما يتحدث عنه . وقد أدرك الرجل العجوز أنه كان يتحدث إلى عقلية استثنائية ، عقلية يمكن وصفها بأنها عبقرية . عقلية نابغة وشاذة لم تجد لها منفذًا حقيقيًا حتى الآن لإطلاق إبداعاتها ، ولكن التى كانت بدون شك عبقرية .

بعد ذلك فكر فى تشارلى بيرنز ، وتعجب من أمر جيليان ويست .

وقد فوجئ حينما أدرك كم تأخر الوقت ، لذا فقد طلب من النادل أن يأتى له بفاتورته . بدا إيستنى راغبًا فى الاعتذار .

قال : " أنا أشعر بالخجل من نفسى - فقد تحدثت كثيرًا . ولكنه كان من حظى السعيد أن قابلتك هنا الليلة . فأنا - فأنا كنت بحاجة لشخص ما للتحدث معه الليلة " .

أنهى حواره بضحكة صغيرة مثيرة للفضول . وكانت عيناه مازالتا تبرقان بإثارة خفية . ومع ذلك فقد كانت به مسحة من الحزن .

قال السيد ساترثوايت : " لقد سرنى التعرف إليك . فقد كان حوارنا مثيرًا ومفيدًا بالنسبة لى " .

انحنى بعد ذلك بطريقته المضحكة واللطيفة . ثم غادر المطعم . كانت الليلة دافئة . وبينما كان يسير ببطء فى الشارع تخيل شيئًا غريبًا . فقد شعر بأنه لم يكن وحده - أن هناك شخصا ما يسير إلى جواره . حاول أن يقنع نفسه شعر بأن ذلك مجرد وهم - ولكن بلا جدوى . فقد كان هناك من يسير إلى جواره فى ذلك الشارع المظلم الهادئ . شخص لم يكن بإمكانه رؤيته . وقد تساءل ما الذى جعل صورة السيد كوين تتجسد بمثل هذا الوضوح فى خياله . فقد شعر وكأن السيد كوين كان يسير إلى جواره . ومع ذلك فكل ما كان عليه فعله هو أن يستخدم عينيه ليؤكد لنفسه أنه لم يكن هناك وأنه كان وحده .

ولكنه لم يستطع التوقف عن التفكير فى السيد كوين ، ومع هذه الفكرة كان هناك شىء آخر : حاجة ، شىء عاجل من نوع ما ، كارثة قابضة للصدر على وشك الحدوث . كان هناك شىء عليه القيام به - والقيام به سريعًا . كان هناك ثمة ما يسوء ، وكان بمقدوره أن يضعه فى نصابه الصحيح .

وكان الشعور قويًا للغاية لدرجة أن السيد ساترثوايت فشل فى محاربته . بدلاً من ذلك فقد أغلق عينيه وحاول أن يستحضر تلك الصورة الذهنية بشكل أكثر وضوحًا . لو كان فقط قد سأل السيد كوين عما كان يقصد - ولكن بينما كانت الفكرة تعبر عقله أدرك أنها خاطئة . فحتى لو كان قد سأله لم يكن ليخرج منه بأى شىء . " إن جميع

الخيوط فى يديك " - تلك هى نوعية الإجابة التى كان سيقولها السيد كوين .

الخيوط . خيوط ماذا ؟ قام بتحليل شعوره وانطباعاته بدقة . هذا الحس الداخلى بقرب حدوث خطر . ولكن من كان فى خطر ؟

وعلى الفور بزغت صورة أمام عينيه ، صورة لجيليان ويست وهى تجلس وحيدة وتستمتع إلى الراديو .

أعطى السيد ساترثوايت بنسًا لفتى يبيع الجرائد وأخذ منه جريدة . وقد بحث على الفور عن برنامج راديو لندن . لاحظ والفضول يملؤه أن حفلاً ليوشيم سيذاع الليلة . فكان سيغنى " سالف ديمورا " من مسرح فاوست . وبعد ذلك سيغنى مجموعة مختارة من الأغانى الشعبية . أغانى " The Shepherd's Song " و " The Fish " ، و " The Little Deer " ، إلخ .

طوى السيد ساترثوايت الجريدة . إن معرفته بما ستستمع إليه جيليان بدت وكأنها تزيد من وضوح صورتها فى مخيلته . تجلس هناك وحيدة ...

يا له من مطلب غريب هذا الذى طلبه منها فيليب إيستنى . إن هذا ليس من طبعه ، ليس من طبعه على الإطلاق . إن إيستنى لم يكن شاعريًا . إنه رجل ذو مشاعر عنيفة ، رجل خطير ، ربما —

مرة أخرى جعلته هذه الفكرة يرتعد . رجل خطير - إن هذه العبارة تعنى شيئًا ما . " إن الخيوط كلها فى

يديك " . إن تلك المقابلة مع فيليب إيستنى الليلة ـ إنها غريبة حقًا . مصادفة جلبها له حظه السعيد . هل كانت مصادفة ؟ أم أنها كانت جزءًا من هذا المخطط الذى شعر به السيد ساترثوايت مرة أو مرتين هذه الليلة ؟

عاد بعقله إلى الوراء . لابد أن يكون هناك شيء ما فى حديث إيستنى ، دليل ما . لابد من هذا ، وإلا لماذا يساوره هذا الشعور الغريب بالإلحاح ؟ عم كان يتحدث ؟ الغناء ، الأعمال الحربية ، كاروزو .

كاروزو ـ انحرفت أفكار السيد ساترثوايت عن مسارها . إن صوت يوشبم كان مقاربًا لصوت كاروزو . إن جيليان سوف تستمع الآن إلى صوته القوى الجميل وهو يدوى عبر الغرفة جاعلاً الزجاج يهتز ـ

التقط نفسه . الزجاج يهتز ! إن كاروزو كان يغنى أمام كأس زجاجية فتنكسر . سيغنى يوشبم فى استوديو لندن ، وفى غرفة تبعد عنه مسافة تزيد عن ميل سيؤدى رنين صوته إلى تحطم كأس ـ ليست أى كأس ـ وإنما كأس كبيرة خضراء رفيعة . وسوف تسقط فقاعة الصابون الكريستالية ، تلك الفقاعة التى ربما لا تكون فارغة ...

وكان ذلك فى هذه اللحظة حينما جن جنونه ـ كما تراءى للمارة فى الشارع . فقد فتح الجريدة مرة أخرى وألقى نظرة سريعة على برنامج الراديو وبدأ يجرى وكأنه ينجو بحياته فى الشارع الهادئ . وفى نهايته وجد سيارة أجرة على وشك التوقف فقفز بداخلها ، وأخبر السائق

بالعنوان قائلاً له إنها مسألة حياة أو موت أن يصل إلى هناك سريعًا . وقد لبى السائق ـ الذى ظن أنه شخص معتوه ولكن غنى ـ مطلبه .

مال السيد ساترثوايت للخلف وداخل رأسه تجوب شظايا أفكار ومعلومات علمية منسية ، كان قد تعلمها بالمدرسة ، وعبارات قالها إيستنى هذه الليلة . الرنين ـ الدورات الطبيعية ـ فإذا تزامنت دورة القوة مع دورة طبيعية ـ كان هناك شيء ما يتعلق بجسر معلق ، جنود يسيرون فوقه ويتساوى وقع خطواتهم الواسعة مع دورة الجسر . لقد درس إيستنى هذا الموضوع . كان عليمًا به . وقد كان إيستنى عبقريًا .

وكان حفل يوشبم سيبدأ فى العاشرة وخمس وأربعين دقيقة . أى الآن . نعم ، ولكن ستذاع فاوست أولاً . إنه سيغنى " Shepherd's Song " تلك الأغنية ذات الصرخة العالية بعد اللازمة والتى سوف ـ التى سوف ـ تفعل ماذا ؟

كان عقله يدور ثانية . نغمات ، نغمات ، نغمات عالية ، نصف نغمات . إنه لم يكن يعرف الكثير عن هذه الأمور ـ ولكن إيستنى كان يعرف . ليته يصل فى الوقت المناسب .

توقفت السيارة الأجرة . خرج منها السيد ساترثوايت سريعًا ، وهرع فوق الدرجات الصخرية حتى الطابق الثانى كرياضى شاب . كان باب الشقة مواربًا . فتحه

ليسمع صوت المغنى العظيم . كان كلمات أغنية " The Shepherd's Song " مألوفة بالنسبة له بالرغم من أنه كان يسمعها فى مكان مختلف .

" أيها الراعى أترى الخيول الراكضة ـ "

لقد وصل فى وقت مناسب إذن . فتح بقوة باب غرفة الجلوس . كانت جيليان تجلس هناك فوق مقعد طويل إلى جوار المدفأة .

" ابنة بايرا ميشا ستتزوج الليلة :
لابد أن أتوجه إلى الزفاف سريعًا " .

لابد أنها اعتقدت أنه مجنون . أمسك بها وهو يقول شيئًا غير مفهوم ثم جذبها وجرها للخارج حتى خرجا إلى الدرج .

" لابد أن أتوجه إلى الزفاف سريعًا ،
يا ـ ها ! " .

إنها نغمة عالية وقوية خارجة من داخل الحلق ، نغمة لابد لأى مُغنٍ أن يفخر بها . وقد صاحب صوت هذه النغمة صوت آخر ، صوت تحطم زجاج .

مرت قطة ضالة أمامهما ثم دخلت الشقة عبر الباب المفتوح . تحركت جيليان ولكن السيد ساترثوايت أمسك بها وهو يتفوه بكلمات غير مترابطة ، مثل :

" لا ، لا ـــ إنـــه مميـت : لا رائحة ، لا شىء ليحذرك . فقط أثر ضئيل ، ثم ينتهى كل شىء . لا أحد يعلم إلى أى مدى هو مميت . فهو لا يشبه أى شىء تمت تجربته من قبل " .

كان يكرر العبارات التى قالها له فيليب إيستنى على طاولة العشاء هذه الليلة .

أخذت جيليان تحدق فيه وهى لا تفهم شيئًا مما يحدث .

٣

أخرج فيليب إيستنى ساعته ونظر فيها . كانت الساعة الحادية عشر والنصف . وطوال الخمس والأربعين دقيقة الماضية ، ظل يذرع الجسر جيئة وذهابًا . نظر إلى نهر التايمز ثم استدار ـ ليجد أمامه وجه رفيق العشاء .

قال وهو يضحك : " هذا غريب . يبدو أنه قدرنا أن نتقابل بهذه الطريقة هذه الليلة " .

قال السيد ساترثوايت : " لا أعتقد أن القدر هو الذى جعلنا نتقابل ثانية " .

نظر إليه فيليب إيستنى بمزيد من الاهتمام وتغير تعبير وجهه .

قال بهدوء : " نعم ؟ " .

تطرق السيد ساترثوايت إلى صلب الموضوع مباشرة . قال :

" لقد جئت لتوى من شقة الآنسة ويست " .

" نعم ؟ " .

كان يتحدث بنفس نبرة الصوت ونفس الهدوء القاتل .

" لقد أخرجنا قطًا ميتًا منها " .

سادت فترة صمت ثم قال إيستنى :

" من أنت ؟ " .

أخذ السيد ساترثوايت يتحدث لبرهة من الوقت . سرد كل الأحداث التى وقعت فى الفترة الماضية .

ختم حديثه قائلاً : " لذا كما ترى ، فقد وصلت فى الوقت المناسب " . سكت ثم أضاف برقة :

" هل لديك أى شىء لتقوله ؟ " .

وكان يتوقع شيئًا ما ، انفجارًا ما ، تبريرًا ما . ولكنه لم يقل شيئًا .

قال فيليب بهدوء : " لا " . ثم استدار وسار مبتعدًا .

ظل السيد ساترثوايت ينظر إليه حتى ابتلع الظلام جسده . وبالرغم من كل ما حدث ، فقد كان يحمل بداخله شعورًا بالألفة إزاء إيستنى ، حيث كان يشعر أنه

فنان مثله ، وشخص ملىء بالشاعرية مثله ، رجل عبقرى حقًا .

وفى النهاية ، انتصب واقفًا بعدما أجفل وبدأ يتحرك فى نفس الاتجاه الذى مضى فيه إيستنى . بدأ الضباب يحل على المكان . ثم قابل شرطيًا ، نظر إليه فى ريبة .

سأله الشرطى : " هل سمعت صوت سقوط شىء فى الماء ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " لا " .

أخذ الشرطى ينظر إلى النهر .

قال فى حزن : " حادثة انتحار أخرى على ما أعتقد . إن الناس تقوم بذلك طوال الوقت " .

قال السيد ساترثوايت : " أعتقد أن لديهم أسبابهم التى تدفعهم للقيام بذلك " .

قال الشرطى : " المال فى أغلب الأحيان . وفى أحيان أخرى يكون السبب امرأة ما " . وقبل أن يغادر قال : " لا يكون الأمر دومًا ناتجًا عن خطأ ارتكبوه . حيث من الممكن أن تتسبب امرأة ما فى متاعب كثيرة " .

وافقه السيد ساترثوايت قائلاً : " امرأة ما " .

وحينما مضى الشرطى لحاله ، جلس السيد ساترثوايت على أحد المقاعد والضباب يتكاثر حوله ، وبدأ يفكر فى هيلين أميرة طروادة وتساءل عما إذا كانت امرأة لطيفة وعادية ، وعما إذا كان وجهها الجميل بمثابة النعمة أم النقمة بالنسبة لها .

الفصل ٩

المهرج الميت

سار السيد ساترثوايث ببطء فى شارع بوند وهو يستمتع بأشعة الشمس . وكان كالعادة متأنقًا ، وكان يتجه إلى صالات عرض هارشستر ، حيث كان يقام معرض للوحات رسام يدعى فرانك بريستو ، وهو فنان جديد وغير معروف إلى الآن ، إلا أنه أظهر أمارات نبوغ مفاجئة . وكان السيد ساترثوايث محبًا لكل الفنون .

وعندما دخل السيد ساترثوايث معرض هارشستر تلقى التحية على الفور من وجه يبتسم فى تقدير :

" صباح الخير يا سيد ساترثوايث ، كنت أعتقد أننا سنراك قبل ذلك بوقت طويل . هل أنت على دراية بأعمال بريستو ؟ إنها جميلة - جميلة حقًا . فريدة من نوعها " .

اشترى السيد ساترثوايث كتالوجًا ودخل عبر المدخل المفتوح ليصل إلى الغرفة المفتوحة حيث كانت تعرض

أعمال الرسام . كانت اللوحات مرسومة بألوان مائية ، وتم تنفيذها بتقنية غير عادية حتى إنها كانت تشبه الكليشيهات الملونة . أخذ السيد ساترثوايت يسير ببطء أمام الجدران وهو يتفحص اللوحات بدقة ويستحسنها . كان يعتقد أن هذا الشاب يستحق هذه الزيارة . فقد كان يتمتع بالأصالة والرؤية ، وبتقنية جادة ودقيقة . وكانت هناك بعض السلبيات بالطبع . فهذا أمر متوقع ـ ولكن كان هناك أيضًا شىء يقارب العبقرية . توقف السيد ساترثوايت أمام لوحة صغيرة ، تصور جسر ويستمنستر ومن فوقه زحام الأتوبيسات والترامات والمارة . لوحة صغيرة ورائعة . وقد أطلق عليها اسم كومة النمل . سار للأمام وفجأة التقط نفسه وهو يشهق ، فقد أثير انتباهه على نحو آسر .

كانت هناك صورة تسمى المهرج الميت . كانت مقدمتها تمثل أرضية رخامية مرصعة مكونة من مربعات بيضاء وسوداء . وفى منتصف الأرضية كان يرقد مهرج على ظهره ، وذراعاه مبسوطتان ، ويرتدى زى المهرجين الأسود والأحمر . وخلفه كانت توجد نافذة وخارج هذه النافذة كان يقف ما بدا أنه ظل نفس الرجل تحجبه أشعة الشمس الحمراء ، كان يحدق فى الجثة الموجودة فوق الأرض .

وقد أثارت اللوحة اهتمام السيد ساترثوايت لسببين : الأول ، لأنه تعرف ـ أو اعتقد أنه تعرف ـ على وجه

الرجل الموجود بالصورة . فقد كان يحمل شبها بعيدا لرجل يدعى السيد كوين ، وهو شخص قد قابله السيد ساترثوايت مرة أو مرتين فى ظل ظروف مربكة ومحيرة .

تمتم قائلاً : " بالتأكيد ، أنا لست مخطئًا ـ ولكن ماذا يعنى ذلك ؟ " .

فمن خلال خبرته أدرك السيد ساترثوايت أن كل ظهور للسيد كوين كان يحمل فى طياته مغزى ما .

وكان هناك ـ كما ورد فى السابق ـ سبب آخر لفضول السيد ساترثوايت . فقد تعرف على هذا المكان الذى يوجد بالصورة .

قال السيد ساترثوايت : " إنها سقيفة فى منزل تشارنلى . أمر مثير للفضول حقًا " .

نظر بمزيد من الاهتمام إلى الصورة وهو يتساءل عما كان يدور فى خلد الرسام أثناء رسمه لها . مهرج ما ميت وممدد على الأرض ، مهرج آخر ينظر من خلال النافذة ـ أم هو نفس المهرج ؟ تحرك ببطء إلى جوار الجدران وهو يحدق فى باقى اللوحات دون انتباه ، فكان عقله منشغلاً بنفس الموضوع . فقد كان يشعر بالإثارة . فالحياة التى بدت له رتيبة بعض الشىء هذا الصباح لم تعد رتيبة على الإطلاق . فقد كان واثقًا من أنه كان على أعتاب أحداث مثيرة ومشوقة . سار إلى الطاولة حيث كان يجلس السيد كوب ، صاحب المقام الرفيع فى معرض هارشستر والذى كان يعرفه منذ سنوات عديدة .

قال : " إننى أرغب فى شراء اللوحة رقم ٣٩ ، إذا لم تكن قد بيعت بالفعل " .

فتح السيد كوب دفتره .

تمتم قائلا : " إنها أفضل لوحة بالمجموعة . إنها بمثابة الجوهرة ، أليس كذلك ؟ لا ، لم يشترها أحد " .

ثم أخبره بالسعر ، وقال : " إنها استثمار جيد يا سيد ساترثوايت . إنك ستضطر إلى أن تدفع هذا الثمن مضاعفاً ثلاث مرات فى هذا الوقت من العام المقبل " .

قال السيد ساترثوايت وهو يبتسم : " أنتم تقولون ذلك دومًا فى مثل هذه المواقف " .

سأله السيد كوب : " حسنًا ، ألم أكن محقًا فى هذه المرات ؟ فأنا لا أعتقد يا سيد ساترثوايت أنك إذا أردت أن تبيع إحدى لوحاتك فإنك ستحصل فى مقابلها على سعر أقل من ذلك الذى اشتريتها به " .

قال السيد ساترثوايت : " سوف أشترى هذه اللوحة . سوف أكتب لك شيكا الآن " .

" لن تندم على هذا . إننا نؤمن بعبقرية بريستو " .

" هل هو شاب ؟ " .

" إنه فى السابعة أو الثامنة والعشرين من عمره " .

قال السيد ساترثوايت : " إننى أود مقابلته . ربما يمكنه أن يأتى ويتناول العشاء معى فى ليلة ما ؟ " .

" بإمكانى أن أعطيك عنوانه . أنا واثق من أنه سيسعد بذلك . فأنت شخصية شهيرة فى عالم الفنون " .

قال السيد ساترثوايت : " إن فى ذلك إطراء لى " .

وبينما كان فى طريقه للخارج نادى عليه السيد كوب : " ها هو قد جاء . سوف أعرفك عليه حالاً " .

نهض من خلف طاولته . رافقه السيد ساترثوايت إلى حيث كان يميل شاب ضخم أخرق على الجدار ويشاهد العالم من حوله بوجه شديد العبوس .

قام السيد كوب بتقديمهما إلى بعضهما البعض ، وألقى السيد ساترثوايت خطبة قصيرة رسمية ولطيفة .

" لقد نلت لتوى شرف شراء إحدى لوحاتك ـ المهرج الميت " .

قال السيد بريستو بأسلوب فظ : " آه ، نعم ، إنها صفقة رابحة . فاللوحة جيدة للغاية " .

قال السيد ساترثوايت : " بإمكانى معرفة هذا . فأعمالك تثير اهتمامى إلى درجة كبيرة يا سيد بريستو . إنها ناضجة للغاية بالنسبة لرسام شاب . أتساءل إن كنت ستمنحنى شرف تناول العشاء معى فى ليلة ما ؟ هل لديك أية ارتباطات هذه الليلة " .

قال السيد بريستو بنفس النبرة الفظة : " فى الواقع لا " .

قال السيد ساترثوايت : " ما رأيك فى الساعة الثامنة إذن . إليك بطاقتى التى تحمل عنوانى " .

قال السيد بريستو : " آه ، حسنًا " ، ثم قال بعد فترة بدت وكأنه أمضاها فى التفكير : " شكرًا لك " .

" إنه شاب معتد بنفسه ، ويخشى أن يشاركه العالم هذا الشعور " .

كان هذا هو رأى السيد ساترثوايت المختصر عن الشاب ، والذى دار بذهنه أثناء خروجه تحت أشعة الشمس فى شارع بوند ، وكان رأى السيد ساترثوايت فى غيره من الناس نادرًا ما يخطئ .

وصل فرانك بريستو فى حوالى الثامنة وخمس دقائق ، ليجد مضيفه وضيفا ثالثا فى انتظاره . كان الشخص الثالث هو الكولونيل مونكتون . ذهبا لتناول العشاء على الفور تقريبًا . كان هناك مكان رابع معد على طاولة بيضاوية من خشب الماهوجنى ، وقد شرع السيد ساترثوايت فى تفسير ذلك .

قال : " كنت أتوقع حضور صديق لى . السيد كوين . أتساءل إن كنت قد قابلته من قبل . السيد هارلى كوين ؟ " .

دمدم بريستو : " أنا لا أقابل أحدًا " .

حدق الكولونيل مونكتون فى الرسام باهتمام بالغ وكأنه ينظر إلى فصيلة جديدة من قناديل البحر . وقد بذل السيد ساترثوايت قصارى جهده كى يحافظ على سلمية الحوار . قال :

" إن لوحتك تلك أثارت اهتمامى لأننى اعتقدت أننى تعرفت على المكان الموجود بها ، فقد تراءى لى أنه سقيفة منزل تشارنلى . ألست محقًا ؟ " . وحينما أومأ الرسام

واصل حديثه قائلاً : " إن ذلك أمر مثير للغاية . لقد مكثت فى تشارنلى عدة مرات فيما مضى . ربما تعرف أحدًا من أفراد العائلة ؟ " .

قال بريستو : " لا ، لا أعرف ! إن مثل هذه العائلات لا تكترث بمعرفة شخص مثلى . لقد ذهبت إلى هناك مستقلاً الحافلة " .

قال الكولونيل مونكتون استعدادًا لقول شىء آخر :

" يا إلهى . أذهبت بالحافلة ؟ يا إلهى " .

عبس فرانك بريستو فى وجهه .

سأل فى حدة : " لم لا ؟ " .

أجفل الكولونيل مونكتون وعاد للوراء . نظر إلى السيد ساترثوايت نظرة عتاب وكأنه يقول له :

" إن تلك الأشكال البدائية من الحياة قد تثير اهتمامك بصفتك عالمًا بالمذهب الطبيعى ، ولكن لماذا تقحمنى أنا بالأمر ؟ " .

قال : " إنها وسيلة مواصلات وحشية ، هذه الحافلات ! فهى لا تكف عن رجك عند المطبات " .

قال بريستو فى حدة : " إن كان ليس بإمكانك شراء سيارة رولز رويس ، فستضطر إلى استقلال الحافلات " .

حدق فيه الكولونيل مونكتون . فكر السيد ساترثوايت :

" إذا لم أستطع تهدئة هذا الشاب ، فسوف نعيش ليلة عاصفة للغاية " .

قال : " كان منزل تشارنلى يبهرنى دومًا ، وأنا لم أذهب هناك سوى مرة واحدة بعد المأساة . لقد أصبح مروعًا حقًا - ومليئًا بالأشباح " .

قال بريستو : " هذا صحيح " .

قال مونكتون : " إن هناك فى الواقع شبحين حقيقيين . فهم يقولون إن تشارلز الأول يسير جيئة وذهابًا بالسقيفة وهو يحمل رأسه تحت ذراعه - وقد نسيت سبب ذلك . ثم هناك السيدة الباكية ذات الإبريق الفضى ، والتى تظهر دومًا بعد وفاة أحد أفراد عائلة تشارنلى " .

قال بريستو بازدراء : " هراء " .

قال السيد ساترثوايت سريعًا : " إنها فعلاً عائلة سيئة الحظ . فأربعة من أفراد العائلة ماتوا بطرق شنيعة ، وقام اللورد تشارنلى بالانتحار " .

قال مونكتون بجدية : " أمر شنيع حقًا . لقد كنت هناك حينما حدث ذلك " .

قال السيد ساترثوايت : " دعنى أتذكر ، لقد كان ذلك منذ أربعة عشر عامًا ، وقد ظل المنزل مغلقًا منذ ذلك الحين " .

قال مونكتون : " أنا لست مندهشًا من هذا . لابد أن تلك كانت صدمة كبيرة بالنسبة لشابة صغيرة . كانا قد تزوجا منذ شهر واحد ، وكانا عائدين للمنزل بعد شهر العسل . وقد أقيم حفل كبير للترحيب بعودتهما . وبمجرد

أن بدأ الضيوف فى الوصول ، أغلق تشارنلى على نفسه باب غرفة قاعة الاستقبال الخشبية وأطلق النار على نفسه . إنه أمر غامض . أستميحك عذرًا ؟ " .

أدار رأسه بحدة إلى اليسار ، ونظر إلى السيد ساترثوايت ثم ضحك بطريقة تنم عن الاعتذار ، وقال :

" لقد بدأت أهذى يا ساترثوايت . لقد ظننت للحظة أن هناك شخصا ما يجلس على هذا المقعد الشاغر ، وأنه قال شيئًا لى " .

واصل حديثه بعد دقيقة أو اثنتين : " نعم . كانت صدمة كبيرة بالنسبة لأليكس تشارنلى . إنها واحدة من أجمل الفتيات التى يمكنك رؤيتهن ، ويتحقق فيها القول الذى عادة ما يقوله الناس بأنها ممتعة حقًا ، والآن يقولون إنها أصبحت مثل الشبح . وأنا لم أرها منذ سنوات . ولكننى أعتقد أنها تمضى معظم الوقت خارج البلاد " .

" ماذا عن الصبى ؟ " .

" الصبى فى إيتون . ماذا سيفعل عندما يكبر ، هذا أمر لا أعرفه . ولكنى لا أعتقد بأنه سيعيد فتح المنزل القديم " .

قال بريستو : " من الممكن أن يحوله إلى حديقة " .

نظر إليه الكولونيل نظرة اشمئزاز باردة .

قال السيد ساترثوايت : " لا ، لا . أنت لا تعنى هذا بالطبع . فأنت لم تكن لترسم هذه الصورة لو كنت تعنى

هذا . إن العرف والجو العام هما من الأمور غير الملموسة . وبناؤهما يستغرق قرونًا ، وإن قمت بتدميرهما فلن يكون بإمكانك إعادة بنائهما فى أربع وعشرين ساعة " .

نهض قائلاً : " دعونا نذهب إلى غرفة التدخين . إن لدىّ هناك بعض الصور لتشارنلى ، أود أن أريها لكما " .

كانت إحدى هوايات السيد ساترثوايت هى التصوير . وهو كان أيضًا مؤلف كتاب يسمى " منازل أصدقائى " . وقد قام بتمجيد جميع هؤلاء الأصدقاء وقد أظهر الكتاب السيد ساترثوايث نفسه بأنه يتمتع بمكانة أرفع من تلك التى يتمتع بها فى الواقع .

قال : " تلك هى صورة التقطتها لغرفة السقيفة فى العام الماضى " . أعطاها لبريستو قائلاً : " كما ترى فإنها تصور نفس الزاوية تقريبًا التى رسمتها فى صورتك . إن تلك هى سجادة رائعة حقًا - إنه الأمر مؤسف أن الصور لا تظهر الألوان " .

قال بريستو : " أنا أتذكرها . إنها رائعة الألوان . كانت تتوهج مثل الشعلة . ولكنها كانت لا تتواءم مع المكان . فكان حجمها لا يتلائم وهذه الغرفة الكبيرة ذات المربعات البيضاء والسوداء . ولم تكن هناك أية سجادة أخرى بالغرفة . لقد أفسدت التأثير الكلى - إنها تشبه بقعة الدم الكبيرة " .

قال السيد ساترثوايث : " ربما كانت هى التى ألهمتك فكرة الصورة ؟ " .

قال بريستو وهو يفكر بعمق : " ربما . ففى الحجرة المجاورة وقعت أحداث تراجيدية شنيعة " .

قال مونكتون : " قاعة الاستقبال الخشبية . نعم ، إن تلك هى الحجرة المسكونة بالأشباح . إن هناك ثقبا خفيا بها - فهناك لوح خشبى يتحرك عند المدفأة . وقد قيل بأن تشارلز الأول اختبأ هناك ذات مرة . وقد مات شخصان أثناء المبارزة فى هذه الغرفة . وهى التى قتل بها ريجى تشارنلى نفسه كما قلت " .

أخذ الصورة من يد بريستو .

قال : " إن تلك هى سجادة من بُخارَى . إنها تساوى نحو ألفى جنيه على ما أعتقد . حينما كنت هناك كانت مفروشة فى قاعة الاستقبال الخشبية - المكان المناسب لها . إنها تبدو سخيفة فوق تلك المساحة الواسعة من الأحجار الرخامية " .

كان السيد ساترثوايث ينظر إلى المقعد الشاغر الذى كان يوجد إلى جواره . ثم قال وهو يفكر بعمق : " أتساءل متى تم نقلها ؟ " .

" لابد أن ذلك حدث مؤخرًا . أتذكر أننى خضت حوارًا بشأنها ليلة وقوع الحادث . كان تشارنلى يقول إنها لابد أن توضع تحت الزجاج " .

هز السيد ساترثوايث رأسه قائلاً : " لقد تم إغلاق المنزل على الفور بعد الحادثة ، وتم ترك كل شىء فى مكانه " .

هم بريستو بالمشاركة فى الحوار بطرح سؤال ، وقد نحى جانبًا سلوكه العدوانى .

سأل : " لماذا أطلق اللورد تشارنلى النار على نفسه ؟ " .

تحرك الكولونيل مونكتون بشكل ينم عن عدم الراحة فى مقعده .

قال بغموض : " لم يعرف أحد أبدًا السبب فى ذلك " .

قال السيد ساترثوايت ببطه : " أعتقد أن ذلك كان انتحارًا " .

نظر إليه الكولونيل فى دهشة بالغة .

قال : " انتحار . نعم بالطبع ، كان انتحارًا يا عزيزى . لقد كنت هناك بنفسى " .

نظر السيد ساترثوايت تجاه المقعد الشاغر وابتسم لنفسه وكأنه استمع إلى مزحة خفية لم يسمعها الآخرون ، ثم قال بهدوء :

" إن المرء فى بعض الأحيان يرى الأمور بصورة أفضل وأوضح من تلك التى رآها بها فى وقتها بعد مضى فترة من الزمن " .

دمدم مونكتون : " هراء . هراء بكل ما فى الكلمة من معنى ! كيف يمكن للمرء أن يرى الأمور بشكل أفضل بعد أن أصبحت غامضة فى ذاكرته بدلاً من أن تكون واضحة وحادة ؟ " .

ولكن قام طرف غير متوقع ، بالمرة ، بتعزيز رأى السيد ساترثوايت .

قال الرسام : " أعلم ما تقصد . وأعتقد أنك محق . إن المسألة مسألة نسب ، أليس كذلك ؟ بل إنها تتعدى كونها مجرد نسب فقط . إنها النسبية وما إلى ذلك " .

قال الكولونيل : " إذا سألتنى عن رأيى ، فسأقول لك إن كل تلك القوانين الخاصة بأينشتاين هى مجرد هراء ، وكذلك الروحانيين وأشباح الجدة ! " ، حملق حوله بعنف .

واصل حديثه قائلاً : " بالطبع كان ذلك انتحارًا . ألم أقل إننى شهدت الحادثة بعينىَ ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " أخبرنا عنها إذن حتى نستطيع أن نراها بعينيك أيضًا " .

عادت إلى الكولونيل سكينته ، واعتدل فى مقعده ليجلس بشكل أكثر راحة .

بدأ كلامه قائلاً : " إن الأمر برمته لم يكن متوقعًا بالمرة . فقد كان تشارنلى شخصًا طبيعيًا . وكان هناك عدد كبير من الناس يمكثون فى المنزل استعدادًا للحفل ، ولم يتخيل أحد أنه قد يغادر الغرفة ويطلق النار على نفسه بمجرد بدء الضيوف فى الوصول " .

قال السيد ساترثوايت : " كان من الأفضل له أن ينتظر حتى مغادرة الضيوف " .

" نعم ، بالطبع - كيف أمكنه القيام بأمر مثل هذا " .

قال السيد ساترثوايت : " إن ذلك ليس من شيمه " .
قال مونكتون وهو يوافقه الرأى : " نعم ، إن ذلك ليس من شيم تشارنلى " .
" ومع ذلك ، فقد كان ذلك انتحارًا " .
" بالطبع كان انتحارًا . لقد كان هناك ثلاثة أو أربعة منا هناك أعلى السلالم ، أنا وابنة أوستراندر وأليجى دارسى - آه وضيف أو ضيفان آخران . فقد عبر تشارنلى الردهة بالأسفل متوجهًا إلى قاعة الاستقبال الخشبية . قالت ابنة أوستراندر إنه كانت هناك نظرة شنيعة على وجهه ، وأن عينيه كانتا تحملقان - ولكن بالطبع كان ذلك محض هراء - فإنه لم يكن بإمكانها حتى رؤية وجهه من حيث كنا نقف - ولكنه كان يسير منحنيا وكأنه يحمل كل هموم الدنيا فوق كتفيه . إحدى الفتيات نادته - كانت تعمل مربية لدى أحدهم على ما أعتقد - وقد دعتها الليدى تشارنلى إلى الحفل من باب الشفقة . كانت تبحث عنه لإبلاغه رسالة . نادت عليه : " أيها اللورد تشارنلى ، الليدى تشارنلى تريد أن تعلم ــــ " . ولكنه لم يعرها انتباهًا ، ومضى حتى دخل قاعة الاستقبال الخشبية وأغلق الباب وراء بقوة ، وسمعنا صوت المفتاح وهو يدور داخل القفل . ثم بعد ذلك بدقيقة *سمعنا الطلق النارى* .
هرعنا إلى الأسفل إلى الردهة . كان هناك باب آخر من قاعة الاستقبال يقود إلى غرفة السقيفة . جربنا الدخول من

هذا الباب ولكنه كان موصدًا أيضًا . وفى النهاية اضطررنا إلى أن نكسر الباب . كان تشارنلى يرقد على الأرض - ميتًا - وكان هناك مسدس إلى جوار يده اليمنى . الآن ، كيف يمكن للمرء أن يفسر ذلك سوى أنه انتحار ؟ حادث ؟ لا تقل لى غير هذا . وهناك احتمال آخر وهو أن يكون هذا جريمة قتل ولا يمكن أن تكون هناك جريمة قتل دون وجود قاتل . أنت تقر بذلك على ما أعتقد " .
اقترح السيد ساترثوايت قائلا : " ربما يكون القاتل قد هرب " .
" إن هذا مستحيل . إن كان لديك ورقة وقلم فسوف أرسم لك خريطة بالمكان . إن هناك بابين بقاعة الاستقبال الخشبية ، واحد يقود إلى الردهة وواحد يقود إلى غرفة السقيفة . وكلا هذين البابين كان موصدًا من الداخل . *وكانت المفاتيح بالأقفال* " .
" وماذا عن النافذة ؟ " .
" كانت مغلقة ، وكانت المصاريع موصدة " .
سادت فترة صمت .
قال الكولونيل مونكتون منتصرًا : " إذن ، هذا يبرهن على صحة كلامى " .
قال السيد ساترثوايت فى حزن : " يبدو أنك محق " .
قال الكولونيل : " أستميحك عذرًا ، رغم أننى كنت أسخر الآن من الروحانيين إلا أننى سأعترف أن المكان

كان يسوده جو لعين بدرجة غريبة ـ وخاصة هذه الغرفة . فهناك العديد من الثقوب الناجمة عن الرصاص فى ألواح الجدران ، وذلك بسبب المبارزات التى كانت تجرى فى هذه الغرفة وكانت هنالك بقعة غريبة على الأرض ، والتى كانت تعاود الظهور دائمًا بالرغم من قيامهم بتغيير الخشب عدة مرات . أعتقد أنه ستكون هناك بقعة دم أخرى على الأرض الآن ـ دم تشارنلى المسكين " .

سأل السيد ساترثوايت : " هل كان هناك الكثير من الدماء ؟ " .

" قدر ضئيل للغاية ـ بشكل يثير الفضول ـ كما قال الطبيب " .

" إلام أطلق النار على نفسه ، على رأسه ؟ " .

" لا ، فى قلبه " .

قال بريستو : " إن تلك ليست هى الطريقة الأسهل للقيام بالأمر . فمن الصعب للغاية أن يعرف المرء أين يوجد قلبه . أنا عن نفسى لم أكن لأقوم بهذا الأمر بهذه الطريقة " .

هز السيد ساترثوايت رأسه . كان يشعر بعدم الرضا بشكل غامض . كان يتمنى أن يصل إلى شىء ما ـ لم يكن يعرف ما هو . واصل الكولونيل مونكتون حديثه :

" إن شبح تشارنلى يجوب المكان الآن . بالطبع أنا لم أر شيئًا " .

" إنك لم تر السيدة الباكية ذات الإناء الفضى ؟ " .

قال الكولونيل مؤكدًا : " لا يا سيدى . ولكن أعتقد أن جميع الخدم بالمنزل رأوها " .

قال بريستو : " إن الإيمان بالخرافات كان هو لعنة العصور الوسطى . ومازال هناك أثر باق منه هنا وهناك الآن ، ولكن نحمد الله أننا فى طريقنا للتخلص منه " .

قال السيد ساترثوايت متأملاً ، وعيناه تتجهان ثانية ناحية المقعد الشاغر : " الإيمان بالخرافات . ألا تعتقد ـ فى بعض الأحيان ـ أنه يكون مفيدًا ؟ " .

حدق فيه بريستو ، وقال :

" مفيد ، إنها كلمة غريبة " .

قال الكولونيل : " أتمنى أن تكون قد اقتنعت الآن يا ساترثوايت " .

قال السيد ساترثوايت : " نعم ، تمامًا . ظاهريًا يبدو الأمر غريبًا ـ أمر لا معنى له بالنسبة لرجل تزوج حديثًا ، وكان شابًا ، وغنيًا ، وسعيدًا ، ويحتفل بعودته إلى المنزل ـ إنه أمر مثير للفضول ـ ولكنى أتفق معك أنه لا مهرب من الحقائق الموجودة أمامنا " . كرر برفق : " الحقائق " ، ثم قطب جبينه .

قال مونكتون : " أعتقد أن الشىء المثير هو أننا لن نعرف ، قط ، ما سر هذا الأمر . بالطبع كانت هناك شائعات ـ جميع أنواع الشائعات . أنت تعلم ماذا يمكن للناس أن يقولوا " .

قال السيد ساترثوايت وهو يفكر بعمق : " ولكن لم يكن هناك من يعلم أى شىء " .

قال بريستو ، مبديًا ملاحظة : " إنه لغز لم يستفد من ورائه أحد ، أليس كذلك ؟ فلم يجن أحد شيئًا من وراء موت الرجل " .

قال السيد ساترثوايت : " لا أحد ، ما عدا طفل لم يولد بعد " .

ضحك مونكتون بحدة وقال : " لقد كانت بمثابة الصدمة لهوجو تشارنلى المسكين . فبمجرد أن أذيع الخبرُ بأن هناك طفلا قادما فى الطريق أخذ على عاتقه مهمة الانتظار ليرى إن كان الطفل سيكون فتى أم فتاة . وكانت فترة انتظار عصيبة لدائنيه كذلك . وفى النهاية أتى الصبى ليتملك الإحباط من الكثيرين " .

سأل بريستو : " هل كانت الأرملة منفطرة القلب للغاية ؟ " .

قال مونكتون : " الفتاة المسكينة . أنا لن أنساها قط . إنها لم تبك أو تنهر أو أى شىء . لقد كانت شبه - مجمدة . وكما قلت ، فقد أغلقت المنزل بعد ذلك بفترة قصيرة ، وعلى حد علمى فإنه لم يُعَدْ فتحه إلى الآن " .

قال بريستو وهو يضحك ضحكة صغيرة : " إذن ، فمازال الدافع مبهمًا بالنسبة لنا . رجل آخر أو امرأة أخرى ، لابد أن السبب كان أحدهما ، أليس كذلك ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " يبدو الأمر كذلك " .

واصل بريستو حديثه قائلاً : " وفى أغلب الظن فإن امرأة هى التى كانت وراء ما حدث ؛ حيث إن الأرملة الحسناء لم تتزوج ثانية . أنا أبغض النساء " ، أضاف هذه العبارة الأخيرة بهدوء .

ابتسم السيد ساترثوايت قليلاً ، وقد رأى فرانك بريستو الابتسامة وأخذ منها ذريعة للهجوم .

قال : " أنت قد تبتسم غير مصدق هذا ، ولكننى بالفعل أبغضهن . إنهن يفسدن كل شىء ، ويتدخلن فى كل شىء . ويقفن حائلاً بينك وبين عملك . إنهن - لقد تقابلت مرة واحدة فقط مع امرأة والتى كانت - حسنًا مثيرة للاهتمام " .

قال السيد ساترثوايت : " أعتقد بالفعل أن العالم به نساء مثيرات للاهتمام " .

" ليس بالطريقة التى تقصدها . لقد تقابلت معها بشكل عرضى . فى الواقع كان ذلك فى قطار . فبالرغم من كل شىء " ، أضاف بتحد : " ما الذى يعيب التعرف على الآخرين فى القطارات ؟ " .

قال السيد ساترثوايت مهدئا إياه : " بالتأكيد ، بالتأكيد . إن القطار هو مكان جيد مثل أى مكان آخر " .

" كان القطار قادمًا من الشمال . كنا نجلس فى العربة وحدنا . ولا أعرف السبب فى ذلك ولكننا بدأنا نتحدث . أنا لا أعرف اسمها ولا أعتقد أننى سأراها مرة أخرى . ولا أعرف إن كنت أريد مقابلتها ثانية . ربما - أمر مؤسف " .

سكت عن الكلام وهو يصارع كى يعبر عن مشاعره ، ثم أضاف : " إنها لم تكن حقيقية . مجرد وهم . مثل الأشخاص الذين يخرجون من التلال فى الحكايات الخرافية " .

أومأ السيد ساترثوايت برقة . فقد تصور خيال الصورة بسهولة . بريستو الواقعى والإيجابى وشخصية أخرى فضية وخيالية ـ وهمية كما قال بريستو .

" أعتقد أنه لو حدث شيء شنيع للغاية ، شيء شنيع لدرجة غير محتملة ، فقد يصبح المرء على هذا الحال . فالمرء قد يهرب من الواقع إلى عالم آخر من صنعه هو . وبالطبع بعد فترة من الوقت يعجز عن العودة " .

سأل السيد ساترثوايت بفضول : " هل هذا هو ما حدث لها ؟ " .

قال بريستو : " لا أعلم . إنها لم تخبرنى بشيء ، أنا فقط أخمن . فلابد للمرء أن يخمن إن كان يرغب فى معرفة شيء ما " .

قال السيد ساترثوايت ببطء : " نعم ، على المرء أن يخمن " .

نظر إلى أعلى حيث فتح أحدهم الباب . أخذ ينظر فى لهفة ، إلا أن كلمات كبير الخدم أحبطته .

" إن هناك سيدة تقول إنها تود رؤيتك فى أمر عاجل يا سيدى ، الآنسة أسبازيا جلين " .

نهض السيد ساترثوايت وهو يشعر ببعض الدهشة . إنه يعرف اسم أسبازيا جلين جيدًا . من فى لندن لا يعرفها ؟ كانت تعرف فى البداية باسم السيدة ذات الوشاح ، وهى قد قدمت سلسلة من الحفلات الصباحية الفردية التى اجتاحت لندن . فبمساعدة وشاحها استطاعت أن تمثل العديد من الشخصيات بسرعة . فمرة يكون الوشاح قلنسوة راهبة ، ومرة يكون شال عاملة طاحونة ، ومرة غطاء رأس فلاحة ، ومئات الأشياء الأخرى ، وعند تقمص كل شخصية تكون أسبازيا جلين مختلفة تمامًا . فبصفتها فنانة ، كان السيد ساترثوايت يُكنُّ لها احترامًا بالغًا . ولكنه لم يكن يعرفها معرفة شخصية . وزيارتها له فى هذا الوقت الغريب أربكته للغاية . بعدما اعتذر للآخرين ، غادر الغرفة وعبر الردهة إلى غرفة الاستقبال .

كانت الآنسة جلين تجلس فى منتصف أريكة كبيرة مُنجدة من قماش ذى تطريز ذهبى . كان تجلس باتزان بحيث هيمنت على الغرفة . وقد أدرك السيد ساترثوايت على الفور أنها أرادت الهيمنة على الموقف . والمثير أن انطباعه الأول كان الاشمئزاز . لقد كان من بين أكبر المعجبين بفن أسبازيا جلين . فكانت شخصيتها ـ كما تراءى له من خلال أعمالها المسرحية ـ ساحرة ومتعاطفة . فكان أداؤها بالمسرح حزينًا وموحيًا وليس مهيمنًا . ولكن الآن وبعد أن التقى بالمرأة وجهًا لوجه تكون لديه انطباع

مختلف تمامًا . فقد بدت له صلبة وجريئة وقوية . كانت طويلة وداكنة البشرة ، وتبلغ حوالى خمسة وثلاثين عامًا من العمر . وكانت ، بدون شك ، جميلة للغاية ، ومن الواضح أنها كانت تدرك هذا .

قالت : " لابد أن تسامحنى على هذه الزيارة المفاجئة يا سيد ساترثوايت " . كان صوتها ناضجًا ومغريًا .

" لن أقول إننى كنت أود التعرف عليك منذ فترة طويلة ، ولكننى سعيدة لوجود سبب سيجعلنى أتعرف إليك . لقد أتيت الليلة " - ضحكت - " حسنًا ، حينما أريد شيئًا فأنا ، ببساطة ، لا أستطيع الانتظار . فلابد أن أحصل عليه " .

قال السيد ساترثوايت بتودد عتيق الطراز : " أى سبب يجلب إلى منزلى سيدة ساحرة مثلك لابد أن يروق لى " .

قالت أسبازيا جلين : " أنت لطيف للغاية " .

قال السيد ساترثوايت : " يا عزيزتى ، هلا سمحت لى بتقديم الشكر لك هنا ، والآن ، على كل تلك البهجة التى منحتها إياى وأنا أجلس على مقعدى فى صفوف المسرح " .

ابتسمت له فى بهجة ، وقالت :

" سوف أدخل فى صلب الموضوع مباشرة . لقد ذهبت إلى صالات عرض هارشستر اليوم . وقد رأيت لوحة هناك أعتقد أننى لا أستطيع أن أعيش بدونها . وقد أردت

شراءها ، ولكننى لم أستطع ذلك لأنك كنت قد اشتريتها بالفعل . لذلك — " سكتت قليلاً ثم واصلت حديثها قائلة : " أنا أريدها حقًا . يا عزيزى السيد ساترثوايت ، ببساطة ، لابد أن أحصل عليها . لقد جلبت معى دفتر شيكاتى " . نظرت إليه فى أمل ، وقالت : " إن الجميع يقولون لى إنك عطوف للغاية . والناس عادة ما يكونون كرماء معى كما تعرف . إنه أمر سخيف بالنسبة لى - ولكن هذا هو ما يحدث " .

إذن ، تلك كانت أساليب أسبازيا جلين . فكان السيد ساترثوايت فى قرارة نفسه ينتقد هذه الأنوثة المبالغ فيها وأسلوب الطفل المدلل الذى كانت تستخدمه . كان لابد أن يروق له مثل هذا الأسلوب كما اعتقد ولكنه لم يحظ بإعجابه بالمرة . لقد ارتكبت أسبازيا جلين خطأ . لقد اعتقدت بأنه محب للفنون عجوز ويسهل على امرأة جميلة أن تجعله يشعر بالإطراء . ولكن خلف ذلك المظهر المتودد كان السيد ساترثوايت يتمتع بعقلية انتقادية قاسية . لقد كان باستطاعته أن يرى الناس على حقيقتهم لا كما يرغبون أن يظهروا أمامه . لقد رأى أمامه - ليس امرأة ساحرة تسعى وراء نزوة ما - ولكن سيدة أنانية متحجرة القلب ، عاقدة العزم على الحصول على بغيتها لسبب ما لا يعرفه . وكان يعلم أن أسبازيا جلين لن تحصل على مبتغاها . فهو لن يتنازل لها عن لوحة المهرج

الميت . أخذ يبحث فى عقله سريعًا عن أفضل طريقة يمكنه مراوغتها بها دون أن يكون شديد الوقاحة .

قال : " أنا واثق من أن الجميع يعطونك كل ما تريدينه ويكونون سعداء بذلك " .

" إذن سوف تعطينى اللوحة " .

هز السيد ساترثوايت رأسه ببطء فى حسرة وأسف ، قائلا :

" أخشى أن ذلك مستحيل . فأنا " ـ سكت قليلاً ـ " فأنا قد اشتريت هذه اللوحة لسيدة ما . إنها هدية " .

" نعم ، ولكن بالتأكيد ـ "

رن الهاتف فوق الطاولة بحدة . اعتذر السيد ساترثوايت للسيدة ، ثم أجاب الهاتف . تحدث إليه صوت صغير وبارد يبدو أنه يتحدث من بعيد .

" هل يمكننى التحدث إلى السيد ساترثوايت من فضلك ؟ " .

" أنا السيد ساترثوايت " .

" أنا الليدى تشارنلى . أليكس تشارنلى ، أعتقد أنك لا تتذكرنى يا سيد ساترثوايت ، فنحن لم نتقابل منذ العديد من السنوات " .

" عزيزتى أليكس . بالطبع أتذكرك " .

" إن هناك شيئًا أردت أن أطلبه منك . لقد كنت فى صالات عرض هارشستر حيث يقام أحد المعارض اليوم ، وكانت هناك لوحة تدعى المهرج الميت ، ربما تكون قد

تعرفت عليها ـ لقد كانت غرفة السقيفة فى تشارنلى . أنا ـ أنا أريد هذه اللوحة . لقد بيعت إليك " . سكتت ، ثم أضافت : " يا سيد ساترثوايت ، لأسباب خاصة بى أنا أريد هذه اللوحة . هلا بعتها لى من فضلك ؟ " .

فكر السيد ساترثوايت بينه وبين نفسه : " إن تلك معجزة " . وبينما كان يتحدث فى الهاتف كان ممتنًا لأن أسبازيا جلين كان بإمكانها سماع طرف واحد من الحوار .

" أتمنى أن تقبلى هديتى يا عزيزتى ، فذلك سوف يسعدنى للغاية " . سمع صيحة ذهول حادة خلفه ، ولكنه واصل حديثه . لقد اشتريتها من أجلك . ولكن اسمعى يا عزيزتى أليكس ، أريد أن أطلب منك معروفًا وأتمنى لو كان بمقدورك القيام به " .

" بالطبع يا سيد ساترثوايت ، أنا ممتنة لك للغاية " .

قال : " أريدك أن تأتى إلى منزلى الآن ، على الفور " .

سادت فترة صمت قصيرة ، ثم قالت سريعًا :

" سوف آتى على الفور " .

وضع السيد ساترثوايت سماعة الهاتف واستدار ناحية الآنسة جلين .

قالت سريعًا وبغضب :

" هل هى اللوحة التى كنت تتحدث عنها ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " نعم . إن السيدة التى سأقدم لها الهدية قادمة الآن خلال دقائق " .

فجأة ابتسم وجه أسبازيا جلين مرة أخرى . قالت : " هل ستمنحنى الفرصة لإقناعها بإعطائى الصورة ؟ " .

قال : " سوف أمنحك فرصة إقناعها " . بداخله ، كان يشعر بإثارة بالغة . لقد كان فى منتصف دراما تنسج نفسها حوله إلى أن تصل إلى نهاية حتمية . وقد كان يلعب دور البطولة . استدار للآنسة جلين ، وقال :

" هلا أتيت معى إلى الغرفة الأخرى ؟ أريد منك مقابلة بعض أصدقائى " .

فتح لها الباب ، ثم عبرا الردهة وفتح باب غرفة التدخين .

قال : " يا آنسة جلين . دعينى أقدمك لصديق قديم لى ، الكولونيل مونكتون ، والسيد بريستو الفنان الذى رسم اللوحة التى تعجبك للغاية " . وبعد ذلك أجفل حينما نهض شخص ثالث من فوق المقعد الذى تركه شاغرًا إلى جوار مقعده .

قال السيد كوين : " أعتقد أنك كنت تتوقع حضورى هذه الليلة . أثناء غيابك قدمت نفسى لصديقيك . أنا سعيد للغاية لأننى استطعت المجىء " .

قال السيد ساترثوايت : " يا صديقى العزيز . أنا ـ أنا أواصل المسيرة بأفضل الطرق المكنة ولكن ــــ " . توقف عن الحديث أمام النظرة التهكمية بعينى السيد كوين

الداكنتين ، ثم أضاف : " دعونى أعرفكما على بعضكما البعض ؛ السيد هارلى كوين ، الآنسة أسبازيا جلين " .

هل كان ذلك مجرد خيال أم أنها بالفعل تراجعت للخلف قليلاً . لقد تسلل إلى وجهها تعبير مثير للفضول . وفجأة تحدث بريستو فى صخب ، قائلاً : " لقد فهمت " .

" فهمت ماذا ؟ " .

" فهمت ما كان يربكنى . إن هناك شبهًا ، شبهًا بعيدًا " . كان يحدق بفضول فى السيد كوين . " هل تراه ؟ " ـ استدار ناحية السيد ساترثوايت ـ " ألا ترى شبهًا بعيدًا بينه وبين المهرج الذى فى الصورة ـ الرجل الذى كان ينظر عبر النافذة ؟ " .

لم يكن الأمر خيالاً هذه المرة . فقد سمع الآنسة جلين تتنفس بحدة حتى أنها تراجعت خطوة للخلف .

قال السيد ساترثوايت : " لقد قلت لكم إننى كنت أتوقع حضور شخص ما " . كان يتحدث بنبرة صوت تنم عن الانتصار . أضاف : " لابد أن أخبركم أن صديقى السيد كوين هو رجل غير عادى . إن بإمكانه حل الألغاز . إن بمقدوره جعلكم ترون أشياء ... " .

سأل الكولونيل مونكتون ، وهو ينظر إلى السيد كوين فى شك : " هل أنت وسيط روحى يا سيدى ؟ " .

ابتسم الأخير وهز رأسه ببطء .

قال بهدوء : " إن السيد ساترثوايت يبالغ . فمرة أو مرتين ، حينما كنت بصحبته ، نجح فى القيام ببعض الاستنتاجات الاستثنائية . لماذا يرجع الفضل لى فى سؤال ليست لدىّ إجابة عنه . أعتقد أنه تواضع " .

قال السيد ساترثوايت وهو يشعر بالإثارة : " لا ، لا . إن الأمر ليس كذلك . إنك تجعلنى أرى أشياء ـ أشياء كان لابد لى أن آراها ـ والتى رأيتها بالفعل ـ ولكن دون أن أعرف أننى رأيتها " .

قال الكولونيل مونكتون : " يبدو لى الأمر معقدًا إلى حد كبير " .

قال السيد كوين : " ليس تمامًا . المشكلة أننا لا نكتفى فقط برؤية الأشياء ـ بل أننا نسلك السبيل الخطأ فى تفسير الأشياء التى نراها " .

استدارت أسبازيا جلين ناحية فرانك بريستو .

قالت بعصبية : " أريد أن أعرف ، ما الذى جعلك ترسم هذه الصورة ؟ " .

هز بريستو كتفيه فى عدم مبالاة واعترف قائلاً : " لا أعرف . إن هناك شيئا ما بخصوص هذا المكان ـ بخصوص تشارنلى ـ استحوذ على خيالى . الغرفة الكبيرة الشاغرة . السقيفة فى الخارج . فكرة الأشباح ومثل هذه الأمور على ما أعتقد . كنت قد سمعت حكاية اللورد تشارنلى الذى أطلق الرصاص على نفسه . فإذا افترضنا أنك ميتة وأنك خلفت شبحًا وراءك فلابد أن الأمر سيكون غريبًا . فأنت

قد تقفين فى الخارج بالسقيفة تنظرين عبر النافذة إلى جثتك ، وسوف يكون بإمكانك رؤية كل شىء " .

قالت أسبازيا جلين : " ماذا تعنى ؟ ماذا تعنى برؤية كل شىء ؟ " .

" حسنًا ، سوف ترين ما حدث . سوف ترين ـــ " .

فتح كبير الخدم الباب ، وأعلن عن وصول الليدى تشارنلى .

ذهب السيد ساترثوايت لمقابلتها . إنه لم يرها منذ نحو ثلاثة عشر عامًا . وكان يتذكرها كفتاة مشرقة ومتحمسة . ولكنه الآن رأى ـ سيدة مجمدة . جميلة للغاية ، شاحبة للغاية ، تبدو وكأنها تنجرف لا تسير . تبدو مثل كرة ثلجية يحركها الهواء الثلجى بشكل عشوائى . باردة للغاية ، شاردة للغاية .

قال السيد ساترثوايت : " كم كان لطيفًا منك أن تأتى " .

قادها للأمام . أومأت للآنسة جلين التى لم تصدر عنها أية استجابة ، ثم توقفت أمامها .

قالت : " أستميحك عذرًا ، ولكننى واثقة أننا تقابلنا فى مكان ما ، أليس كذلك ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " ربما فى المسرح . إن هذه هى الآنسة أسبازيا جلين يا ليدى تشارنلى " .

قالت أسبازيا جلين : " أنا سعيدة للغاية لمقابلتك يا ليدى تشارنلى " .

تغيرت نبرة صوتها فجأة ، مما جعل السيد ساترثوايت يتذكر أحد الأدوار المسرحية التي تقمصتها .

واصل السيد ساترثوايت حديثه قائلا : " الكولونيل مونكتون كما تعرفين ، وهذا هو السيد بريستو " .

رأى تغيرًا طفيفًا بلون وجنتيها . قالت وهى تبتسم " أنا والسيد بريستو تقابلنا قبل ذلك أيضًا . فى قطار " .

" والسيد هارلى كوين " .

نظر إليها عن كثب ، ولكن هذين الشخصين لم يكونا يعرفان بعضهما البعض . وضع مقعدًا لها ، وبعد ذلك جلس وقام بتنقية صوته وتحدث ببعض العصبية : " أنا - إن هذا هو تجمع غير عادى بعض الشىء . إنه يتمركز حول هذه اللوحة . أعتقد أننا إذا أردنا ذلك فسوف نستطيع توضيح الأمور " .

سأل الكولونيل مونكتون : " إنك لن تعقد جلسة روحية يا ساترثوايت ؟ إنك غريب جدًا هذه الليلة " .

قال السيد ساترثوايت : "لا ، ليست جلسة استحضار أرواح . ولكن صديقى السيد كوين يؤمن - وأنا أوافقه الرأى - أن المرء بإمكانه عبر النظر إلى الماضى أن يرى الأشياء كما كانت ، لا كما ظهرت له" .

قالت الليدى تشارنلى : " الماضى ؟ " .

" أنا أتحدث عن انتحار زوجك يا أليكس . أعلم أن هذا الأمر يؤلمك —" .

قالت أليكس تشارنلى : " لا . إنه لا يؤلمنى . لا شىء يؤلمنى الآن " .

فكر السيد ساترثوايت فى كلمات فرانك بريستو : " *إنها لم تكن حقيقية . إنها تشبه هؤلاء الأشخاص الذين يخرجون من التلال فى الحكايات الخرافية* " .

" مثل الوهم " ، كما قال . إن تلك الكلمة وصفتها بدقة . إنها تشبه الظل ، إنها انعكاس لشىء آخر .

أين ، إذن ، كانت أليكس الحقيقية ، وقد قام عقله بالإجابة سريعًا : " فى الماضى . يفصلها عنا فترة زمنية تقدر بأربعة عشر عامًا " .

قال : " يا عزيزتى . أنت تخيفيننى . أنت تشبهين السيدة الباكية ذات الإبريق الفضى " .

سقط قدح القهوة ، الذى كان بجوار مرفق أسبازيا على الأرض ، مصدرًا صوت تحطم . قبل السيد ساترثوايت اعتذارها . فكر بينه وبين نفسه : " إننا نقترب . إننا نقترب فى كل لحظة - ولكن إلام نقترب " .

قال : " دعونا نعد بذاكرتنا إلى هذه الليلة قبل أربعة عشر عامًا . لقد قتل اللورد تشارنلى نفسه . لماذا ؟ لا أحد يعرف " .

تحركت الليدى تشارنلى باضطراب قليلاً فى مقعدها .

قال فرانك برستو فجأة " : إن الليدى تشارنلى تعرف " .

قال الكولونيل مونكتون : " هراء " . ثم سكت وهو ينظر إليها مقطبًا جبينه فى فضول .

كانت تنظر إلى الرسام . كان الأمر يبدو وكأنه قد استحثها على الكلام . تحدثت وهى تومىء برأسها ببطء ، وكان صوتها يشبه الكرة الثلجية ، باردًا ورقيقًا :

" نعم إنك محق . أنا أعرف . ولهذا السبب لن أستطيع العودة إلى منزل تشارنلى طالما حييت . ولهذا السبب ، حينما يطلب منى ابنى ديك إعادة فتح المنزل لنعيش فيه ثانية سأخبره أنه ليس فى الإمكان ذلك " .

قال السيد كوين : " هلا أخبرتنا عن السبب يا ليدى تشارنلى ؟ " .

نظرت إليه . وبعد ذلك ، وكأنها منومة مغناطيسيًا ، تحدثت بهدوء وطبيعية كأنها طفل :

" سوف أخبرك إن كنت تريد ذلك . لا يبدو أنه هناك ما يهم الآن . لقد وجدت خطابًا بين أوراقه وقمت بتدميره " .

قال السيد كوين : " أى خطاب ؟ " .

" خطاب من الفتاة ـ من تلك الفتاة المسكينة . لقد كانت مربية حضانة ميريام . لقد ـ لقد قام بمعاشرتها ـ نعم ، حينما كنا مخطوبين قبل زواجنا مباشرة . وهى ـ هى كانت ستنجب طفلاً هى الأخرى . لقد كتبت تقول له

ذلك ، وإنها ستخبرنى . لذا ، كما ترى ، فقد أطلق الرصاص على نفسه " .

نظرت إليهم فى ضجر ، وبشكل حالم مثل الطفل الذى كرر درسًا يعرفه جيدًا .

تنهد الكولونيل مونكتون .

قال : " يا إلهى ، إذن الأمر كذلك . إن ذلك يفسر ما حدث تمامًا " .

قال السيد ساترثوايت : " حقًا ؟ إن ذلك لا يفسر أى شىء . إنه لا يفسر لماذا قام السيد بريستو برسم هذه اللوحة " .

" ماذا تعنى ؟ " .

نظر السيد ساترثوايت للسيد كوين وكأنه يستجدى التشجيع ، والذى يبدو أنه حصل عليه ، حيث إنه واصل حديثه قائلاً :

" نعم ، أعلم أننى أبدو مجنونًا أمامكم جميعًا ، ولكن تلك الصورة هى محور الأمر برمته . إننا جميعًا هنا الليلة بسبب هذه الصورة . كان لابد من رسم هذه اللوحة ـ إن هذا هو ما أعنيه " .

سأل الكولونيل مونكتون : " أتعنى التأثير الغريب لقاعة الاستقبال ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " لا . ليس قاعة الاستقبال . غرفة السقيفة . إنها هى ! روح الرجل الميت تقف خارج النافذة وتنظر إلى جسدها الميت الممدد على الأرض " .

قال الكولونيل : " وهو الأمر المستحيل لأن الجثة كانت بقاعة الاستقبال " .

قال السيد ساترثوايت : " لنفترض أنها لم تكن هناك ، لنفترض أنها كانت هناك حيث رآها السيد بريستو . رآها في خياله ، أعنى على الأرضية ذات المربعات البيضاء والسوداء أمام النافذة " .

قال الكولونيل مونكتون : " إن ما تقوله هو محض هراء ، لو كانت هناك لما كنا قد وجدناها في قاعة الاستقبال " .

قال السيد ساترثوايت : " إلا إذا حملها شخص ما وأدخلها هناك " .

سأل الكولونيل مونكتون : " وفي هذه الحالة ، كيف كان بإمكاننا رؤية تشارنلي يدخل قاعة الاستقبال ؟ " .

سأل السيد ساترثوايت : " حسنًا ، إنك لم تر وجهه ، أليس كذلك ؟ ما أعنيه أنك رأيت رجلا يرتدى ملابس تنكرية يدخل قاعة الاستقبال ، على ما أعتقد " .

قال مونكتون : " ملابس مطرزة وشعر مستعار " .

" تمامًا ، وقد افترضت أن هذا هو اللورد تشارنلي لأن الفتاة نادته باسم اللورد تشارنلي " .

" ولأننا حينما دخلنا الغرفة ، بعد ذلك بدقائق معدودة ، كان اللورد تشارنلي ممددًا على الأرض وحده . إنك لا تستطيع الهرب من تلك الحقيقة يا ساترثوايت " .

قال السيد ساترثوايت في إحباط : " لا ، لا - إلا إذا كان هناك مكان للاختباء في مكان ما " .

قال فرانك بريستو : " أنت كنت تقول شيئًا عن ثقب خفي بهذه الغرفة ؟ " .

صاح السيد ساترثوايت : " آه ! على افتراض — ؟ " . لوح بيده طالبًا الهدوء وغطى جبهته بيده الأخرى ، وبعد ذلك تحدث ببطء وتردد ، قال :

" إن لدىَّ فكرة - ربما تكون مجرد فكرة ، ولكننى أعتقد أنها ممكنة . لنفترض أن شخصًا ما أطلق الرصاص على اللورد تشارنلي . أطلق عليه الرصاص في غرفة السقيفة . وبعد ذلك قام هو - وشخص آخر - بجر الجثة إلى قاعة الاستقبال . وقد وضعاها هناك ووضعا المسدس بجوار اليد اليمنى . الآن لننتقل إلى الخطوة التالية . لابد وأن يبدو الأمر وكأن اللورد تشارنلي قد انتحر . وأعتقد أن ذلك كان أمرًا يسيرًا للغاية . الرجل الذى يرتدى الملابس المطرزة والشعر المستعار يمر عبر الردهة ويدخل قاعة الاستقبال ثم ينادى عليه أحد الأشخاص من فوق الدرج باسم اللورد تشارنلي . يدخل ويوصد الباب ويطلق رصاصة في خشب الغرفة . وكانت هناك طلقات نارية بالفعل في هذه الغرفة كما تتذكرون ، لذا فإن واحدة أخرى ستمر دون ملاحظة . بعد ذلك يختبأ بهدوء في الغرفة السرية . يتم كسر الأبواب ويهرع الناس إلى الداخل . يبدو الأمر

وكأن اللورد تشارنلى قد قتل نفسه ، لاشك فى ذلك . وبالتالى لا يضع أحد أية فرضيات أخرى " .

قال الكولونيل مونكتون : " حسنًا ، أعتقد أن ذلك هراء . لقد نسيت أن تشارنلى كان لديه دافع للانتحار " .

قال السيد ساترثوايت : " خطاب عثروا عليه لاحقًا . إن هذا الخطاب ما هو إلا كذبة حقيرة قامت بكتابته ممثلة صغيرة ماكرة وعديمة الضمير ، أرادت فى يوم ما أن تأخذ مكان الليدى تشارنلى " .

" ماذا تعنى ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " أعنى الفتاة المتحالفة مع هوجو تشارنلى . لقد كان الجميع يعرف ، يا مونكتون ، أن الرجل كان وغدًا حقيقيًا . فقد كان واثقًا من أنه سيحصل على اللقب " . استدار بحدة ناحية الليدى تشارنلى وقال : " ما اسم الفتاة التى كتبت الخطاب ؟ " .

قالت الليدى تشارنلى : " مونيكا فورد " .

" هل كانت هى مونيكا فورد ، يا مونكتون ، التى نادت على اللورد تشارنلى من أعلى السلالم ؟ " .

" نعم ، الآن أعتقد أنك محق " .

قالت الليدى تشارنلى : " إن هذا مستحيل . لقد ذهبت إليها بخصوص هذا الأمر . وقد أخبرتنى أن الأمر حقيقى . وأنا لم أرها سوى مرة واحدة بعد ذلك . ولكن ، بالتأكيد ، هى لم تكن تمثل طوال الوقت " .

نظر السيد ساترثوايت عبر الغرفة إلى أسبازيا جلين .

قال بهدوء : " أعتقد أنه كان بإمكانها ذلك . فأعتقد أنها كانت تملك بداخلها مقومات ممثلة قديرة " .

قال فرانك بريستو : " إن هناك شيئا واحدا لم تفسره ، كان سيكون هناك دم على أرضية غرفة السقيفة . لابد من هذا . ما كان يمكنهم تنظيف مثل هذا الدم فى عجلة " .

قال السيد ساترثوايت : " لا ، ولكن هناك شىء آخر يستطيعون فعله ـ شىء لن يستغرق سوى ثانية أو ثانيتين . يستطيعون إلقاء سجادة من بخارى فوق بقعة الدم فى غرفة السقيفة فى هذه الليلة " .

قال مونكتون : " أعتقد أنك محق ، ولكن كان لابد من تنظيف كل بقع الدم هذه فى وقت ما " .

قال السيد ساترثوايت : " نعم ، فى منتصف الليل . تستطيع امرأة تحمل إبريقًا وإناء ماء هبوط السلالم وتنظيف بقع الدم بسهولة " .

" ولكن ماذا إن رآها أحد ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " لن يهم هذا . أنا أتحدث الآن عن الأمور كما هى . لقد قلت امرأة تحمل إبريقًا وإناء ماء . ولكنى إذا قلت السيدة الباكية ذات الإبريق الفضى كان سيصبح هذا ما أرادوا منا أن نعتقد " . نهض وسار ناحية أسبازيا جلين . قال : " هذا هو ما فعلته ، أليس كذلك ؟ إنهم يطلقون عليك المرأة ذات الوشاح الآن ، ولكن

كان ذلك فى هذه الليلة حينما لعبتِ دورك الأول " *السيدة الباكية ذات الإبريق الفضى* ". وهذا هو السبب الذى جعلك توقعين قدح القهوة من فوق الطاولة الآن . لقد شعرت بالخوف حينما رأيتِ هذه الصورة . لقد اعتقدت أن هناك من يعلم ".

أشارت الليدى تشارنلى بيدها البيضاء وكأنها توجه تهمة .

قالت لاهثة : " مونيكا فورد . لقد عرفتك الآن " .

نهضت أسبازيا جلين على قدميها وهى تصرخ . دفعت السيد ساترثوايت جانبًا بيدها ، ووقفت ترتعد أمام السيد كوين ، وقالت :

" إذن لقد كنت محقة . كان هناك من يعرف ! حسنًا ، لن تستطيعوا خداعى بهذه السخافة . هذا التظاهر بكشف اللغز خطوة بخطوة " . أشارت السيدة إلى السيد كوين قائلة : " لقد كنت هناك . لقد كنت تقف خارج النافذة تشاهد ما يحدث . لقد رأيت ما قمنا به ، أنا وهوجو . كنت أعلم أن هناك من يشاهدنا ، لقد شعرت بذلك طوال الوقت . ومع ذلك فحينما نظرت لأعلى لم أر أحدًا . كنت أعلم أن هناك من يشاهدنا . اعتقدت لوهلة أننى رأيت وجهًا بالنافذة ، والذى ظل يفزعنى طوال هذه السنوات . ما الذى حدث وجعلك تتخلى عن صمتك . الآن ؟ هذا هو ما أريد معرفته ؟ " .

قال السيد كوين : " ربما ليرقد الموتى بسلام " .

وفجأة هرعت أسبازيا جلين ناحية الباب ، ووقفت هناك فى جرأة لتلقى ببعض الكلمات من فوق كتفها :

" افعل ما شئت . إن الله يعلم أن هناك شهودا كافين على ما كنت أقوله . أنا لا أكترث . لقد أحببت هوجو وساعدته فى هذا العمل البغيض ، ثم هجرنى بعد ذلك . لقد مات العام الماضى . تستطيع إبلاغ الشرطة عنى إن كنت ترغب فى ذلك ، ولكن ، كما قال الرجل العجوز هناك ، فأنا ممثلة جيدة . وسوف يجدون صعوبة فى العثور علىّ " . أغلقت الباب بقوة وراءها ، وبعد دقيقة سمعوا صوت إغلاق الباب الأمامى أيضًا .

بكت الليدى تشارنلى قائلة : " ريجى ، ريجى " . كانت الدموع تنهمر من عينيها . " آه يا عزيزى المسكين ، أستطيع العودة إلى تشارنلى الآن . أستطيع أن أعيش هناك مع ديكى . أستطيع أن أخبره أن والده كان أروع وأفضل رجل فى العالم " .

قال الكولونيل مونكتون : " لابد أن نتشاور بجدية فيما سنفعله حيال هذا الأمر . أليكس يا عزيزتى ، إن سمحتِ لى باصطحابك للمنزل فسوف أسعد بالتحدث معك قليلاً بخصوص هذا الأمر " .

نهضت الليدى تشارنلى . وقفت أمام السيد ساترثوايت ووضعت يديها على كتفيه ، وقبلته برقة .

قالت : " من الرائع أن أحيا مرة أخرى بعد أن أمضيت كل هذا الوقت ميتة . إن الأمر كان يشبه الموت



كما تعلم . شكرًا لك يا عزيزى ساترثوايت " . خرجت من الغرفة بصحبة الكولونيل مونكتون . أخذ السيد ساترثوايت يحدق فيهما . وقد جعله صوت الهمهمة الذى صدر عن فرانك بريستو - والذى كان قد نسيه - يستدير .

قال بريستو بكآبة : " إنها مخلوقة رائعة " ، ثم قال فى حزن : " إنها ليست مشوقة للغاية كما كانت " .

قال السيد ساترثوايت : " ها هو ذا الفنان يتحدث " .

قال السيد بريستو : " حسنًا ، إنها ليست غير مشوقة . ولكنى أعتقد أنها ستعاملنى ببرود إن ذهبت إليها فى منزل تشارنلى . وأنا لا أحب الذهاب إلى حيث لا أكون مرغوبًا " .

قال السيد ساترثوايت : " يا عزيزى الشاب . إن فكرت قليلاً فى الانطباع الذى تتركه لدى الآخرين ستصبح ، كما أعتقد ، أكثر حكمة وسعادة . وسوف تنجح كذلك فى تحرير عقلك من بعض المفاهيم عتيقة الطراز ، أحدها أن المنشأ له تأثير كبير على مجريات الأمور فى عصرنا الحديث . إنك أحد الشباب الكثيرين الذين يعتبرهن النساء دومًا ذوى وسامة خاصة ، كما أنك على الأرجح شديد الذكاء . فقط . ردد ذلك بينك وبين نفسك عشر مرات قبل أن تذهب إلى الفراش فى كل ليلة . وفى خلال ثلاثة أشهر اذهب لزيارة الليدى تشارنلى فى المنزل . إن تلك هى نصيحتى لك ، نصيحة يعطيها لك رجل عجوز ذو خبرة كبيرة بالحياة " .

تسللت ابتسامة ساحرة فجأة على وجه الفنان .

قال فجأة : " لقد كنت عطوفًا معى للغاية " . أمسك بيد السيد ساترثوايت وصافحه بحرارة . " أنا ممتن لك للغاية . لابد أن أغادر الآن . شكرًا جزيلاً لك من أجل أروع ليلة أمضيتها فى حياتى " .

نظر حوله وكأنما يودع الجميع ، ثم قال فى دهشة : " أعتقد أن صديقك قد غادر يا سيدى . أنا لم أره وهو يغادر . إنه يشبه الطائر الغريب ، أليس كذلك ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " إنه يأتى ويذهب فجأة . إن تلك هى إحدى خصائصه . لا يراه المرء قط وهو يأتى أو يذهب " .

قال فرانك بريستو : " مثل المهرج . إنه غير مرئى " . ثم ضحك من قلبه على مزحته .

الفصل ١٠

الطائر ذو الجناح المكسور

١

نظر السيد ساترثوايت خارج النافذة . كانت السماء تمطر بشدة . ارتعد جسده . ففى رأيه أن عددًا قليلاً من المنازل القروية فقط هو الذى كان يحتوى على نظام تدفئة سليم . ولكنه كان سعيدًا ، لأنه فى غضون ساعات قليلة سوف يذهب إلى لندن . فبعد أن يجاوز المرء سن الستين تصبح لندن هى أفضل مكان بالعالم .

كان يشعر بأنه عجوز ومثير للشفقة بعض الشىء . فمعظم أفراد المنزل كانوا صغارًا للغاية . كان أربعة منهم قد ذهبوا لتوهم إلى المكتبة لممارسة لعبة تبادل الأدوار . وقد دعوه ليأتى معهم ولكنه رفض . فإنه قد فشل فى إيجاد أية متعة فى لعبة عد حروف الأبجدية الرتيبة و " لخبطة " الحروف المعتادة - التى لا مغزى منها - التى تنتج عن ذلك .

نعم ، إن لندن هى أفضل مكان . لقد كان سعيدًا لأنه رفض دعوة مادج كيلى ، التى اتصلت به لتدعوه إلى لندن منذ نصف ساعة مضت . إنها شابة لطيفة بالتأكيد ولكن لندن كانت أفضل .

ارتعد السيد ساترثوايت ثانية ، وتذكر أن المدفأة فى المكتبة كانت جيدة فى العادة . فتح الباب ودخل فى حرص إلى الغرفة المظلمة .

" أرجو ألا أكون قد قاطعتكم ــــ "

" هل كانت (ن) أم (م) ؟ لابد أن نعد مرة أخرى . لا ، بالطبع لا ، يا سيد ساترثوايت . أنت لا تتخيل مدى الأمور المثيرة التى شهدناها فى اللعبة الليلة . تقول الروح إن اسمها آدا سبيرز ، وأن جون هنا سوف يتزوج من امرأة تدعى جلاديز بون على الفور تقريبًا " .

جلس السيد ساترثوايت على المقعد الكبير الوثير أمام المدفأة . ارتخى جفناه فوق عينيه وغط فى النوم . وكان من وقت لآخر يستيقظ ليسمع أجزاء من الحوار .

" لا يمكن أن تكون (ب ا ب ز ل) ـ ليس إلا إذا كان روسيًا . جون ، إنك تغش . لقد *رأيتك* . أعتقد أنها روح جديدة " .

فترة فاصلة أخرى من النوم ، ثم جعله أحد الأسماء يستيقظ سريعًا .

" ك و ى ن " . هل هذا صحيح ؟ . " نعم ، دقة واحدة تعنى نعم " . كوين . هل لديك رسالة لشخص ما

هنا ؟ نعم . ل ؟ لجون ؟ لسارا ؟ لإيفلين ؟ لا ـ ولكن ليس هناك أحد آخر . آه ! إنها من أجل السيد ساترثوايت ربما ؟ إنها تقول " نعم " . يا سيد ساترثوايت ، إنها رسالة من أجلك " .

" ماذا تقول ؟ " .

كان السيد ساترثوايت يقظًا الآن ، ويجلس بتوتر وانتصاب فى مقعده وكانت عيناه تبرقان .

اهتزت الطاولة ، وقامت إحدى الفتيات بالعد .

" ل ى " ـ لا يمكن هذا ـ إن هذا غير منطقى . لا توجد كلمة تبدأ بـ (ل ى) .

قال السيد ساترثوايت بنبرة آمرة : " أكملى " ، وكان صوته حادًا حتى إن الفتاة انصاعت دون تفكير .

" (ل ى د ل) ؟ و (ل) أخرى ـ آه ! هذا يبدو كل ما فى الأمر " .

" واصلى " .

" أخبرينا بالمزيد من فضلك " .

فترة صمت .

" لا يبدو أن هناك شيئا آخر . لقد أصبحت الطاولة ساكنة . يا لسخافة الأمر" .

قال السيد ساترثوايت وهو يفكر بعمق : " لا أعتقد أن الأمر سخيف " .

نهض وغادر الغرفة . ذهب إلى الهاتف مباشرة ، وأجرى مكالمة .

" هل أستطيع التحدث إلى الآنسة كيلى ؟ أهذه أنت يا مادج ؟ أريد أن أغير رأيى - إن كان بإمكانى ذلك وأقبل دعوتك لى . أنا لست فى حاجة إلى الذهاب إلى المدينة بشكل عاجل كما اعتقدت . نعم ، نعم ، سوف أصل فى موعد العشاء " .

أغلق الخط ، وتوردت وجنتاه المجعدتان . السيد كوين - السيد هارلى كوين الغامض . أخذ السيد ساترثوايت يعد على أصابعه المرات التى قابل فيها رجل الغموض هذا . فحينما يكون السيد كوين فى الصورة - تحدث أشياء ! ماذا حدث أو سوف يحدث فى منزل ليدل ؟

مهما كان ، فإن أمام السيد ساترثوايت مهمة لينفذها . فبطريقة أو بأخرى لديه دور فعال ليلعبه . كان واثقًا من ذلك .

كان ليدل منزلاً كبيرًا . وكان مالكه ، السيد ديفيد كيلى ، أحد هؤلاء الرجال الهادئين من أصحاب الشخصيات غير الحازمة ، والذى يمكن اعتباره جزءًا من الأثاث . وغموض هذه العائلة لا علاقة له بقدراتهم العقلية - فكان ديفيد كيلى عالمًا نابغًا فى مجال الرياضيات ، وقام بتأليف كتاب غير مفهوم تمامًا لنحو تسعة وتسعين بالمائة من بنى البشر . ولكن شأنه شأن العديد من الرجال النابغين ، لم يكن يمتلك أية حيوية أو جاذبية . وكانت هناك مزحة تتناقلها الألسن بأن ديفيد كيلى كان رجلاً

" غير مرئى " . فكان الخدم يمرون أمامه دون أن يقدموا له الخضراوات ، وكان الضيوف ينسون أن يقوموا بتحيته أو وداعه .

وكانت ابنته مادج مختلفة تمامًا . كانت شابة مستقيمة تنبض حيوية ونشاطا . كانت طبيعية للغاية وجميلة إلى حد كبير .

وكانت هى التى استقبلت السيد ساترثوايت حينما حضر .

" كان لطفًا كبيرًا منك أن تأتى - فى النهاية " .

" لقد كان نبلاً بالغًا منك أن تتركينى أغير رأيى . مادج يا عزيزتى ، أنت تبدين بأفضل حال " .

" آه ! أنا دائمًا بأحسن حال " .

" نعم ، أعرف . ولكن الأمر يتعدى ذلك . أنت تبدين مشرقة . هذا ما قصدته . هل حدث شىء يا عزيزتى ؟ أى شىء - حسنًا - شىء خاص ومميز ؟ " .

ضحكت وتوردت وجنتاها قليلا .

" هذا أمر مؤسف للغاية يا سيد ساترثوايت . تلك القدرة التى تتمتع بها دومًا على التخمين " .

أخذ يدها .

" إذن ، الأمر كذلك ؟ السيد " مناسب " وصل أخيرًا ؟ " .

كان ذلك مصطلحًا عتيق الطراز ، ولكن مادج لم تعترض عليه ، بل إنها كانت تحب أساليب السيد ساترثوايث عتيقة الطراز .

" أعتقد ذلك ـ نعم . ولكن لا أحد يعرف بخصوص هذا الأمر . إنه سر . ولكننى فى الواقع لا أمانع من أن أفشيه لك يا سيد ساترثوايث ، فطالما كنت لطيفًا وعطوفًا " .

كان السيد ساترثوايث يستمتع دومًا بالرومانسية . فقد كان شاعريًا فيكتورى النزعة .

" أنا لن أسألك من هو هذا الرجل المحظوظ ؟ فكل ما أستطيع قوله هو أننى أتمنى أن يكون جديرًا بالشرف الذى منحته إياه " .

فكرت مادج بأن السيد ساترثوايث هو شخص ساحر حقًا .

قالت : " إننا سوف ننسجم جيدًا مع بعضنا البعض على ما أعتقد . فنحن نحب القيام بنفس الأشياء ، وهذا أمر مهم للغاية ، أليس كذلك ؟ إن بيننا ، فى الواقع ، الكثير من الأمور المشتركة ـ ونحن نعلم كل شىء عن بعضنا وكل هذه الأمور . إن جذور هذا الأمر تمتد منذ فترة طويلة . وهذا الأمر يبث فى المرء شعورًا لطيفًا بالأمان ، أليس كذلك ؟ " .

قال السيد ساترثوايث : " بدون شك . ولكن وفقًا لخبرتى ، فلا يمكن لأى شخص أن يعرف كل شىء عن شخص آخر . وهذا هو جزء من سحر الحياة " .

قالت مادج وهى تضحك : " أنا مستعدة لخوض هذه المغامرة " ، ثم صعدا للطابق العلوى ليستبدلا ملابسهما استعدادًا لتناول العشاء .

تأخر السيد ساترثوايث . فهو لم يحضر خادمًا خصوصيًا ، ومسألة أن يحزم له حقائبه شخص غريب كانت دومًا تثير قلقه بعض الشىء . نزل ليجد الجميع حاضرين ، وبأسلوب عصرى قالت مادج فقط : " آه ! ها قد أتى السيد ساترثوايث . أنا أتضور جوعًا . دعونا نأكل " .

قادت الطريق بصحبة امرأة طويلة رمادية الشعر ـ امرأة ذات شخصية مدهشة . كانت تتمتع بصوت واضح وحاد إلى حد ما ، وكان وجهها بارز المعالم بوضوح ، وجميلا إلى حد ما .

قال السيد كيلى : " كيف حالك يا سيد ساترثوايث ؟ " .

قفز السيد ساترثوايث .

قال : " كيف حالك يا سيدى . أخشى أننى لم أرك " .

قال السيد كيلى بحزن : " لا أحد يرانى " .

ولجوا داخل غرفة الطعام . كانت الطاولة منخفضة وبيضاوية ومصنوعة من خشب الماهوجنى . جلس السيد ساترثوايت بين مضيفته الشابة وفتاة قصيرة داكنة البشرة - فتاة متحمسة للغاية ، ذات صوت مرتفع وضحكة رنانة ، تعكس رغبة فى الاستمتاع بالحياة مهما كانت الظروف . وعلى ما يبدو فإنه كان اسمها دوريس ، وكانت من هذا النوع من الشابات الذى يبغضه السيد ساترثوايت . فإنه لم يكن لديها مبرر - على حد اعتقاده - للوجود فى الحياة .

وإلى جوار مادج من الجانب الآخر ، كان يجلس رجل فى الثلاثين من عمره تقريبًا ، وكان يحمل شبهًا كبيرًا بالسيدة ذات الشعر الرمادى لدرجة تؤكد أنهما أم وابن .

وإلى جواره ـــ

حبس السيد ساترثوايت أنفاسه .

لم يكن يعلم ما هذا تمامًا . إنه لم يكن جمالاً . كان شيئًا آخر - شيئًا أكثر مراوغة من الجمال وغير مدرك بالحس .

كانت تنصت إلى حديث السيد كيلى الممل ، وكانت رأسها تميل بعض الشىء للجانب . لقد كانت هناك ، كما بدا للسيد ساترثوايت - ومع ذلك فإنها لم تكن هناك ! كانت ، بشكل ما ، أقل واقعية من أى شخص آخر يجلس على الطاولة البيضاوية . فشىء ما فى تدلى جسدها إلى الجانب كان جميلاً - شىء أكثر من الجمال . نظرت لأعلى - التقت عيناها مع عينى السيد ساترثوايت

لدقيقة عبر الطاولة - مما جعل الكلمة التى كان يبحث عنها تقفز إلى ذهنه .

سحر - هذا هو . كانت تتمتع بسحر بالغ . إنها قد تكون أحد هؤلاء المخلوقات نصف البشرية - أحد الأشخاص الخفيين من التلال الجوفاء . لقد جعلت جميع الحاضرين يبدون حقيقيين ...

ولكن فى الوقت نفسه وبطريقة غريبة أثارت شفقته . فكان يبدو أن صفاتها نصف البشرية كانت تشلها . وكان يبحث عن عبارة مناسبة وقالها .

قال السيد ساترثوايت : " طائر ذو جناح مكسور " .

وهو يشعر بالرضا ، أعاد تركيزه إلى موضوع فتيات الكشافة الذى كان يتحدث فيه مع تلك الفتاة دوريس ، وتمنى ألا تكون قد لاحظت انشغال فكره . وحينما استدارت ناحية الرجل الذى كان يجلس إلى جواره - رجل لا يكاد السيد ساترثوايت يراه - استدار هو بدوره ناحية مادج .

سأل بصوت خفيض : " من تلك المرأة التى تجلس إلى جوار والدك ؟ " .

" السيدة جراهام ؟ لا ، لا ! أنت تعنى مابيل . ألا تعرفها ؟ مابيل أنيسلى . إنها من عائلة كلايدسلى أحد أفراد عائلة كلايدسلى تعساء الحظ " .

أجفل السيد ساترثوايت . عائلة كلايدسلى تعيسة الحظ . شقيق أطلق النار على نفسه ، شقيقة غرقت ،

وأخرى هلكت فى أحد الزلازل . إنها عائلة مصابة بلعنة غريبة . لابد أن هذه الفتاة هى أصغرهم .

أفاق من شرود عقله فجأة . فقد لمست يد مادج يده أسفل الطاولة . كان الجميع يتحدثون . أشارت له برأسها برفق إلى يسارها .

تمتمت قائلة : " هذا هو " .

أومأ السيد ساترثوايت سريعًا إيماءة تنم عن الفهم . إذن ، فهذا الشاب جراهام هو الذى وقع عليه اختيار مادج . حسنًا ، لقد كان وسيمًا حقًا ـ وكان السيد ساترثوايت دقيق الملاحظة . إنه شاب لطيف وجذاب . إنهما سوف يكونان زوجًا لطيفًا ـ فلا يوجد ما يعيبهما ـ شابان وافرا الصحة ، واجتماعيان .

كان منزل ليدل يرتكز فوق قواعد عتيقة الطراز ، فقد غادرت السيدات غرفة الطعام أولاً . سار السيد ساترثوايت ناحية جراهام وبدأ يتحدث إليه . كان واثقًا من الرأى الذى كونه عن الشاب ، ولكن مع ذلك كان يشوبه شىء غريب . فكان روجر جراهام شارد الذهن ، وكانت يده ترتعد حينما أعاد وضع الكوب على الطاولة .

فكر السيد ساترثوايت : " شىء ما يشغل باله . شىء ليس مهمًا كما يعتقد على حد علمى . ومع ذلك فأنا أتساءل ما هو هذا الشىء " .

كان من عادة السيد ساترثوايت بلع قرصين طبيين محليين يساعدان على الهضم بعد تناول الطعام . ولأنه قد نسى جلبهما معه فقد صعد إلى حجرته لإحضارهما .

وفى طريقه إلى غرفة الاستقبال عبر رواق طويل بالطابق الأرضى ، وفى منتصفه تقريبًا ، كانت هناك غرفة تسمى غرفة السقيفة . وبينما كان السيد ساترثوايت ينظر عبر الباب المفتوح وهو يسير ، توقف .

فكان ضوء القمر متسللاً إلى الغرفة . وقد أضفت عليه شاعرية النافذة شكلاً إيقاعيًا غريبًا . وكان يوجد شخص يجلس ساكنًا عند النافذة المنخفضة ، شخص يميل للجانب قليلاً وينقر على أوتار قيثارة ـ ليس بإيقاع موسيقى الجاز ولكن بإيقاع قديم للغاية ، إيقاع يشبه صوت خيول خيالية تجرى فوق تلال خيالية .

وقف السيد ساترثوايت مأسورًا . كانت ترتدى ثوبًا من الشيفون ذا اللون الأزرق الداكن الباهت ، الذى كان مكشكشًا ومنثنيا ، مما جعله يبدو مثل ريش الطيور . كانت تميل فوق الآلة الموسيقية وتدندن عليها .

دخل إلى الغرفة ـ ببطء وخطوة بخطوة . كان يقف بالقرب منها حينما نظرت إلى أعلى ورأته ـ وقد لاحظ أنها لم تجفل أو تبدو مندهشة .

قال : " أتمنى ألا أكون متطفلاً " .

" من فضلك اجلس " .

جلس إلى جوارها على مقعد بلوطى لامع . هممت برفق وهى تتنفس الهواء .

قالت : " إن هذه الليلة مليئة بالسحر . ألا تعتقد ذلك ؟ " .

" نعم ، إنها مليئة بالسحر حقًا " .

قالت : " كانوا يريدون منى إحضار قيثارتى . وبينما كنت أعبر أمام هذه الغرفة ظننت أنه سيكون لطيفًا أن أجلس هنا وحدى ـ فى ضوء القمر " .

" إذن لابد أن ـــ " ، هم السيد ساترثوايث بالنهوض ولكنها أوقفته .

" لا تذهب . أنت ـ أنت ، بطريقة ما ، تتلائم مع هذا الجو . إن الأمر غريب ولكنها حقيقة " .

جلس ثانية .

قالت : " لقد كانت ليلة غريبة حقًا . لقد خرجت إلى الغابة فى وقت متأخر من بعد ظهيرة اليوم وقابلت رجلاً ـ رجلاً طويلاً وداكن البشرة يشبه الروح التائهة . كانت الشمس تغرب وكانت أشعتها المتسللة من بين الأشجار تجعله يبدو مثل المهرج " .

" آه ! " اتكأ السيد ساترثوايث للأمام ـ وقد أثير فضوله بشدة .

" لقد أردت التحدث إليه ـ لقد بدا أنه يشبه شخصًا أعرفه . ولكننى فقدته بين الأشجار " .

قال السيد ساترثوايث : " أعتقد أننى أعرفه " .

" حقًا ؟ إنه ـ إنه شخص مثير للفضول ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم ، إنه مثير للفضول " .

سادت فترة صمت . كان السيد ساترثوايث يشعر بالارتباك . لقد شعر أنه كان هناك شىء عليه القيام به ـ ولكنه لم يكن يعرف ما هو هذا الشىء . ولكن بالتأكيد ، لابد من أن يكون له علاقة بهذه الفتاة . قال بطريقة خرقاء إلى حد ما :

" فى بعض الأحيان ـ حينما يكون المرء غير سعيد ـ فإنه يود الهروب بعيدًا ـــ " .

قالت : " نعم ، هذا صحيح " . ثم قالت فجأة : " آه ! أنا أفهم ما تعنيه . ولكنك مخطئ ، فالعكس هو الصحيح . لقد أردت أن أكون وحدى لأننى سعيدة " .

" سعيدة ؟ " .

" سعيدة للغاية " .

كانت تتحدث بهدوء بالغ ، ولكن السيد ساترثوايث انتابه شعور مفاجئ بالصدمة ، فالسعادة التى قصدتها هذه الفتاة الغريبة ليست هى نفس السعادة التى قد تقصدها مادج كيلى مستخدمة نفس الكلمات . فكانت السعادة بالنسبة لمابيل أنيسلى تعنى نوعًا من النشوة الغزيرة المتقدة ، شيئًا ما ليس بشريًا فقط ، بل أكثر من بشرى . تراجع للخلف قليلاً .

قال بشكل أخرق : " أنا ـــ أنا لم أكن أعلم هذا " .

" بالطبع لم يكن فى إمكانك أن تعرف . وأنا لست سعيدة بعد ، ولكننى سأكون سعيدة " . مالت للأمام ، وقالت : " هل تعرف كيف يكون الأمر حينما تقف فى غابة ـ غابة كبيرة ذات ظلال سوداء وأشجار بالقرب منك فى كل مكان ـ غابة قد لا تستطيع الخروج منها قط ـ وبعد ذلك فجأة ـ تجد أمامك قرية أحلامك تبرق فى جمال ـ وكل ما عليك فعله هو الخروج من بين الأشجار والظلام حتى تصل إليها ... " .

قال السيد ساترثوايت : " إن العديد من الأشياء تبدو جميلة قبل أن نصل إليها . فبعض أكثر الأشياء قبحًا فى العالم تبدو الأكثر جمالاً ..... " .

كانت هناك وقع أقدام على الأرض . أدار السيد ساترثوايت رأسه . كان يقف أمامه رجل أشقر ذو وجه أحمق وخشبى . لقد كان الرجل الذى لم يستطع السيد ساترثوايت رؤيته على طاولة العشاء .

قال : " إنهم ينتظرونك يا مابيل " .

نهضت وقد هرب التعبير الذى كان على وجهها . كان صوتها هادئًا ونقيًا .

قالت : " سوف آتى يا جيرارد . لقد كنت أتحدث إلى السيد ساترثوايت " .

خرجت من الغرفة وتبعها السيد ساترثوايت . أدار وجهه فوق كتفه بينما كان يمضى ، فلمح التعبير الذى كان على وجه زوجها . نظرة يائسة .

فكر السيد ساترثوايت : " السحر . إنه يشعر به بالفعل . يا له من شخص مسكين " .

كانت غرفة الاستقبال مضاءة جيدًا . كانت مادج ودوريس كولز تتبادلان عبارات اللوم الصاخبة .

" مابيل ، لقد تأخرت كثيرًا " .

جلست فوق مقعد منخفض وعزفت فوق أوتار القيثارة وغنت . وقد انضم إليها الجميع .

فكر السيد ساترثوايت : " هل يعقل وجود كل هذه الأغانى الحمقاء التى تدور حول المحبوبة " .

ولكن كان عليه أن يعترف أن نغمات النحيب كانت مثيرة . ومع ذلك فهى لم تكن تشبه على الإطلاق موسيقى الفالس عتيقة الطراز .

أصبح الجو مفعما بالدخان . وقد استمرت النغمات الحزينة .

فكر السيد ساترثوايت : " لا حوار . لا موسيقى جيدة . لا سكينة " . وقد تمنى لو أن العالم لم يصبح شديد الضوضاء فجأة .

وفجأة سكتت مابيل أنيسلى ، وابتسمت له عبر الغرفة وبدأت تنشد أغنية لجريح :

" *يا بجعتى . يا بجعتى الجميلة* ...

كانت إحدى أغانى السيد ساترثوايت المفضلة . وكان يحب نغمة المفاجأة الجميلة بالنهاية .

" *هل أنت فقط مجرد بجعة ؟ مجرد بجعة ؟* " .

بعد ذلك تفرق الحشد . وقدمت مادج المشروبات فى حين التقط والدها القيثارة الملقاة جانبًا وبدأ يعزف على أوتارها وهو شارد الذهن . وقد تبادل الحاضرون تحية ما قبل النوم وأخذوا يقتربون من الباب . كان الجميع يتحدثون فى نفس الوقت . تسلل جيرارد أنيسلى للخارج فى شكل غير ملفت للنظر تاركًا الآخرين .

وخارج غرفة الاستقبال ، ألقى السيد ساترثوايت تحية المساء على السيدة جراهام . كان هناك درجان أحدهما قريب والآخر يوجد فى نهاية رواق طويل . وكان الدرج الأخير هو الذى صعده السيد ساترثوايت للوصول إلى غرفته . وقد استخدمت السيدة جراهام وابنها الدرج القريب ، فى حين سبقهما بالفعل جيرارد أنيسلى ذو الطبع الهادئ .

قالت مادج : " من الأفضل أن تأخذى معك قيثارتك يا مابيل ، فسوف تنسينها فى الصباح إذا لم تأخذيها معك ، فأنت سوف تغادرين فى وقت مبكر " .

قالت دوريس كولز وهى تمسك بذراع السيد ساترثوايت فى صخب : " هيا بنا يا سيد ساترثوايت . لابد أن تذهب للفراش مبكرًا " .

أمسكت مادج بالذراع الأخرى وركض الثلاثة بالرواق ، ورنين ضحكات دوريس يدوى فى المكان . وقد توقفا فى نهايته لينتظروا ديفيد كيلى الذى كان يتبعهم بخطى أكثر رزانة بينما يقوم بإطفاء المصابيح . وقد صعد الأربعة الدرج معًا .

٢

كان السيد ساترثوايت يستعد للنزول إلى غرفة الطعام لتناول الإفطار فى صباح اليوم التالى ، حينما سمع صوت طرق خفيف على الباب دخلت بعده مادج كيلى . كان وجهها شاحبًا للغاية وكانت ترتعد بشدة .

" يا سيد ساترثوايت " .

" ماذا حدث يا عزيزتى ؟ " أمسك بيدها .

" مابيل ـ مابيل أنيسلى .... "

" نعم ؟ " .

ماذا حدث ؟ ماذا يمكن أن يكون قد حدث ؟ شيء مريع ـ كان يعلم هذا . فكانت مادج تجد صعوبة فى إخراج الكلمات من فمها .

" لقد ـ لقد شنقت نفسها أمس . على مؤخرة باب حجرتها . يا إلهى ! أمر شنيع " . انفجرت فى البكاء . شنقت نفسها . مستحيل . أمر غير منطقى !

قام بمواساة مادج مستخدمًا بعض الكلمات عتيقة الطراز ، ثم هرع للدور السفلى . وجد ديفيد كيلى ، الذى كان يبدو مرتبكا وقليل الحيلة .

" لقد اتصلت بالشرطة يا ساترثوايت . ففيما يبدو أن ذلك ضرورى " . هكذا قال الطبيب . لقد انتهى لتوه من فحص الـ - الـ - يا إلهى . إن الأمر بشع حقًا . لابد أنها كانت تعيسة للغاية - لتنهى حياتها بهذه الطريقة - وكم كانت غريبة تلك الأغنية التى أنشدتها أمس - أغنية البجعة ، أليس كذلك ؟ لقد كانت تبدو مثل البجعة - مثل بجعة سوداء .

" نعم " .

كرر كيلى : " أغنية البجعة . كانت تنم عن أنها محتفظة بقواها العقلية ، أليس كذلك ؟ " .

" يبدو الأمر كذلك - نعم ، بالتأكيد هذا صحيح " .

تردد قليلا ثم سأل إن كان بإمكانه أن يرى - إن كان هذا ...

لكن مضيفه فهم طلبه المتلعثم .

" إن كنت ترغب فى هذا - لقد نسيت أنك *مولع* بالتراجيديا الإنسانية " .

صعد الدرج أمام السيد ساترثوايت ، الذى تبعه . وبأعلى الدرج كانت توجد الغرفة التى يشغلها روجر جراهام . وفى مقابلها - بالناحية الأخرى من الممر -

كانت توجد غرفة والدته . وكان باب غرفتها مواربًا ويخرج منه خيط دخان .

وقد اندهش السيد ساترثوايث قليلاً . فهو لم يكن يعرف أن السيدة جراهام تدخن فى مثل هذا الوقت المبكر من اليوم . فى الواقع لم يكن يعرف أنها تدخن على الإطلاق .

سارا حتى آخر الرواق حتى الغرفة قبل الأخيرة . دخل ديفيد كيلى الغرفة ، وتبعه السيد ساترثوايت .

لم تكن الغرفة كبيرة للغاية وكانت بها دلالات على أنه يوجد من يشغلها . وكان هناك باب بالجدار يقود إلى غرفة أخرى . وكان جزءًا من حبل مقطوع مازال يتدلى من خطاف يوجد أعلى الباب . وعلى الفراش .....

وقف السيد ساترثوايت حوالى دقيقة ينظر إلى كومة قماش الشيفون . وقد لاحظ أنه كان مكشكشًا ومطويًا مثل ريش الطائر . وقد نظر للوجه مرة واحدة ثم لم ينظر بعدها مجددًا .

نظر من الباب الذى تتدلى منه قطعة من الحبل إلى الباب الواصل بين الغرفتين والذى جاءوا منه .

" هل كان هذا الباب مفتوحًا ؟ " .

" نعم ، أو على الأقل هذا ما قالته الخادمة " .

" هل كان أنيسلى ينام هناك ؟ هل سمع شيئًا ؟ " .

" قال إنه لم يسمع شيئًا " .

تمتم السيد ساترثوايت : " غير معقول " . نظر مجددًا إلى شكل الفراش .

" أين هو ؟ " .

" أنيسلى ؟ إنه بالأسفل مع الطبيب " .

نزلا الدرج ليجدا أن محقق الشرطة قد وصل . وقد اندهش السيد ساترثوايت عندما أدرك أنه أحد معارفه القدامى ؛ المحقق وينكفيلد . صعد المحقق للطابق العلوى بصحبة الطبيب ، وبعد دقائق أعلن أن جميع الحاضرين بالمنزل عليهم الاجتماع فى غرفة الاستقبال .

كانت الستائر مسدلة ، وكان يسود الغرفة جو جنائزى . بدت دوريس كولز خائفة ومقهورة ، ومن حين لآخر كانت تلمس عينيها برفق بمنديلها . وكانت مادج قد استعادت قوة عزمها وثباتها ، وأصبح فى إمكانها السيطرة على مشاعرها بشكل كامل الآن . كانت السيدة جراهام رابطة الجأش كعادتها دومًا ، فكان وجهها رزينًا وجامدًا . وكان يبدو أن ابنها هو أكثر الحاضرين تأثرًا بالمأساة . فكان يبدو منهارا تمامًا هذا الصباح . وكان ديفيد كيلى متقهقرا للوراء كعادته .

وكان الزوج المكلوم يجلس وحده ، بعيدًا بعض الشىء عن الآخرين . كانت هناك نظرة دهشة غريبة تعلو وجهه ، وكأنه لا يصدق ما قد حدث .

وكان السيد ساترثوايت - الذى يبدو ظاهريًا رابط الجأش - يغلى من الداخل شاعرًا بأن عليه واجبا يتوجب القيام به سريعًا .

دخل المحقق وينكفيلد ، وتبعه دكتور موريس والذى أغلق الباب وراءه . قام بتنقية صوته ثم تحدث قائلاً :

" إن تلك حادثة مؤسفة للغاية - مؤسفة فعلاً . ومن الضرورى فى ظل هذه الظروف أن أطرح على كل واحد منكم بعض الأسئلة . وأنتم لا تمانعون فى ذلك على ما أعتقد . وسوف أبدأ بالسيد أنيسلى . أعتذر عن السؤال يا سيدى ، ولكن هل سبق لزوجتك أن هددت بقتل نفسها ؟ " .

فتح السيد ساترثوايت فمه فى تهور ثم أغلقه ثانية . لقد كان هناك متسع من الوقت . من الأفضل ألا يتحدث مبكرًا هكذا .

" أنا - لا ، لا أعتقد هذا " .

كان صوته مترددًا للغاية وغريبًا للغاية ، حتى إن جميع الحاضرين قد نظروا إليه خفية .

" ألست واثقًا من هذا يا سيدى ؟ " .

" بلى ، أنا واثق . إنها لم تقم بذلك " .

" آه ! هل كنت تلاحظ أنها غير سعيدة بأى حال من الأحوال ؟ " .

" لا ، لم ألاحظ هذا " .

" ألم تخبرك بأى شىء ، أنها مكتئبة مثلاً ؟ " .

" أنا ، لا ، لا شيء " .

ومهما كان ما يدور فى خلد المحقق الآن ، فهو لم يقل شيئًا . بدلاً من ذلك انتقل إلى النقطة التالية .

" حسنًا ، هلا وصفت لى ، بشكل مختصر ، أحداث الليلة الماضية ؟ " .

" لقد صعدنا جميعًا إلى الفراش . وقد رحت فى النوم على الفور ولم أسمع شيئًا . وقد استيقظت على صرخة الخادمة فى هذا الصباح . هرعت إلى الغرفة الملحقة ووجدت زوجتى ـ وجدتها ـــ " .

سكت عن الكلام وأومأ المحقق .

" نعم ، نعم ، يكفى هذا . نحن لسنا فى حاجة إلى الخوض فى هذه التفاصيل . متى كانت آخر مرة رأيت فيها زوجتك ليلة أمس ؟ " .

" أنا ـــ بالأسفل " .

" بالطابق السفلى ؟ " .

" نعم ، لقد غادرنا جميعًا غرفة الاستقبال معًا . وقد صعدت للطابق العلوى مباشرة ، تاركًا الآخرين يتحادثون فى الردهة " .

" وألم تر زوجتك ثانية ؟ ألم تقل لك تصبح على خير حينما جاءت للفراش ؟ " .

" لقد كنت نائمًا حينما أتت " .

" ولكنها تبعتك ببضع دقائق فقط ، أليس كذلك يا سيدى ؟ " . كان ينظر إلى ديفيد كيلى والذى أومأ بدوره .

" لقد انقضت نصف ساعة قبل أن أنام ، وهى لم تكون قد صعدت بعد " .

كان أنيسلى يتحدث بطريقة عنيدة . توجه المحقق بعينيه برفق إلى السيدة جراهام .

" إنها لم تبق فى غرفتك لتتحدث معك يا سيدتى ؟ " .

هل كان السيد ساترثوايت يتخيل هذا أم أنه كانت هناك فترة صمت وجيزة قبل أن تتحدث السيدة جراهام بطريقتها الهادئة قائلة :

" لا ، لقد ذهبت مباشرة إلى غرفتى وأغلقت الباب . أنا لم أسمع شيئًا " .

" وأنت يا سيدى " ـــ انتقل المحقق بنظره مرة أخرى إلى أنيسلى ـــ " أنت تقول إنك نمت على الفور ولم تسمع شيئًا . لقد كان الباب الواصل بين الغرفتين مفتوحًا ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم يا سيدى . ولكنى أعرف أنها كانت ستدخل من الباب الآخر من الرواق " .

" حتى فى ذلك الحين يا سيدى كان سيوجد أصوات معينة ـ صوت اختناق ، وطرق الكعبين على الباب ـــ " .

" لا " .

كان السيد ساترثوايت هو من تحدث بتهور حيث لم يعد قادرًا على منع نفسه . اتجهت جميع العيون ناحيته

فى دهشة ، لدرجة جعلته يصبح عصبيًا ومتلعثمًا ومتورد الوجه ، قال :

" أستميحك عذرًا أيها المحقق . ولكن يجب أن أتحدث . إنك تسير على الدرب الخطأ ـ درب خطأ تمامًا . إن السيدة أنيسلى لم تقتل نفسها . أنا واثق من ذلك . لقد قتلت " .

ساد صمت قاتل ، ثم قال المحقق بهدوء :

" ما الذى دفعك إلى هذا الاعتقاد يا سيدى ؟ " .

" أنا ـ إنه مجرد شعور . شعور قوى للغاية " .

" ولكنى أعتقد ، يا سيدى ، أن هناك سببًا جعلك تعتقد ذلك " .

حسنًا ، بالطبع كان هناك سبب معين . كانت هناك تلك الرسالة الغامضة التى أرسلها له السيد كوين . ولكن ليس فى الإمكان أن تخبر محققًا بالشرطة بأمر كهذا . أخذ السيد ساترثوايت ينقب بعمق عن سبب ، ولكنه لم يجد شيئًا ، فقال :

" الليلة الماضية ـ حينما كنا نتحدث معًا ، قالت لى إنها كانت سعيدة للغاية . سعيدة للغاية ـ هذا هو ما قالته . ولا يبدو ذلك كلام امرأة تفكر فى الانتحار " .

استطاع تحقيق النصر . أضاف قائلاً :

" لقد عادت حتى تأخذ قيثارتها كى لا تنساها فى الصباح . إن هذا لا يدل كذلك على أنها كانت تنوى الانتحار " .

اعترف المحقق قائلاً : " لا ، ربما لم تنتحر " . استدار ناحية ديفيد كيلى وسأل : " هل أخذت القيثارة معها إلى الطابق العلوى ؟ " .

حاول عالم الرياضيات أن يتذكر .

" أعتقد أنها أخذتها . لقد كنت تصعد الدرج وهى تمسكها فى يدها . أتذكر أنى رأيتها تنحرف عند منعطف الدرج قبل أن أطفئ المصابيح هنا بالطابق " .

صاحت مادج : " يا إلهى ! ولكن ها هى هنا الآن " .

أشارت بشكل درامى إلى حيث كانت توجد القيثارة فوق الطاولة .

قال المحقق : " هذا أمر مثير للفضول " . تقدم للأمام ورن الجرس .

طلب من كبير الخدم أن يذهب ليبحث عن الخادمة التى تتولى مسئولية تنظيف الحجرات فى الصباح . وقد حضرت ، وكانت واثقة من كلامها . كانت القيثارة فى هذا المكان فى الصباح حينما نظفت المكان .

صرفها المحقق وينكفيلد ، ثم قال بفظاظة :

" أود التحدث إلى السيد ساترثوايت على انفراد من فضلكم . يجب عليك جميعا الانصراف الآن . ولكن لا يغادر أحدكم المنزل " .

بدأ السيد ساترثوايت بالكلام بمجرد أن أغلق الباب وراء الآخرين .

" أنا - أنا واثق ، أيها المحقق ، أنك تملك زمام القضية بين يديك . أنا فقط شعرت - كما قلت سابقًا - أنه فقط مجرد شعور قوى ـــ " .

منعه المحقق من التفوه بكلمة أخرى عن طريق رفع يده في الهواء ، قائلا :

" أنت محق يا سيد ساترثوايت . إنها جريمة قتل " .

قال السيد ساترثوايت في حزن : " لقد كنت تعرف ؟ " .

" كانت هناك أشياء بعينها أثارت حيرة دكتور موريس " . نظر إلى الطبيب والذى لم يغادر مع الآخرين والذى وافقه الرأى بالإيماء برأسه . " لقد أجرينا فحصًا شاملاً . إن الحبل الذى كان ملتفًا حول رقبتها لم يكن هو الحبل الذى خنقها - لقد كان حبلاً أقل سمكًا هو الذى قتلها ، كان شيئا يشبه السلك ، فهو قد قطع الجلد . وكانت الآثار التى تركها الحبل توجد فوق هذا الجرح . لقد تم خنقها ثم تعليقها على الباب بعد ذلك ، لجعل الأمر يبدو انتحارًا " .

" ولكن من ـــ ؟ " .

قال المحقق : " نعم ، من ؟ هذا هو السؤال . ماذا عن الزوج الذى كان ينام فى الغرفة المجاورة والذى لم يقل لزوجته تصبحين على خير ولم يسمع شيئًا ؟ يجب أن أعترف أنه ليس باستطاعتنا الإجابة عن هذا السؤال . ولكننا يجب أن نتعرف على طبيعة العلاقة بينهما ، وهو

أمر يمكنك مساعدتنا به يا سيد ساترثوايت . أنت تقيم هنا وتعرف هذا المنزل . لذا فيمكنك معرفة أمور لن نستطيع نحن التوصل إليها . حاول أن تعرف لنا كيف كانت طبيعة العلاقة بينهما " .

قال السيد ساترثوايت وهو متصلب الجسم : " أنا لا أحب ـــ " .

" إنها ليست أول جريمة قتل غامضة تساعدنا فى حلها . أنا أتذكر قضية السيدة سترانجوايز . إنك تميل لمثل هذه الأمور " .

نعم هذا صحيح ، فهو يميل إلى هذه الأمور . قال بهدوء :

" سوف أبذل قصارى جهدى أيها المحقق " .

هل قام جيرارد أنيسلى بقتل زوجته ؟ هل قتلها ؟ تذكر السيد ساترثوايت النظرة التى كانت فى عينيه الليلة الماضية . لقد كان يحبها - وقد كان يعانى . والمعاناة تدفع الرجل للقيام بأشياء غريبة .

ولكن كان هناك شىء آخر - عامل آخر . كانت مابيل تتحدث عن خروجها من غابة - كانت تتطلع إلى السعادة - ليست سعادة عقلانية - ولكن سعادة غير طبيعية - نشوة جامحة ...

إن كان جيرارد أنيسلى صادقًا ، فإن مابيل لم تصعد إلى غرفتها إلا بعد أن صعد هو بأكثر من نصف ساعة . ومع ذلك ، فقد رآها ديفيد كيلى تصعد الدرج . وكانت

هناك غرفتان مأهولتين أخريين فى هذا الجناح ، واحدة تمكث فيها السيدة جراهام ، والأخرى كان يمكث فيها ابنها .

ابنها ، لكن هو ومادج ....

ولكن كانت مادج ستخمن ذلك .... إلا أن مادج لم تكن من النوع الذى يجيد التخمين . وعلى أية حال ، لا يوجد دخان بدون نار ـ دخان !

آه ! لقد تذكر . *خيط من الدخان كان يتسلل عبر باب حجرة السيدة جراهام* .

تحرك على الفور . صعد الدرج بسرعة ودخل حجرتها . كانت شاغرة . أغلق الباب خلفه وأوصده .

ذهب إلى النافذة ذات القضبان الحديدية . كانت هناك أجزاء من أوراق محروقة . وبحذر شديد مسها مسًا خفيفًا بأصابعه . وكان الحظ يحالفه . ففى المنتصف كانت توجد أجزاء غير محروقة ـ أجزاء من خطابات ....

كانت أجزاء غير مترابطة ، ولكنها أظهرت له معلومات ذات قيمة ، حيث جاء فيها :

" يمكن للحياة أن تكون رائعة حقًا يا عزيزى روجر . أنا لم أعرف قط ... حياتى السابقة كلها كانت مجرد حلم إلى أن قابلتك يا روجر ...."

" ... إن جيرارد يعلم على ما أعتقد ... أنا آسفة لأجل هذا ولكن ماذا بإمكانى أن أفعل ؟ لا يوجد أى شىء حقيقى بالنسبة لى فيما عدا أنت يا روجر ... لابد أن نكون معًا قريبًا " .

" بم سوف تخبره فى ليدل يا روجر ؟ أنا لا أفهم ما كتبته لى ـ ولكننى لست خائفة ... "

وبحرص شديد وضع السيد ساترثوايت القصاصات فى مظروف أخذه من فوق المكتب . ذهب إلى الباب وفتحه ليجد نفسه أمام السيدة جراهام .

كانت لحظة مربكة وقد فقد السيد ساترثوايت اتزانه للحظة . وقد قام بأفضل شىء يمكنه القيام به وهو البدء بالهجوم للسيطرة على الموقف .

" لقد كنت أفتش غرفتك يا سيدة جراهام . وقد وجدت شيئًا ـ مجموعة من الخطابات غير المحروقة بالشكل الجيد " .

عبرت وجهها نظرة ذعر سرعان ما اختفت ، ولكنها لم تختف تماما .

" خطابات أرسلتها السيدة أنيسلى لابنك " .

ترددت للحظة ثم قالت بهدوء : " نعم هذا صحيح . لقد ظننت أنه من الأفضل حرقها " .

" لماذا ؟ " .

" إن ابنى سوف يتزوج من امرأة أخرى . وهذه الخطابات - إن ظهرت الآن بعد انتحار الفتاة المسكينة - فإنها سوف تتسبب فى كثير من الألم والمشكلات " .

" كان بإمكان ابنك أن يقوم بحرق خطاباته بنفسه " .

لم يكن لديها رد جاهز على هذا السؤال . واصل السيد ساترثوايت تقدمه ، فقال :

" لقد عثرت على هذه الخطابات فى غرفته وأحضرتها إلى غرفتك وحرقتيها . لماذا ؟ أنت خائفة يا سيدة جراهام " .

" أنا لا أخشى شيئًا يا سيد ساترثوايت " .

" لا - ولكنك كنت بائسة " .

" بائسة ؟ " .

" إن ابنك قد يكون معرضًا لخطر الاعتقال والحبس - بتهمة ارتكاب جريمة قتل " .

" قتل ! " .

رأى وجهها وهو يتحول إلى اللون الأبيض ، وقال سريعًا :

" لقد رأيت السيدة أنيسلى تذهب إلى غرفة ابنك ليلة أمس . لقد أخبرها بشأن خطبته ؟ لا ، أعتقد أنه لم يخبرها . لقد أخبرها ليلة أمس وقد تشاجرا ، ثم قام بـ ـــ " .

" إن ذلك غير حقيقى ! " .

كانا منهمكين فى مبارزتهما الكلامية لدرجة أنهما لم يسمعا وقع الأقدام التى كانت تقترب منهما . لقد أتى روجر جراهام ووقف خلفهما دون أن يلاحظا ذلك .

" لا بأس يا أمى . لا تقلقى . من فضلك ، تعال إلى غرفتى يا سيد ساترثوايت " .

تبعه السيد ساترثوايت إلى غرفته . استدارت السيدة جراهام ولم تحاول اللحاق بهما . أغلق روجر جراهام الباب ، ثم قال :

" اسمع يا سيد ساترثوايت ، أنت تعتقد أننى قتلت مابيل . أنت تظن أننى خنقتها - هنا - ثم أخذتها إلى غرفتها وقمت بتعليقها على الباب لاحقًا بعدما نام الجميع ؟ " .

أخذ السيد ساترثوايت يحدق فيه . ثم قال فى دهشة :

" لا ، لا أعتقد هذا " .

" أحمد الله على ذلك . أنا لا أستطيع قتل مابيل . فأنا كنت أحبها . أو لم أكن أحبها ؟ لا أعرف . إنه أمر معقد يصعب علىّ شرحه . أنا مفتون بمادج - طالما كنت أبادلها هذا الشعور . وهى فتاة لطيفة . ونحن نناسب بعضنا البعض . ولكن مابيل كانت مختلفة . كانت - يصعب علىّ تفسير الأمر - كان بها نوع من السحر . لقد كنت على ما أعتقد خائفًا منها " .

أومأ السيد ساترثوايت .

" كان ذلك ضربا من الجنون - نوعا من النشوة المربكة ... ولكن الأمر كان مستحيلاً ، فلم يكن ليفلح الأمر . إن هذا الشيء لا يدوم . أنا أعرف ماذا يعنى الآن أن يكون المرء واقعا تحت وطأة لعنة " .

قال السيد ساترثوايت وهو يفكر بعمق : " نعم ، لابد أن الأمر كان كذلك " .

" وقد أردت أن أنهى الموضوع . كنت سأخبر مابيل — الليلة الماضية " .

" ولكنك لم تخبرها ؟ " .

قال جراهام ببطء : " لا ، لم أخبرها . أقسم لك يا سيد ساترثوايت أننى لم أرها بعد أن قلت لها تصبحين على خير عند الدرج " .

قال السيد ساترثوايت : " أنا أصدقك " .

نهض السيد ساترثوايت . لم يكن روجر جراهام هو من قتل مابيل أنيسلى . كان بإمكانه أن يهجرها ، ولكن لم يكن بإمكانه قتلها . لقد كان خائفًا منها ، خائفًا من تلك النزعة الخيالية الجامحة التى تميزها . لقد عرف السحر - وأدار ظهره إليه . لقد ذهب إلى الشيء المحسوس الآمن والذى عرف " أنه سيفلح " وتخلى عن الحلم المعقد الذى لا يعلم إلى أين سيقوده .

لقد كان شابًا مرهف الحس ، وبالتالى فهو لم يكن يثير اهتمام السيد ساترثوايت والذى كان فنانًا وخبيرًا بالحياة .

وقد ترك روجر جراهام فى غرفته وهبط للطابق السفلى . كانت قاعة الاستقبال شاغرة . كانت قيثارة مابيل ترقد فوق مقعد بجوار النافذة . أخذها وعزف على أوتارها وهو شارد الذهن . لم يكن لديه أية فكرة عن طريقة العزف على الآلة ، ولكن أخبرته أذنه أن إيقاعها لم يكن سليمًا . أدار أحد مفاتيحها على سبيل التجربة .

دخلت دوريس كولز إلى الغرفة . نظرت إليه نظرة عتاب .

قالت : " قيثارة مابيل المسكينة " .

وقد جعلت إدانتها الواضحة له السيد ساترثوايت يشعر بعدم الراحة .

قال : " قومى بضبطها لى " ، ثم أضاف : " إن كان باستطاعتك ذلك " .

قالت دوريس : " بالطبع باستطاعتى ذلك " ، فى حين كانت تشعر بالجرح لهذا الاتهام بعدم الكفاءة .

أخذتها منه وعزفت على أحد أوتارها وأدارت مفتاحًا برشاقة - ثم أصدر الوتر صوت فرقعة حادًا .

" حسنًا ، أنا لم - آه ! لقد فهمت - ولكن ذلك الأمر غريب . إنه الوتر الخطأ - إنه أكبر حجمًا . إنه وتر (أ) . كم من الغباء أن يضع أحدهم هذا الوتر هنا - بالطبع لابد أن يفرقع حينما تحاول العزف عليه . بعض الناس أغبياء حقًا " .

قال السيد ساترثوايت : " نعم ، إنهم أغبياء - حتى حينما يحاولون أن يكونوا أذكياء ... " .

كانت نبرة صوته غريبة للغاية ، حتى إنها جعلتها تحدق فيه . أخذ القيثارة منها ونزع الوتر المقطوع . خرج من الغرفة وهو يحملها بيده . وفى المكتبة وجد ديفيد كيلى .

قال : " ها هو " .

كان يمسك بالوتر . أخذه منه كيلى .

" ما هذا ؟ " .

" وتر مقطوع من القيثارة " . سكت قليلاً ثم قال : " ماذا فعلت بالوتر الآخر ؟ " .

" الوتر الآخر ؟ " .

" الوتر الذى خنقتها به . لقد كنت ماكرًا للغاية ، أليس كذلك ؟ إن الأمر برمته لم يستغرق الكثير من الوقت - فقط فى اللحظة التى كنا نتحدث ونضحك فيها فى الردهة .

" لقد عادت مابيل إلى هذه الحجرة لتأخذ قيثارتها . وأنت كنت قد نزعت منها الوتر حينما كنت تعزف عليها قبل ذلك . وقد قمت بلفه حول رقبتها وخنقتها . بعد ذلك خرجت من الغرفة وأوصدت الباب وانضممت إلينا . وفى وقت لاحق - فى سكون الليل - تسللت إلى هنا وأخذت الجثة وقمت بتعليقها على باب غرفتها . بعد

ذلك وضعت وترًا آخر بالقيثارة ، ولكنه كان الوتر الخطأ ، الأمر الذى أظهر كم كنت غبيًا " .

سادت فترة صمت .

قال السيد ساترثوايت : " ولكن لماذا قمت بذلك ؟ بحق السماء ، لماذا ؟ " .

ضحك السيد كيلى ، كانت ضحكته عبارة عن قهقهة غريبة جعلت السيد ساترثوايت يشعر بالاشمئزاز .

قال : " إن الأمر بسيط للغاية . هذا هو السبب ! حتى فى ذلك الحين لم يلاحظنى أحد . لم يلاحظ أحد من قبل ما أفعل . لقد اعتقدت أن بإمكانى أن أسخر منهم ... " .

ومرة أخرى قهقه بطريقته الماكرة ، ونظر إلى السيد ساترثوايت بعينين مجنونتين .

وقد شعر السيد ساترثوايت بالسعادة حينما دخل المحقق وينكفيلد الغرفة فى هذه اللحظة .

٣

كان ذلك بعد أربع وعشرين ساعة وهو فى طريق عودته إلى لندن حينما استيقظ السيد ساترثوايت من غفوته ليجد رجلاً طويلاً داكن البشرة يجلس أمامه فى عربة القطار . ولكن ذلك لم يكن مفاجئًا له .

" عزيزى السيد كوين ! " .



" نعم ـ أنا هنا " .

قال السيد ساترثوايت ببطء : " أنا لا أقوى على مواجهتك . فأنا أشعر بالخزى ـ لقد فشلت " .

" هل أنت واثق من هذا ؟ " .

" أنا لم أستطع إنقاذها " .

" ولكنك اكتشفت الحقيقة ؟ " .

" نعم ـ هذا صحيح . فكانت التهمة ستوجه لأحد هذين الشابين . لذا ، فعلى أية حال فأنا أنقذت حياة رجل . ولكن هى تلك المخلوقة الغريبة الساحرة .... " ، سكت عن الكلام .

نظر إليه السيد كوين .

" هل الموت هو أسوأ شىء يمكن أن يحدث للإنسان ؟ " .

" أنا ـ حسنًا ـ ربما ـ لا ... " .

تذكر السيد ساترثوايت ... مادج وروجر جراهام .. ووجه مابيل فى ضوء القمر ـ سعادتها الساكنة الروحية .

قال معترفًا : " لا ، لا ـ ربما لا يكون الموت هو أسوأ شىء يمكن أن يحدث للإنسان ... " .

تذكر ثوبها الشيفون الأزرق المكشكش ، والذى بدا مثل ريش الطائر ... طائر ذى جناح مكسور ...

وحينما نظر لأعلى وجد نفسه وحده . فلم يعد السيد كوين موجودًا .

ولكنه ترك شيئًا وراءه .

فعلى المقعد كان يوجد حجر أسود ذو لون أزرق قاتم منحوت على شكل طائر . ولم تكن قطعة فنية مميزة . ولكن كان بها شىء آخر .

" لقد كانت تتسم بالسحر " .

هكذا قال السيد ساترثوايت ـ والسيد ساترثوايت كان خبيرًا جيدًا .

الفصل ١١

نهاية العالم

لقد أتى السيد ساترثوايت إلى كورسيكا بسبب إحدى الدوقات . وكان ذلك على غير عادته . ففي الريفييرا يكون واثقًا من أن جميع سبل الراحة تكون متوافرة . وكانت كلمة " الراحة " تعني الكثير للسيد ساترثوايت . ولكن بالرغم من أنه كان يحب أن تتوافر له سبل الراحة ، إلا أنه كان يحب أيضًا الدوقات . فبطريقته غير المؤذية والنبيلة وعتيقة الطراز كان السيد ساترثوايت متكبرًا ، وكان يحب الصفوة من الناس . وكانت دوقة ليث دوقة حقيقية . فلم يكن يوجد من بين أسلافها جزارين من شيكاغو . فكانت ابنة دوق وزوجة دوق .

وبالنسبة للآخرين ، فإنها لم تكن سوى سيدة عجوز رثة المظهر ، تهتم كثيرًا بالتطريز الأسود بالخرز على ملابسها . وكانت تضع كميات كبيرة من الماس على أماكن عتيقة الطراز من ملابسها ، حيث إنها كانت تثبتها

بنفس الطريقة التى اعتادت أمها تثبيتها بها : مثبتة بدبابيس فى كل مكان من ملابسها بطريقة تنم عن عدم التمييز . وقد قال أحدهم مرة ، ممازحًا ، إن الدوقة كانت تقف فى منتصف غرفتها فى حين تقوم خادمتها بقذف دبابيس الزينة والبروشات عليها بشكل عشوائى . وكانت تشارك بسخاء فى الأعمال الخيرية ، وتعتنى جيدا بتابعيها ومعاونيها ، ولكنها كانت بخيلة للغاية فيما يتعلق بالمبالغ المالية الصغيرة ، فكانت تتسول التوصيلات من أصدقائها وتقوم بالتسوق فى معارض المقايضة التى تقام فى الأدوار السفلية من البنايات .

وقد أصاب الدوقة ولع مفاجئ بكورسيكا . فقد كانت " كان " تشعرها بالملل ، كما أنها قد تجادلت بحدة مع مالك الفندق حول أسعار حجرتها .

قالت بحزم : " وأنت يجب أن تذهب معى يا ساترثوايت . فنحن لا يجب أن نخشى الفضيحة فى سننا هذه " .

شعر السيد ساترثوايت بإطراء بالغ . فلم يسبق أن ربطه أحد بكلمة فضيحة من قبل . فإنه كان أقل أهمية من هذا . فضيحة ـ ودوقة ـ يا له من أمر مثير !

قالت الدوقة : " إنه مكان رائع . فيوجد هناك قطاع طرق وكل هذه الأمور . كما أنه مكان رخيص للغاية كما سمعت . لقد كان مانويل شديد الوقاحة هذا الصباح . يجب أن يوقف أحد مالكى الفنادق ، هؤلاء ، عند

حدهم . فلا يمكن لهم أن يتوقعوا الحصول على أفضل الزبائن إن استمروا فى انتهاج هذه السلوكيات . لقد أخبرته بذلك ببساطة " .

قال السيد ساترثوايت : " أعتقد أنه بإمكاننا السفر إلى هناك جوًا وذلك كى ننعم بالراحة . نسافر من أنتيبس " .

قالت الدوقة بحدة : " أعتقد أن أسعار مثل هذه الرحلات تكون معقولة . حاول أن تستعلم بخصوص هذا الأمر " .

" حسنًا أيتها الدوقة " .

وكان السيد ساترثوايت لا يزال يشعر بالامتنان بالرغم من أنه كان من الواضح أن دوره لا يتعدى كونه رفيقًا للسياح .

وحينما علمت سعر الرحلة بالطائرة ، غيرت رأيها على الفور قائلة :

" إنهم يعتقدون أننى قد أدفع مبلغًا مثل هذا لأسافر على إحدى طائراتهم الخطيرة والحقيرة " .

لذا فقد سافرا بحرًا ، وكان على السيد ساترثوايت تحمل عشر ساعات من قلة الراحة والمعاناة . ففى البداية ـــ حينما أبحر القارب فى السابعة ـــ اعتقد السيد ساترثوايت بديهيًا أنهم سيقدمون لهم العشاء . ولكن لم يكن هناك عشاء . كان القارب صغيرًا وكان البحر هائجا . وقد نزل السيد ساترثوايت إلى ميناء الأجاشيو ، فى

الساعات الأولى من الصباح الباكر ، وهو أشبه بالأموات من الأحياء .

أما الدوقة ، على الجانب الآخر ، فكانت فى قمة نشاطها وحيويتها . فإنها لم تكن تمانع فى عدم التمتع بالراحة إن كان فى ذلك توفير لأموالها . بدت متحمسة للغاية عندما رأت رصيف الميناء والنخيل والشمس المشرقة . وقد بدا أن جميع سكان البلدة قد خرجوا لاستقبال القارب ، وكانت أصوات التهليل والإرشادات تصاحب عملية نصب المر الخشبى .

قال رجل فرنسى سمين كان يقف بالجانب : " *احذروا ، فنحن لم نجرب هذه المناورة من قبل !* " .

قالت الدوقة : " إن خادمتى ظلت مريضة طوال الليل . إنها حمقاء حقًا " .

ابتسم السيد ساترثوايت بطريقة شاحبة .

واصلت الدوقة حديثها بغلظة : " يا له من إهدار لطعام جيد " .

قال السيد ساترثوايت فى غبطة : " هل أكلت أى طعام ؟ " .

قالت الدوقة : " كنت قد أحضرت معى بعض البسكويت وقطعة من الشيكولاتة . فحينما علمت أنهم لن يقدموا لنا عشاء ، أعطيتها الكثير من الحلوى . إن الطبقات الدنيا دائمًا ما تثير جلبة كبيرة بشأن عدم وجود طعام " .

علت صيحة نصر عند الانتهاء من نصب الممر الخشبى . وقد هرع كورس موسيقى كوميدى من قطاع الطرق إلى سطح القارب ، وأخذوا الأمتعة من أيدى المسافرين بالقوة الجبرية .

قالت الدوقة : " هيا يا ساترثوايت ، أنا أريد حمامًا ساخنًا وقدحًا من القهوة " .

وكان السيد ساترثوايت يريد نفس الشىء أيضًا . ولكنه لم ينجح فى مسعاه بشكل كامل . كان فى استقبالهما بالفندق المدير ، الذى أرشدهما إلى غرفتيهما . كان لدى الدوقة حمام ملحق بغرفتها . أما السيد ساترثوايت ، على الجانب الآخر ، فتم إرشاده إلى حمام يبدو أنه يوجد بغرفة نوم شخص آخر . وكان من غير المعقول أن يتوقع المرء أن يكون الماء ساخنًا فى مثل هذه الساعة من الصباح . لاحقًا ، تناول قهوة سوداء مركزة تم تقديمها له فى إناء بلا غطاء . كانت جميع نوافذ غرفته مفتوحة على مصراعيها وكان هواء الصباح المنعش يجوب الغرفة . إنه يوم يتألق فيه اللونان ؛ الأخضر والأزرق .

أشار النادل بيده بزهو ليجذب انتباه السيد ساترثوايت إلى المنظر الخلاب .

قال : " *أجاشيو . أجمل ميناء فى العالم !* " .

بعد ذلك غادر على نحو مفاجئ .

وحينما نظر السيد ساترثوايت إلى الساحل الأزرق العميق والجبال الثلجية الواقعة وراءه وافقه الرأى . انتهى من شرب قهوته وصعد إلى الفراش ونام على الفور .

وعلى الإفطار كانت معنويات الدوقة مرتفعة للغاية .

قالت : " إنّ هذا الجو مفيد للغاية لك يا ساترثوايت . فهو سيساعدك على الابتعاد عن أساليبك الدقيقة فى التعامل مع الأشياء " . جابت الغرفة بعينيها ، ثم قالت : " يا إلهى ، هذه هى ناعومى كارلتون سميث " .

أشارت إلى فتاة تجلس وحدها على طاولة عند النافذة . كانت فتاة مستديرة الكتفين . وكانت تجلس بترهل . بدا أن فستانها مصنوع من قماش يشبه الخيش البنى . كانت ذات شعر أسود غير مربوط بإحكام .

سأل السيد ساترثوايت : " فنانة ؟ " .

كان دائمًا موهوبًا فى التخمين .

قالت الدوقة : " هذا صحيح . إنها تدعى أنها فنانة على أية حال . كنت أعلم أنها كانت تتسكع فى منطقة غريبة من العالم . إنها فقيرة للغاية مثل فأر فى دار العبادة . ومعتزة بنفسها مثل لوسيفر ، ومتوترة دوما مثل جميع أفراد عائلة كارلتون سميث . أمها هى ابنة عمى " .

" إنها واحدة من عائلة نولتون إذن ؟ " .

أومأت الدوقة .

قالت : " كانت دومًا أسوأ عدو لنفسها . وهى فتاة ذكية أيضًا . وقد كانت مرتبطة بشاب فاسد . أحد أبناء تشيلسى . فكان يكتب مسرحيات أو شعرا أو شيئًا تافهًا مثل هذا . وبالطبع لم يشتر إنتاجه أحد . بعد ذلك سرق مجوهرات أحدهم ، وتم حبسه لأجل ذلك . وقد نسيت الحكم الصادر عليه . أعتقد أنه محكوم عليه بخمس سنوات . ولكن لابد لك أن تتذكر ، كان ذلك خلال الشتاء الماضى " .

قال السيد ساترثوايت : " فى الشتاء الماضى كنت فى مصر . فقد أصبت بأنفلونزا سيئة للغاية فى نهاية يناير ، وقد أصر الأطباء على أن أذهب إلى مصر بعد ذلك . لقد فاتنى الكثير من الأحداث " .

كانت نبرة صوته تعكس ندمًا حقيقيًا .

قالت الدوقة وهى ترفع نظارتها مرة أخرى : " تبدو لى هذه الفتاة وكأنها مستغرقة فى تفكير كئيب . لا يمكننى السماح بذلك " .

وفى طريقها للخارج توقفت عند طاولة الآنسة كارلتون سميث وربتت على كتف الفتاة ، قائلة :

" حسنًا يا ناعومى ، يبدو أنك لا تتذكرينى ؟ " .

نهضت ناعومى على مضض ، فيما يبدو ، وقالت :

" أنا أتذكرك أيتها الدوقة . لقد رأيتك وأنت تدخلين ، ولكنى اعتقدت أنك ، على الأرجح ، لن تعرفينى " .

كانت تتحدث بكسل وبشكل غير مبال تمامًا .

قالت بنبرة آمرة : " عندما تنتهين من غدائك تعالى لنتحدث معًا قليلاً فى الشرفة " .

" حسنًا " .

تثاءبت ناعومى .

قالت الدوقة للسيد ساترثوايت : " سلوكيات فظة . تلك هى سمة جميع أفراد عائلة كارلتون سميث " .

شربا قهوتهما بالخارج فى أشعة الشمس . وكانت قد مرت ست دقائق قبل أن تخرج ناعومى كارلتون سميث من الفندق لتنضم إليهما . تركت نفسها تسقط بارتخاء على المقعد ، وقامت بمد ساقيها بفظاظة أمامهما .

كانت ذا وجه غريب مع تلك الذقن الناتئة والعينين الرماديتين الغائرتين . وجه ذكى وغير سعيد ـ وجه لم ينل حظه من الجمال .

قالت الدوقة : " حسنًا يا ناعومى . ماذا كنت تفعلين فى الآونة الأخيرة ؟ " .

" لا أعلم . فقط أضيع وقتى " .

" هل كنت ترسمين ؟ " .

" قليلاً " .

" أرينى رسوماتك " .

ابتسمت ناعومى . فالاستبداد لم يكن يروعها . كانت تشعر بالإثارة . دخلت الفندق وخرجت ثانية وهى تحمل حقيبة أوراق .

قالت لها محذرة إياها : " إنها لن تعجبك أيتها الدوقة . لكن أخبرينى باللوحات التى تعجبك . ولا تخافى ، فأنت لن تجرحى مشاعرى " .

حرك السيد ساترثوايت مقعده مقتربًا قليلاً . أثارت اللوحات اهتمامه . وبعد دقيقة ازداد اهتمامه بها . أما الدوقة فلم تظهر أى استحسان .

قالت شاكية : " أنا لا أعرف ، حتى . كيف يمكن أن تبدو الأشياء . يا إلهى يا طفلتى ، لا توجد سماء بهذا اللون ـ ولا بحر كذلك " .

قالت ناعومى بهدوء : " هذه هى الطريقة التى أراهم بها " .

قال الدوقة وهى تتفحص لوحة أخرى : " آه ! إن هذه اللوحة جعلت القشعريرة تتسلل إلى جسدى " .

قالت ناعومى : " إن هذا مقصود . إنك تجاملينى دون أن تدركى ذلك " .

كانت اللوحة عبارة عن دراسة درامية غريبة لثمرة كمثرى شائكة ـ والتى فقط بدت هكذا . كانت ذا لون أخضر ضارب إلى الرمادى ، وتضم لمسات ذات لون عنيف جعلها تتلألأ مثل المجوهرات . وكان يحوط تلك الثمرة المتلئة والمتفتحة دوامة كثيفة . ارتعد السيد ساترثوايت وأشاح بوجهه للجانب الآخر .

وجد ناعومى تنظر إليه وتومىء برأسها فى فهم .

قالت : " أعرف ولكنها بهيمية " .

قامت الدوقة بتنقية صوتها .

قالت بدهشة : " أصبح من السهل أن يصير المرء فنانا فى أيامنا هذه . فلم تعد هناك محاولات لإعادة رسم اللوحات . فقط يقوم الرسامون بالنبش بهذا الشىء الذى يسمى - ليس الفرشاة ، أنا واثقة — "

قالت ناعومى وهى تبتسم مرة أخرى : " مزاجة " .

قالت الدوقة : " إنها تنقش الكثير فى وقت واحد . رسم إجمالى . وبذلك تنتهى اللوحة ! والجميع يقولون : " *يا لها من لوحة جميلة* " . حسنًا ، إن مثل هذا الأمر لا يروق لى بالمرة . أعطنى — "

" لوحة لطيفة لكلب أو حصان رسمها إدوين لاندسير " .

سألت الدوقة : " ولم لا ؟ ماذا يعيب لاندسير ؟ " .

قالت ناعومى : " لا شىء . لا بأس به . ولا بأس بك أيضًا . إن ظاهر الأشياء يكون دائمًا براقًا ولطيفًا . أنا أحترمك أيتها الدوقة ، فأنت تملكين السلطة . أنت تحظين بحياة رغدة وتتربعين فوق عرش المجتمع ، أما الأشخاص الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا فهم يرون الجانب السفلى من الأشياء . وهذا أمر مثير إلى حد ما " .

أخذت الدوقة تحدق فيها .

قالت : " أنا لا أملك أدنى فكرة عما تتحدثين عنه " .

كان السيد ساترثوايت مازال يتفحص اللوحات . وقد أدرك ما لم تستطع الدوقة إدراكه ، وهو روعة التقنية المستخدمة فى رسم اللوحات . شعر بالدهشة والسعادة . ثم نظر إلى الفتاة .

سألها : " هلا تبيعين لى إحدى هذه اللوحات يا آنسة كارلتون سميث ؟ " .

قالت الفتاة فى غير مبالاة : " تستطيع شراء أية لوحة مقابل خمسة جنيهات " .

تردد السيد ساترثوايت لدقيقة أو دقيقتين ، ثم اختار لوحة ثمرة الكمثرى الشائكة والصبار . كان يوجد فى طليعتها لمسات حيوية من الموزا الصفراء . وكان اللون القرمزى لزهرة الصبار يرقص داخل وخارج الصورة ، وكان يقف بشموخ وصلابة أسفل كل هذا النموذج المربع للكمثرى الشائكة ونبات الصبار .

انحنى قليلاً للفتاة ، وقال :

" سأكون سعيدًا إن سمحتِ لى بالحصول على هذه اللوحة ، فهى ستساعدنى على إجراء صفقة مقايضة رائعة . ففى يوم ما يا آنسة كارلتون سميث سأستطيع بيع هذه اللوحة مقابل سعر جيد - إن أردت هذا ! " .

مالت الفتاة للأمام لترى اللوحة التى اختارها . رأى نظرة جديدة فى عينيها . فللمرة الأولى أصبحت مدركة لوجوده ، وبدأت تنظر إليه نظرة احترام .

قالت له : " لقد اخترت أفضل لوحة . أنا سعيدة لأجل ذلك " .

قالت الدوقة : " حسنًا ، أعتقد أنك تعلم ما تفعله . وأعتقد أنك محق . فقد سمعت أنك خبير ، ولكن ليس بإمكانك أن تقنعنى بأن هذه التقليعات الجديدة تسمى فنًا ، حيث إنها ليست كذلك . مع ذلك فنحن لسنا بحاجة للخوض فى مثل هذه الأمور . فأنا لن أبقى هنا سوى لبضعة أيام ، وأرغب فى مشاهدة الجزيرة . إن لديك سيارة ، أليس كذلك يا ناعومى ؟ " .

أومأت الفتاة .

قالت الدوقة : " رائع . سوف نذهب فى رحلة إلى مكان ما غدًا " .

" إنها سيارة ذات مقعدين فقط " .

" هراء ، لابد أن يكون هناك مقعد خلفى صغير يلائم السيد ساترثوايت ؟ " .

تنهد السيد ساترثوايت . فإنه قد رأى طرق كورسيكا هذا الصباح . وكانت ناعومى تنظر إليه وهى تفكر بعمق .

قالت : " أخشى أن سيارتى لن تكون ذات نفع لكما . إنها سيارة رثة وبالية . لقد اشتريتها مستعملة مقابل أغنية وحيدة . إنها سوف تقلنى أنا فقط عبر التلال ـ وذلك بالملاطفة والتملق . ولكن ليس بإمكانى أن أصطحب مسافرين بها . ولكن يوجد مرآب جيد بالبلدة . يمكنكما استئجار سيارة من هناك " .

قالت الدوقة فى فزع : " أستأجر سيارة ؟ يا لها من فكرة . من هذا الرجل الوسيم ـ ذو البشرة الصفراء ـ الذى كان يقود تلك السيارة ذات الأربعة مقاعد قبل الغداء مباشرة ؟ " .

" أعتقد أنك تقصدين السيد توملينسون . إنه قاض هندى متقاعد " .

قالت الدوقة : " هذا يفسر سبب اصفرار بشرته . كنت أخشى أن يكون مصابًا بالصفراء . يبدو لى رجلاً لطيفًا . يجب أن أتعرف عليه " .

وفى هذا المساء بينما كان ذاهبًا لتناول العشاء ، وجد السيد ساترثوايت الدوقة متألقة فى ثوب من القطيفة الأسود والمرصع بالماسات ، تتحدث بحرارة إلى صاحب السيارة ذات الأربعة مقاعد . كانت تومئ إليه بطريقة ديكتاتورية .

" تعالى يا سيد ساترثوايت ، إن السيد توملينسون يقص علىّ أمتع القصص ، بالإضافة إلى ذلك فإنه سوف يصطحبنا فى رحلة غدًا بسيارته " .

نظر إليها السيد ساترثوايت بإعجاب .

قالت الدوقة : " لابد أن نذهب لتناول العشاء . تعال واجلس معنا على طاولتنا يا سيد توملينسون ، وبعد ذلك يمكنك أن تكمل ما كنت تخبرنى به " .

قالت الدوقة لاحقًا : " إنه رجل لطيف حقًا " .

قال السيد ساترثوايت : " ويمتلك سيارة لطيفة كذلك " .

قالت الدوقة : " أنت شرير " ، ثم لكزته فى مفاصل يده بمروحتها السوداء التى تحملها دومًا . أجفل السيد ساترثوايت متألمًا .

قالت الدوقة : " إن ناعومى ستأتى كذلك . فى سيارتها . إن هذه الفتاة تريد أن تأخذ السيارة لنفسها . إنها أنانية للغاية . إنها ليست منطوية على نفسها تمامًا ، ولكنها لا تبالى بأى شىء أو بأى شخص . ألا تتفق معى فى ذلك ؟ " .

قال السيد ساترثوايت ببطء : " لا أعتقد أن هذا ممكن ، أعنى أن كل شخص لابد أن يكون مهتمًا بشىء ما . فهناك بالطبع أناس انطوائيون ، ولكنى أتفق معك أنها ليست أحد هؤلاء . إنها شخصية غير مثيرة تمامًا . ومع ذلك فهى تمتلك شخصية قوية - لابد أن يكون هناك شىء ما . اعتقدت فى البداية أن هذا الشىء يكمن فى رسمها - ولكن اتضح لى أن الأمر ليس كذلك . إننى لم يسبق لى أن قابلت شخصًا منفصلاً عن الحياة بهذه الطريقة . إن هذا خطير " .

" خطير ؟ ماذا تعنى ؟ " .

" حسنًا ، إن هذا يعنى هوسًا من نوع ما ، والهوس دائمًا خطير " .

قالت الدوقة : " ساترثوايت ، لا تكن أحمق وأنصت إلىّ . بشأن الغد — "

أنصت السيد ساترثوايت . فكان ذلك هو دوره الرئيسى فى الحياة .

غادرا مبكرًا فى الصباح التالى آخذين غدائهما معهما . وكانت ناعومى - التى تقيم فى الجزيرة منذ ستة أشهر - هى المرشدة . ذهب إليها السيد ساترثوايت بينما كانت تجلس فى انتظار الانطلاق .

قال : " هل أنت واثقة أننى - أننى لا أستطيع المجئ معك ؟ " .

هزت رأسها ، قائلة :

" إنك ستكون مرتاحًا أكثر فى مقعد السيارة الأخرى الخلفى . إنها مقاعد مبطنة جيدة وكل هذه الأمور . ولكن ما تلك السيارة إلا قطعة خردة . إنها سوف تجعلك تطير فى الهواء عندما تصادفنا مطبات " .

" وهناك بالطبع التلال كذلك " .

ضحكت ناعومى .

" آه ، أنا فقط قلت ذلك لإنقاذك من المقعد الخلفى . إن بإمكان الدوقة استئجار سيارة . ولكنها أكثر النساء بخلاً فى إنجلترا . ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أمنع نفسى من الإعجاب بهذه السيدة العجوز " .

قال السيد ساترثوايت : " إذن يمكننى أن أركب معك ؟ " .

نظرت إليه فى فضول ، وقالت :

" لماذا تصمم على الركوب معى ؟ " .

انحنى السيد ساترثوايت بطريقته المعتادة المضحكة قائلاً : " هل يمكنك أن تسألى ؟ " .

ابتسمت ولكنها هزت رأسها .

قالت وهى تفكر بعمق : " ليس هناك سبب . إن الأمر غريب .... ولكن لا يمكنك أن تأتى معى ـ ليس اليوم " .

اقترح السيد ساترثوايت بشكل مهذب قائلاً : " ربما فى يوم آخر " .

" نعم ، فى يوم آخر ! " . ضحكت فجأة بطريقة غريبة كما اعتقد السيد ساترثوايت . " يوم آخر ! حسنًا سوف نرى " .

انطلقوا فى طريقهم . قادوا عبر المدينة وبعد ذلك حول المنعطف الطويل للساحل وهم يخترقون جسورا عبر النهر ليعودوا بعد ذلك للساحل الذى يزخر بمئات الخلجان الرملية الصغيرة . بعد ذلك بدءوا فى التسلق . أخذوا فى الصعود لأعلى وهم يعبرون منحنيات مدمرة للأعصاب ، وقد ظلوا يصعدون للأعلى إلى ما لا نهاية على الطريق المتعرج . كان الساحل الأزرق بعيدًا بالأسفل ويوجد أمامه ميناء أجاشيو ، الذى كان يبرق تحت أشعة الشمس وكأنه مدينة خيالية .

ظلوا يتسلقون ويقابلون جرفا تلو الآخر . شعر السيد ساترثوايت ببعض الدوار ، كما شعر بالغثيان . لم يكن الطريق عريضًا للغاية ، ومع ذلك فقد ظلوا يتسلقون .

أصبح الجو باردًا الآن . كانت الرياح تهب عليهم من المرتفعات الثلجية . أغلق السيد ساترثوايت معطفه بإحكام أسفل ذقنه .

كان الجو باردًا للغاية . وعبر الماء كان أجاشيو مازال مغمورًا بأشعة الشمس ، ولكن هنا ، بالأعلى ، كانت السحب الرمادية الكثيفة تحجب الشمس . توقف السيد ساترثوايت عن الإعجاب بالمنظر . فقد أصبح مشتاقًا الآن للفندق الدافئ والمقعد الوثير .

وأمامهم كانت سيارة ناعومى الصغيرة ذات المقعدين تسير بثبات . للأعلى ، للأعلى . لقد أصبحوا بأعلى بقعة فى العالم الآن . وعلى كلا الجانبين كانت توجد تلال أكثر انخفاضًا ، تلال تنحدر إلى أودية . نظروا مباشرة إلى المرتفعات الثلجية . كانت الرياح تصر فوقهم فى حدة مثل السكاكين . فجأة توقفت سيارة ناعومى ونظرت للوراء .

قالت : " لقد وصلنا إلى نهاية العالم ولا أعتقد أنه يوم مناسب لذلك " .

خرجوا جميعًا من السيارتين . كانوا قد وصلوا إلى قرية صغيرة بها نحو نصف دستة من الأكواخ الحجرية . وكان اسم القرية مطبوعًا على لوحة تعلو مسافة قدم من الأرض .

" كوتى شيافيرى " .

هزت ناعومى كتفيها .

" هذا هو اسمها الرسمى ولكنى أفضل أن أطلق عليها نهاية العالم " .

سارت خطوات قليلة وانضم إليها السيد ساترثوايت . أصبحوا وراء المنازل الآن . انتهى الطريق . وكما قالت ناعومى فهذا كان النهاية ، بداية اللاشىء . فكان خلفهم يوجد شريط الطريق الأبيض وأمامهم ـ لا شىء . فقط على مسافة بعيدة بالأسفل يوجد البحر ...

أخذ السيد ساترثوايت نفسًا عميقًا ، وقال :

" إنه مكان استثنائى . إن المرء يشعر أنه يمكن أن يحدث أى شىء هنا ، إن المرء يمكنه مقابلة ـ أى شخص ـــ "

توقف عن الحديث . فكان يوجد أمامهما ، مباشرة ، رجل يجلس على جلمود ، وكان وجهه متجهًا ناحية البحر . وهما لم يريانه حتى هذه اللحظة ، وقد بدا أنه ظهر من العدم مثل السحرة . ربما يكون قد خرج من مكان ما من الأراضى المجاورة .

قال السيد ساترثوايت : " أتساءل ـــ "

ولكن فى نفس اللحظة استدار الغريب ورأى السيد ساترثوايت وجهه .

" يا إلهى ، السيد كوين ! يا له من أمر غريب . يا آنسة كارلتون سميث ، أريد أن أقدمك إلى صديقى السيد

كوين . إنه رجل غير عادى . فأنت ، كما تعلم ، تظهر دومًا بشكل مفاجئ ـــ "

سكت عن الكلام وهو يشعر بأنه قد قال شيئًا شديد الأهمية ، ومع ذلك فلم يستطع أن يعرف ما هو .

صافحت ناعومى السيد كوين بطريقتها المفاجئة المعتادة .

قالت : " إننا هنا فى رحلة . ويبدو لى أننا سنتجمد من البرد " .

ارتعد السيد ساترثوايت .

قال بنبرة غير واثقة : " ربما علينا البحث عن مكان مغلق ؟ " .

وافقته ناعومى قائلة : " والذى سيكون بالطبع مكانًا غير هذا . ومع ذلك فهو يستحق المشاهدة ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم بالطبع " . استدار السيد ساترثوايت ناحية السيد كوين ، وقال : " إن الآنسة كارلتون سميث تسمى هذا المكان نهاية العالم . اسم جيد ، أليس كذلك ؟ " .

أومأ السيد كوين برأسه ببطء عدة مرات .

" نعم ـ إنه اسم موحٍ للغاية . أعتقد أن المرء يأتى مرة واحدة فقط فى مكان مثل هذا فى عمره كله ـ مكان لا يستطيع المرء أن يمضى فيه قدمًا " .

سألت ناعومى بحدة : " ماذا تعنى ؟ " .

استدار إليها .

" حسنًا ، عادة ما يكون هناك اختيار ، أليس كذلك ؟ سواء بالاتجاه يمينًا أو يسارًا ، للأمام أو للخلف . أما هنا فيوجد الطريق وراءك ولكن أمامك - لا يوجد شيء ".

حدقت فيه ناعومى . وفجأة ارتعدت وبدأت تتراجع ناحية الآخرين . تبعها الرجلان . استمر السيد كوين فى الحديث ولكن نبرته الآن أصبحت أكثر ودًا .

" هل أنت صاحبة السيارة الصغيرة يا آنسة كارلتون سميث ؟ ".

" نعم ".

" أنت تقودينها بنفسك ؟ إن المرء بحاجة لأعصاب حديدية على ما أعتقد للقيادة فى طريق مثل هذا . فالمنعطفات مرعبة حقًا . فلحظة واحدة من عدم الانتباه أو فشل الفرامل فى إيقاف العربة - سوف تطير السيارة من فوق الحافة وتتجه للأسفل - والأسفل - والأسفل . وسيكون هذا أمرًا يسهل القيام به ".

انضموا الآن للآخرين . قدم السيد ساترثوايت صديقه لهما . شعر بجذبة عنيفة لذراعه . كانت ناعومى قد جذبته بعيدًا عن الآخرين .

سألت بقوة : " من هو ؟ ".

أخذ السيد ساترثوايت يحدق فيها فى دهشة .

" حسنًا ، أنا لا أعرف عنه الكثير . أعنى أننى أعرفه منذ بعض السنوات الآن - فنحن نتقابل مصادفة من حين لآخر ، ولكن من ناحية المعرفة الوطيدة —"

سكت عن الكلام . كان ما يقوله مجرد عبث ، ولم تكن الفتاة التى توجد إلى جواره تنصت له . فقد كانت تقف ورأسها مائلة إلى الأمام ، ويديها مثبتة بإحكام عند جانبيها .

قالت : " إنه يعرف أشياء . إنه يعرف أشياء . كيف يعرف هذه الأشياء ؟ ".

لم يكن السيد ساترثوايت يملك إجابة على هذا السؤال . كل ما استطاع القيام به هو النظر إليها ببلاهة ، غير قادر على فهم العاصفة التى اجتاحتها .

قالت : " أنا خائفة ".

" خائفة من السيد كوين ؟ ".

" أنا خائفة من عينيه . إنه يرى أشياء ... ".

سقط شيء بارد ورطب على وجنة السيد ساترثوايت . نظر للأعلى .

قال فى دهشة بالغة : " يا إلهى ، إنها تمطر ثلجًا ".

قالت ناعومى : " يا له من يوم لطيف للخروج فى رحلة ".

استعادت السيطرة على نفسها بصعوبة .

ماذا يمكنهم أن يفعلوا الآن ؟ كانت هناك مجموعة من الاقتراحات . كان الثلج يهطل بكثافة وبسرعة . قدم السيد كوين اقتراحًا رحب به الجميع . كان هناك كوخ

حجرى صغير نهاية صف المنازل . وكان هناك فرار جماعى ناحيته .

قال السيد كوين : " إن لديك المؤن الخاصة بك ، وأعتقد أنه سيكون فى إمكانهم أن يقدموا لك بعض القهوة " .

كان مكانًا ضيقًا ومظلمًا بعض الشىء ؛ حيث إن النافذة الوحيدة الصغيرة به لم تنجح فى إضاءته بالشكل الكافى ، ولكن أحد الأطراف كان يشع دفئًا . كانت هناك سيدة كورسيكية تضع مجموعة من العيدان الخشبية بالنار . توهجت النار وحينما أنارت المكان أدرك الوافدون الجدد أن أشخاصًا آخرين سبقوهم إلى المكان .

فكان ثلاثة أشخاص يجلسون على نهاية طاولة خشبية . كان هناك شىء غير واقعى يشوب هذا المنظر والذى تراءى للسيد ساترثوايت ، وكان هناك شىء غير واقعى بشكل أكبر يشوب الأشخاص الموجودين .

فكانت المرأة التى تجلس بنهاية الطاولة تبدو كالدوقات ـ شكل شعبى من أشكال الدوقات . كانت تبدو كسيدة ذات شأن . كانت ترفع رأسها الأرستقراطية ، وكان شعرها مصففا بشكل جميل ، وذا لون أبيض ثلجى . كانت ترتدى ثوبًا رماديًا مصنوعًا من قماش الأجواخ الناعم يتدلى فوق جسمها بثنيات جميلة . وكانت يد بيضاء جميلة وطويلة تدعم ذقنها ، وكانت اليد الأخرى تمسك بفطيرة كبيرة . وكان يوجد على يمينها

رجل ذو وجه أبيض للغاية وشعر أسود للغاية ، ويرتدى نظارة معقوفة الإطار . كان يرتدى ملابس رائعة وأنيقة . وحينما أعاد رأسه للوراء ومد ذراعه للأمام بدا كأنه على وشك إلقاء خطبة .

وعلى يسار السيد ذات الشعر الأبيض كان يجلس رجل أصلع ضئيل الحجم . وبعد النظر إليه مرة واحدة لم يلتفت أحد إليه بعد ذلك .

لبرهة ظل الجميع صامتين إلى أن تحدثت الدوقة (الدوقة الحقيقية) .

قالت فى بهجة : " أليست هذه العاصفة مروعة حقًا ؟ " ، ثم تقدمت للأمام وهى تبتسم ابتسامة عريضة ، كانت تجدها مفيدة للغاية عند إلقاء كلمة فى الخدمات الاجتماعية واللجان الأخرى . " أعتقد أنكم علقتم فى العاصفة مثلنا تمامًا ؟ ولكن كورسيكا هى مكان رائع حقًا . أنا وصلت هذا الصباح فقط " .

نهض الرجل ذو الشعر الأسود وأخذت الدوقة مكانه وهى تبتسم ابتسامة عريضة .

تحدثت السيدة ذات الشعر الأبيض .

قالت : " إننا هنا منذ أسبوع " .

أجفل السيد ساترثوايت . هل يمكن لأى أحد سمع هذا الصوت أن ينساه بعد ذلك ؟ لقد دوى داخل الحجرة الصخرية وكان مشحونًا بالعاطفة وبالنزوع إلى الحزن . لقد

بدا له أنها قالت شيئًا رائعًا ، شيئًا يعلق فى الذاكرة وزاخرا بالمعنى . كانت تتحدث من قلبها .

تحدث ، فى عجلة ، هامسًا للسيد توملينسون .

" إن الرجل الذى يرتدى النظارة هو السيد فايس ـ المنتج ، ألا تعرفه ؟ " .

كان القاضى الهندى المتقاعد ينظر إلى السيد فايس نظرات مليئة بالكراهية .

سأل : " ماذا ينتج ؟ أطفالاً ؟ " .

قال السيد ساترثوايت ، بعد أن شعر بالصدمة إزاء التحدث بهذا الشكل الوقح عن السيد فايس : " لا يا عزيزى ، إنه ينتج مسرحيات " .

قالت ناعومى : " أعتقد أننى سأخرج مرة أخرى . إن الجو حار هنا للغاية " .

وقد جعل صوتها القوى والأجش السيد ساترثوايت يجفل . تحركت على الفور ناحية الباب وهى تدفع السيد توملينسون جانبًا . ولكن عند الباب نفسه وجدت نفسها وجهًا لوجه أمام السيد كوين الذى اعترض طريقها .

قال : " عودى إلى هناك واجلسى " .

كانت نبرة صوته آمرة . وقد اندهش السيد ساترثوايت حينما وجد أن الفتاة ترددت قليلا ثم انصاعت دون مناقشة . جلست على نهاية الطاولة ، فى أبعد نقطة عن الحاضرين .

اندفع السيد ساترثوايت للأمام وتحدث إلى المنتج بالإكراه .

قال : " ربما لا تتذكرنى ، أنا ساترثوايت " .

" بالطبع ! " ، ثم انطلقت يد طويلة عظمية ناحية الآخر وصافحته بقوة ، وقال صاحبها : " أهلاً يا عزيزى . من الغريب أن ألقاك هنا . أنت تعرف الآنسة نان بالطبع ؟ " .

قفز السيد ساترثوايت . لا عجب إذن أن صوتها بدا مألوفًا . إن الآلاف فى كل أنحاء إنجلترا يعشقون نبرات صوتها التى تغلفها العاطفة . روزينا نان ! أعظم ممثلة عاطفية فى إنجلترا . وكان السيد ساترثوايت أيضًا قد وقع أسيرًا لسحرها . فلا يوجد من هى أقدر منها على تقمص الأدوار ، وفى التعبير عن مختلف المعانى . ولطالما اعتقد أنها ممثلة مثقفة . فقد كانت تستوعب الدور وتتغلغل فى أعماقه .

وله العذر فى عدم التعرف عليها . فكانت روزينا نان تغير من هيئتها وشكلها دومًا وبشكل صارخ . فطوال خمسة وعشرين عامًا من حياتها ظلت شقراء . وبعد سفرها إلى الولايات المتحدة عادت بخصلات شعر سوداء ، وأصبحت جادة فى أعمالها التراجيدية . وكان هذا الشكل الفرنسى المركيزى هو آخر تقليعاتها .

قال فايس وهو يقدم الرجل الأصلع فى عدم مبالاة : " آه ، بالمناسبة ، هذا هو السيد جود ، زوج الآنسة نان " .

كان السيد ساترثوايث يعلم أن روزينا نان تزوجت أكثر من مرة . وفيما يبدو أن السيد جود هو آخر من تزوجتهم .

كان السيد جود مشغولاً بإخراج عبوات من سلة موجودة بجانبه . وجه الحديث لزوجته ، قائلاً :

" هلا تريدين فطيرة أخرى يا عزيزتى ؟ فالأخيرة لم تكن سميكة كما تحبينها " .

أعطته الفطيرة التى كانت تمسكها وقالت ببساطة :

" إن هنرى يعد لى دومًا أشهى الأكلات . أنا دائمًا أترك مهمة إعداد المؤن له " .

قال جود وهو يضحك : " يجب إطعام الوحش " . ثم قام بتربيت كتف زوجته .

همس صوت السيد فايس الحزين فى أذن السيد ساترثوايث قائلاً : " إنه يعاملها وكأنها كلبته . يقطع لها الطعام . إن النساء مخلوقات غريبة حقًا " .

أخرج السيد ساترثوايث والسيد كوين - الغداء الذى كان بينهما . تم توزيع بيض مسلوق صلب ، لحم بارد وجبن جروير حول الطاولة . وقد بدت الدوقة والآنسة نان منغمستان فى تبادل الأسرار . وكانت أجزاء من حوار الممثلة ترن بالمكان .

" إن الخبز لابد أن يكون محمصًا قليلاً . بعد ذلك تضعين طبقة رقيقة للغاية من المرملاد . قومى بلفه وضعيه فى الفرن مدة دقيقة واحدة - ليس أكثر من ذلك . إنه لذيذ للغاية " .

تمتم فايس : " إن تلك المرأة تعيش كى تأكل . إنها لا تفكر فى أى شىء سوى الطعام . أتذكر أنه فى مسرحية " المسافرون بحرًا " - وأنت تعلم أنها إحدى أفضل المسرحيات التى أنتجتها - أتذكر أننى لم أستطع أن أحصل على التأثير الذى أردته . وفى النهاية طلبت منها التفكير فى كريمة النعناع - فهى تعشق كريمة النعناع . وبهذا استطعت الحصول على التأثير الذى أريده على الفور - نوع من النظرة الشاردة التى تتغلغل لروحك " .

كان السيد ساترثوايث صامتًا . فقد كان يتذكر .

وقد قام السيد توملينسون بتنقية صوته استعدادًا للمشاركة فى الحوار .

" إنك تنتج مسرحيات ، أليس كذلك ؟ أنا أعشق المسرحيات الجيدة . " جيم ، الخطاط " ، تلك كانت مسرحية جيدة " .

قال السيد فايس : " يا إلهى " ، ثم ارتعدت جميع أوصاله .

قالت الآنسة نان للدوقة : " فص ثوم صغير . إنك طاهية ماهرة حقًا " .

تنهدت فى سعادة واستدارت ناحية زوجها .

قالت بحزن : " هنرى ، أنا لا أعرف أين الكافيار الخاص بى " .

قال السيد جود فى بهجة : " أنت تقريبًا تجلسين فوقه . لقد وضعته خلفك فوق المقعد " .

التقطته روزينا نان سريعًا ، وابتسمت للحاضرين .

" إن هنرى رائع حقًا . أنا دائمًا شاردة الذهن . فأنا أنسى دائمًا أين أضع الأشياء " .

قال هنرى ممازحًا : " مثل اليوم الذى وضعتِ فيه مجوهراتك فى حقيبتك . ثم تركتها فى الفندق . لقد أجريت الكثير من الاتصالات فى هذا اليوم " .

قالت الآنسة نان بشكل حالم : " لقد كانت مؤمنًا عليها ، بخلاف حجرى الكريم " .

ظهر على وجهها تعبير حزين ممزق للفؤاد .

فى مرات عديدة حينما يكون بصحبة السيد كوين يشعر السيد ساترثوايت بأنه يلعب دورًا فى المسرحية . وقد كان هذا الوهم معه الآن قويًا للغاية . كان ذلك مثل الحلم . كان كل شخص يلعب دورًا . وكانت العبارة " حجرى الكريم " هى الجملة التى أذنت له بالبدء فى لعب دوره . مال للأمام ، وقال :

".حجرك الكريم يا آنسة نان ؟ " .

" هل لديك الزبد يا هنرى ؟ شكرًا لك . نعم ، حجرى الكريم . لقدُ سرق . ولم أستعده قط " .

قال السيد ساترثوايت : " أخبرينا بما حدث " .

" حسنًا ، لقد ولدت فى أكتوبر ـ لذا فقد كان أمرًا جالبًا للحظ بالنسبة لى أن أرتدى الأحجار الكريمة . ولهذا السبب أردت شراء حجر جميل حقًا . وقد انتظرت فترة طويلة حتى وجدته . وقد قالوا لى إنه أفضل الأحجار الموجودة فى العالم . وهو ليس كبيرًا للغاية ـ فهو فى حجم قطعتين معدنيتين صغيرتين ـ ولكن يا إلهى ! اللون والنار " .

تنهدت . لاحظ السيد ساترثوايت أن الدوقة كانت تتململ وبدت مضطربة ، ولكن لم يكن بإمكان شىء إيقاف الآنسة نان الآن . واصلت حديثها وقد جعلت نبرات صوتها الرائعة القصة تبدو مثل الملاحم الحزينة القديمة .

" لقد سرقها شاب يدعى أليك جيرارد . كان يكتب مسرحيات " .

أضاف السيد فايس بشكل ينم عن الخبرة : " مسرحيات جيدة حقًا . وذات مرة احتفظت بإحدى مسرحياته فترة ستة أشهر " .

سأل السيد توملينسون : " هل قمت بإنتاجها ؟ " .

قال السيد فايس وهو مصدوم من الفكرة : " آه ، لا . ولكن هل تعرف ؟ لقد فكرت ذات مرة فى القيام بذلك " .

قالت الآنسة نان : " لقد كان بها دور رائع لى . كانت تسمى " أولاد راشيل " ـ بالرغم من أن المسرحية ليس بها

أى شخصية تدعى راشيل . وقد جاءنى ليتحدث معى بشأنها ـ فى المسرح . وقد أثار إعجابى ـ كان وسيمًا وخجولاً للغاية وفقيرًا . أتذكر " ـ برقت نظرة شاردة جميلة فى عينيها ـ وأكملت " أتذكر أنه جلب معه كريمة النعناع . كان الحجر الكريم يوجد على طاولة المكياج . وقد كان هو قد سافر إلى أستراليا ، ويعرف القليل عن الأحجار الكريمة . وقد أخذ الحجر وتفحصه تحت الضوء . أعتقد أنه يجب أن يكون قد دسه فى جيبه فى هذا الوقت . وقد افتقدته بمجرد أن فقدته . وقد حدثت ضجة كبيرة ، أتذكر ؟ " .

قال السيد فايس وهو يتأوه : " نعم أتذكر " .

واصلت الممثلة حديثها قائلة : " ووجدوا العبوة فارغة فى حجرته ، إلا أنه قد أنكر قيامه بذلك بضراوة . ولكنه فى اليوم التالى وضع مبالغ طائلة من المال فى حسابه بالبنك . وقد ادعى أن صديقًا له كان قد راهن على حصان من أجله وفاز بالرهان ، ولكن لم يستطع الإتيان بهذا الصديق ، وقال إنه لابد أن يكون قد وضع العبوة فى جيبه على سبيل الخطأ . يا له من عذر واه هذا ، ألم يكن فى إمكانه التفكير فى شىء أفضل من ذلك ... وقد اضطررت للذهاب وتقديم الدليل . وقد نشرت جميع الصحف صورى . وقد أخبرنى وكيل أعمالى أن ذلك كان دعاية جيدة للغاية لى ـ ولكننى كنت أفضل استعادة حجرى الكريم " .

هزت رأسها فى حزن .

قال السيد جود : " أتريدين بعض الأناناس المحفوظ ؟ " .

أشرق وجه الآنسة نان .

" أين هو ؟ " .

" لقد أعطيته لك لتوى " .

نظرت الآنسة نان خلفها وأمامها ، ورأت حقيبتها الرمادية الحريرية وبعد ذلك أخذت حقيبة أرجوانية حريرية كبيرة كانت تستند على الأرض إلى جوارها . بدأت تخرج محتوياتها ببطء على الطاولة ، الأمر الذى أثار انتباه السيد ساترثوايت .

كانت هناك حقيبة تجميل ، وطلاء شفاة ، وحقيبة مجوهرات صغيرة ، وخصلة خيط صوفية ، وحقيبة تجميل أخرى ، ومنديلان ، وصندوق من كريمة الشيكولاتة ، وفتاحة أظرف مطلية بالمينا ، ومرآة ، وصندوق خشبى بنى داكن ، وخمسة خطابات ، ومربع صغير من الكريب الصينى بنفسجى اللون ، وجزء من شريط قماشى ، ونهاية قطعة كرواسون . وفى النهاية أخرجت الأناناس المحفوظ .

تمتم السيد ساترثوايت برقة : " وجدتها " .

" أستميحك عذرًا ؟ " .

قال السيد ساترثوايت بسرعة : " لا شىء . يا لها من فتاحة أظرف رائعة " .

" نعم حقًا . لقد أعطاها لى شخص ما . لا أستطيع أن أتذكر من " .

قال السيد توملينسون : " إن ذلك صندوق هنرى . إنها أشياء صغيرة دالة على البراعة ، أليس كذلك ؟ " .

قالت الآنسة نان : " شخص ما أعطانى هذا أيضًا . أنا أملكه منذ وقت طويل . وهو يوجد دومًا على طاولة زينتى فى المسرح . أنا لا أعتقد أنه جميل للغاية ، ألا تظن هذا ؟ " .

كان الصندوق مصنوعًا من الخشب البنى الداكن . وكان يفتح عن طريق الضغط من الجانب . وبأعلاه كان يوجد لسانان خشبيان ، يمكن أن يظلا يدوران ويدوران .

قال السيد توملينسون ضاحكًا : " ليس جميلاً ، ربما . ولكننى واثق من أنه لم يسبق لك رؤية واحد مثله " .

مال السيد ساترثوايت للأمام . كان يشعر بالإثارة .

سأل : " لماذا قلت إنها أشياء دالة على البراعة ؟ " .

" حسنًا ، أليس كذلك ؟ " .

كان القاضى يروق للآنسة نان . كانت تنظر إليه بانجذاب .

كانت الآنسة نان لا تزال تبدو مشدوهة ، إلا أنها قالت : " أعتقد أنه لا ينبغى علىّ أن أريهم الخدعة ، أليس كذلك ؟ " .

سأل السيد جود : " أية خدعة ؟ " .

" يا إلهى ، ألا تعلم ؟ " .

نظر حوله إلى الوجوه الحائرة .

" شاهدوا معى هذا . هلا أعطيتنى الصندوق من فضلك ؟ شكرًا لك " .

قام بفتحه ، فقالت :

" والآن ، أريد من أحدكم أن يعطينى شيئًا ما لوضعه به - شيئًا ليس كبيرًا . ها هى قطعة من جبن الجروير . تلك مناسبة تمامًا . أقوم بوضعها بالداخل وأغلق الصندوق " .

تلمس الصندوق بيديه لدقيقة أو اثنتين .

" الآن انظروا — " .

فتح الصندوق ثانية . إنه فارغ .

قال السيد جود : " حسنًا ، أنا لم — ، كيف فعلت هذا ؟ " .

" إن الأمر بسيط . اقلب الصندوق ثم حرك اللسان الأيسر منتصف المسافة دائريًا ثم أغلق اللسان الأيمن . والآن لنحصل على قطعة الجبن مرة أخرى لابد أن نعكس هذه العملية . نحرك اللسان الأيمن نصف المسافة دائريًا ونغلق اللسان الأيسر والصندوق مازال مقلوبًا . والآن - ها هى ! " .

انفتح الصندوق . لهث الحاضرون . كانت قطعة الجبن هناك - ولكن كان هناك شىء آخر كذلك . شىء مستدير كان يعكس كل لون من ألوان الطيف .

" *حجرى الكريم !* " .

كان صوتها مرتفعًا وواضحًا . هبت روزينا نان واقفة وهى تضع يديها على صدرها .

" حجرى كريم ! كيف جاء إلى هنا ؟ " .

قام هنرى جود بتنقية صوته ، ثم قال :

" أعتقد ـ أعتقد يا روزى يا صغيرتى أنه لابد أنك وضعته هناك بنفسك " .

نهض أحد الأشخاص ومشى باضطراب إلى الخارج فى الهواء . كانت ناعومى كارلتون سميث . تبعها السيد كوين .

" ولكن متى ؟ أتقصد ـــ ؟ " .

أخذ السيد ساترثوايث يترقبها فى أثناء إدراكها للحقيقة . لقد استغرق منها الأمر دقيقتين حتى تعى ما حدث .

" أتقصد العام الماضى ـ فى المسرح ؟ " .

قال هنرى : " أنت تضيعين الأشياء يا روزى . انظرى ما حدث مع الكافيار اليوم " .

كانت الآنسة نان خاضعة فى ألم لعملياتها العقلية .

" أنا فقط وضعته فيه دون تفكير ، وأعتقد أننى قلبت الصندوق وقمت بالخدعة دون أن أقصد ـ ولكن ذلك يعنى " أخيرًا قالتها " إذن فإن أليك جيرارد لم يسرقها . يا إلهى ! " ـ تنهدت بعمق بطريقة مثيرة للمشاعر ـ " يا له من أمر بغيض ! " .

قال السيد فايس : " حسنًا ، يمكن تصحيح هذا الوضع الآن " .

" نعم ولكنه فى السجن منذ عام " . بعد ذلك أفزعتهم . فقد استدارت ناحية الدوقة وتحدثت بحدة .

" من هذه الفتاة ـ تلك التى خرجت لتوها ؟ " .

قالت الدوقة : " الآنسة كارلتون سميث ، وقد كانت مخطوبة للسيد جيرارد . لقد كان الأمر شاقًا عليها حقًا " .

تسلل السيد ساترثوايث للخارج بخفة . لقد توقف الثلج عن الهطول ، وكانت ناعومى تجلس على الجدار الصخرى . كانت تمسك بدفتر لوحات فى يدها ، وبعض أقلام الشمع كانت متناثرة حولها . كان السيد كوين يقف إلى جوارها .

أعطت الدفتر للسيد ساترثوايث . كان عملاً قاسيًا ـ ولكن كان ينطوى على عبقرية . كان الرسم عبارة عن دوامة من الكسفات الثلجية يوجد فى منتصفها شكل ما .

قال السيد ساترثوايث : " جيد جدًا " .

نظر السيد كوين للأعلى إلى السماء .

قال : " لقد انتهت العاصفة . سوف تكون الطرق زلقة ، ولكنى لا أعتقد أنه ستقع أية حادثة ـ الآن " .

قالت ناعومى : " لن تقع حوادث . كان صوتها مشحونًا بمعنى معين . لم يفهمه السيد ساترثوايث . استدارت وابتسمت له ـ ابتسامة مفاجئة مبهرة ، وقالت

: " يمكن للسيد ساترثوايث أن يأتى معى فى سيارتى إن أراد ذلك " .

أدرك فى ذلك الوقت إلى أى مدى كان اليأس قد جرفها .

قال السيد كوين : " حسنًا ، لابد أن أودعكما " .

مضى مبتعدًا .

قال السيد ساترثوايث وهو يحدق فيه : " إلى أين هو ذاهب ؟ " .

قالت ناعومى بنبرة صوت غريبة : " من حيث أتى على ما أعتقد " .

قال السيد ساترثوايث : " ولكن ـ ولكن لا يوجد شىء هناك " ، فالسيد كوين كان متجهًا إلى البقعة عند حافة الجرف التى وجدوه بها فى المرة الأولى . " لقد قلتِ بنفسك إن تلك هى نهاية العالم " .

أعطاها ثانية دفتر اللوحات .

قال : " إنها جيدة جدًا . تشابه رائع حقًا . ولكن لماذا ـ لماذا ألبسته ملابس تنكرية ؟ " .

تلاقت عيناها مع عينيه لثانية .

قالت ناعومى كارلتون سميث : " هكذا أراه " .

الفصل ١٢

زقاق المهرج

لم يكن السيد ساترثوايث يعرف تمامًا ما الذى دفعه للذهاب للإقامة مع عائلة دينمان . فقد كانوا من طراز مختلف ـ بمعنى أنه لم ينتموا لا لعالمه الراقى ولا للعالم الفنى الأكثر إثارة . لقد كانوا كارهين للفنون والآداب ومملين . وكان السيد ساترثوايث قد تعرف عليهم فى بيارتز وقبل دعوتهم للإقامة معهم ، وذهب بالفعل وشعر بالملل ، ومع ذلك فإنه عاود الذهاب إليهم فى مرات أخرى .

لماذا ؟ كان يطرح على نفسه هذا السؤال فى هذا اليوم ، الموافق الحادى والعشرين من يناير ، بينما كان يغادر لندن بسيارته الرولز رويس .

كان جون دينمان رجلًا فى الأربعين من عمره ، وهو رجل صارم ، وله مركز مرموق فى عالم إدارة الأعمال . ولم يكن أصدقاؤه هم أصدقاء السيد ساترثوايث . كما لم

تكن أفكاره هى أفكار السيد ساترثوايت . لقد كان رجلاً بارعًا فى مجاله ، ولكنه كان يفتقر إلى الخيال .

" لماذا أفعل هذا ؟ " ، طرح السيد ساترثوايت على نفسه هذا السؤال مرة أخرى ـ وكانت الإجابة الوحيدة التى طرأت على ذهنه غامضة للغاية ومنافية للطبيعة ، لدرجة أنه قام بتنحيتها جانبًا . فقد كان السبب الوحيد لذهابه هناك هو ، حقيقة ، أن إحدى غرف المنزل (كان منزلاً مريحاً حسن التجهيز) كانت تثير فضوله . كانت هذه الغرفة هى غرفة جلوس السيدة دينمان الخاصة .

لم تكن هذه الغرف انعكاسًا لشخصيتها بالمرة ؛ حيث إنها ـ وفقًا لما توصل إليه السيد ساترثوايت ـ لم تكن تملك أية شخصية . فهو لم يقابل قط من قبل أى امرأة خالية من التعبير بهذه الطريقة . وقد كان يعلم أنها روسية المولد . فكان جون دينمان فى روسيا عند اندلاع الحرب الأوروبية ، وقد كان يحارب مع القوات الروسية ، ونجح فى النجاة بحياته عند قيام الثورة ، واصطحب هذه الفتاة الروسية الفقيرة معه . ورغم معارضات والديه الضارية إلا أنه تزوجها .

ولم تكن حجرة السيدة دينمان مميزة بأى شكل من الأشكال ، فكانت مجهزة بأثاث جيد من نوع جيبلوايت ـ وكانت ذا طابع ذكورى أكثر منه نسائيًا . ولكن بداخل الغرفة كانت توجد قطعة أثاث متنافرة مع ما حولها من أثاث : بارافان صينى مطلى بورنيش اللك ـ ذو لون أصفر

كريمى ووردى شاحب . وأى متحف كان سوف يسعد بضمه إلى مجموعته الفنية . لقد كان قطعة فنية جميلة ونادرة .

ولكنها لم تكن متماشية تمامًا مع الخلفية الإنجليزية الصارمة . إنها لابد أن تكون المحور الرئيسى للغرفة ، مع الحرص على أن ينسجم كل شىء آخر معها . ومع ذلك ، فلم يكن باستطاعة السيد ساترثوايت اتهام عائلة دينمان بنقص الحس الذوقى ؛ فكل شىء آخر فى المنزل كان متلائمًا مع الأشياء الأخرى .

قام السيد ساترثوايت بهز رأسه . فهذا الأمر ـ رغم تفاهته ـ كان يثير حيرته . فبسبب هذا البارافان ظل يأتى لهذا المنزل مرات ومرات . ربما يكون مجرد نزوة امرأة ـ ولكن هذا الحل لم يحز على رضاه حينما فكر فى السيدة دينمان ـ فكانت امرأة ذات قسمات وجه صارمة ، وتتحدث الإنجليزية بشكل صحيح ، لدرجة أنه لا يمكن لأى إنسان أن يتخيل أنها أجنبية .

وصلت السيارة إلى وجهتها وخرج منها السيد سارتثوايت وعقله مازال منشغلاً بمسألة البارافان الصينى . وكان لقب عائلة دينمان هو " أشميد " وكان يشغل نحو خمس أكرات من بلدة ميلتون هيث ، التى تبعد عن لندن مسافة ٣٠ ميلاً ، وتقع فوق سطح البحر بمسافة خمسمائة قدم ، وأغلبهم ميسورو الحال ، وذوو دخول وفيرة .

وقد استقبل كبير الخدم السيد ساترثوايت بالترحاب . وكان كل ـ من السيد والسيدة دينمان بالخارج ـ فى بروفة ما ـ وقد تركا رسالة للسيد ساترثوايت بأن يتصرف وكأنه فى بيته إلى أن يعودا .

وافق السيد ساترثوايت وقرر العمل بوصيتهما عن طريق الخروج إلى الحديقة . وبعد تفحص المزاهر سريعًا شرع فى التمشية فى الظل إلى أن وصل إلى باب فى جدار سور الحديقة . كان غير موصد ، فدخل ليجد نفسه فى زقاق ضيق .

نظر السيد ساترثوايت يمينًا ويسارًا . كان زقاقًا رائعًا مظللاً وأخضر اللون ، تحوطه سياجات الأشجار ـ ممر ريفى ، كان ينعطف بطريقة جميلة عتيقة الطراز . تذكر العنوان المطبوع للمنزل : أشميد ، زقاق المهرج ـ فقد تذكر أيضًا الاسم المحلى الذى أعطته له السيدة دينمان ذات مرة .

تمتم بينه وبين نفسه برفق : " زقاق المهرج . إننى أتساءل ــ " .

انحرف عند المنعطف .

ولم يحدث ذلك فى هذه اللحظة وإنما لاحقًا حينما تساءل لماذا لم يشعر بالدهشة حينما قابل هناك صديقه المراوغ السيد هارلى كوين . تصافح الرجلان .

قال السيد ساترثوايت : " إذن أنت هنا " .

قال السيد كوين : " نعم ، أنا أقيم فى نفس المنزل الذى تقيم فيه " .

" أنت تقيم هنا ؟ " .

" نعم ، هل هذا يدهشك ؟ " .

قال السيد ساترثوايت ببطء : " لا . فقط ـ حسنًا ، أنت لا تمكث قط فى مكان ما لفترة طويلة ، أليس كذلك ؟ " .

قال السيد كوين بجدية : " فقط حسبما يستدعى الأمر " .

قال السيد ساترثوايت : " نعم ، نعم " .

سارا فى صمت لمدة بضع دقائق .

قال السيد ساترثوايت : " هذا الزقاق " ، ثم سكت .

قال السيد كوين : " إنه لى " .

قال السيد ساترثوايت : " هذا ما اعتقدته . فبطريقة ما ظننت أنه لابد أن يكون لك . إن له اسمًا آخر . الاسم المحلى . إنهم يطلقون عليه " زقاق العشاق " . أكنت تعرف ذلك ؟ " .

أومأ السيد كوين .

قال برفق : " ولكن . بالتأكيد ، هناك زقاق للعشاق فى كل بلدة ؟ " .

قال السيد ساترثوايت، وهو يتنهد قائلاً : " أعتقد ذلك " .

شعر فجأة بأنه عجوز ، وفى مكان غير مناسب له ، مجرد رجل ذابل ضبابى . فكان يحيط به من كل جانب سياجات الشجيرات الخضراء اليانعة .

سأل فجأة : " أتساءل أين ينتهى هذا الزقاق ؟ " .

قال السيد كوين : " إنه ينتهى ـ *هنا* " .

وصلا إلى المنعطف الأخير . انتهى الزقاق بقطعة أرض جرداء ، كان يوجد أمامها مباشرة حفرة كبيرة . وبداخلها كان هناك عبوات صفيح تبرق تحت أشعة الشمس ، وعبوات أخرى كانت صدئة وحمراء اللون لدرجة لم تجعلها تبرق وأحذية قديمة وقصاصات من صحف ومئات النفايات والبقايا التى لم تعد ضرورية لأى شخص .

قال السيد ساترثوايت : " كومة من القمامة " ، ثم تنفس بعمق وبسخط .

قال السيد كوين : " فى بعض الأحيان توجد أشياء رائعة للغاية فى أكوام القمامة " .

صاح السيد ساترثوايت : " أعلم ، أعلم " ، ثم استشهد بهذه العبارة " اجلب لى أجمل شيئين فى المدينة . وأنت تعرف باقى المثل ، أليس كذلك ؟ " .

أومأ السيد كوين .

نظر السيد ساترثوايت إلى حطام كوخ صغير كان مقامًا على حافة جدار الجرف .

قال : " ليس هذا بمشهد جميل يمكن رؤيته من المنزل " .

قال السيد كوين : " أعتقد أن ذلك المكان لم يكن عبارة عن كومة قمامة قبل ذلك . أعتقد أن الزوجين دينمان كانا يقيمان هناك فى بداية زواجهما . وقد انتقلا إلى المنزل الكبير حينما توفى الأشخاص العجائز الذين كانوا يقطنون به . وقد تم تدمير الكوخ حينما بدءوا فى اقتلاع الحجارة هنا ـ ولكنهم لم ينجزوا الكثير كما ترى " .

استدارا وبدءا يعودان أدراجهما .

قال السيد ساترثوايت وهو يبتسم : " أعتقد أن العديد من العشاق يأتون إلى هذا الزقاق فى ليالى الصيف الدافئة هذه " .

" على الأرجح " .

قال السيد ساترثوايت : " عشاق " . أخذ يكرر الكلمة وهو يفكر بعمق ودون أن يشعر بالإحراج الطبيعى الذى ينتاب الرجل الإنجليزى . كان السيد كوين يؤثر فيه بهذه الطريقة " العشاق ... لقد فعلت الكثير من أجل العشاق يا سيد كوين " .

انحنى الآخر قليلاً دون أن يجيب .

" لقد أنقذتهم من الأسى ـ ومما هو أكثر من الأسى ـ من الموت . بل إنك قد دافعت عن الأموات واستردت حقوقهم " .

" إنك تتحدث عن نفسك ـ عما فعلته أنت . لا أنا " .

قال السيد ساترثوايت : " إنه نفس الشيء . أنت تعلم ذلك . لقد كنت تلعب دورك من خلالى ـ فلسبب ما أنت لا تتدخل بشكل مباشر " .

قال السيد كوين : " فى بعض الأحيان أقوم بذلك " .

كان بصوته نبرة جديدة . ورغمًا عنه ارتعد السيد ساترثوايت . فقد اعتقد أن الجو سيزداد برودة بالرغم من أن الشمس كانت ساطعة للغاية .

وفى هذه اللحظة أتت فتاة من عند المنعطف ووقفت أمامهما . كانت فتاة جميلة للغاية ، ذات عينين زرقاوين وشعر أصفر ، وترتدى عباءة قطنية وردية اللون . وقد تعرف عليها على الفور ، فكانت مولى ستانويل التى قابلها فى هذا المنزل قبل ذلك .

لوحت بيدها لتحيته .

قالت : " لقد عاد جون وآنا لتوهما . كانا يعلمان أنك ستصل فى هذا الوقت ولكن كان لابد لهما من الذهاب إلى البروفة " .

سأل السيد ساترثوايت : " بروفة ماذا ؟ " .

" تلك الحفلة التنكرية ـ لا أعلم ماذا ستسميها . سيكون بها رقص وغناء وكل هذه الأمور . والسيد مانلى ، هل تذكره ؟ إن لديه صوتًا جميلاً ، صادح جميل وسيكون هو المهرج وأنا المهرجة . وسيأتى راقصان محترفان . وسيكون هناك كذلك كورس من الفتيات . إن الليدى روشمير تتوق إلى تدريب فتيات القرية على الغناء . وهى

بالفعل تستعد لهذا الأمر . والموسيقى لطيفة حقًا ولكنها حديثة للغاية ـ تكاد لا تميز أى نغمة بها . كلود ويكهام . ربما تعرفه ؟ " .

أومأ السيد ساترثوايت ، حيث إنه ـ كما ذكرنا قبل ذلك ـ كان يعرف كل الناس . فقد كان يعلم كل شيء عن العبقرى والملهم كلود ويكهام ، وعن الليدى روشمير تلك المرأة البدينة التى كانت مولعة بالشباب من الوسط الفنى .

وكان يعلم كل شيء عن السيد ليوبولد روشمير الذى كان يحب أن تكون زوجته سعيدة ، ولم يكن يمانع ـ وهو الأمر النادر بين الأزواج من الرجال ـ أن تكون زوجته سعيدة بطرقها الخاصة .

وقد وجدوا كلود ويكهام يشرب الشاى مع عائلة دينمان ، ويحشر داخل فمه بدون تمييز أى شيء تطوله يده ، ويتحدث بسرعة ، ويلوح بيديه الطويلتين اللتين تبدوان مزدوجتى المفصل . وكانت عيناه المصابتان بقصر النظر تختبئان وراء نظارة كبيرة معقوفة الإطار .

وكان جون دينمان ـ ذلك الرجل الأنيق والذى يملك أقدر قدر ممكن من الدماثة ـ ينصت إليه فى ملل . وقد بدا للسيد ساترثوايت أن الموسيقار كان يتلو عليه ملاحظاته . وكانت آنا دينمان تجلس وراء أدوات الشاى فى هدوء ، وبوجه خال من التعبير كالمعتاد .

استرق السيد ساترثوايت النظر إليها . كانت طويلة ونحيفة وذات جلد مشدود فوق عظمتى وجنتيها

العلويتين ، وشعر أسود مفروق عند منتصف رأسها وبشرة لفحتها الشمس . إنها امرأة كثيرة البقاء خارج المنزل ، لا تهتم مطلقًا بوضع مساحيق التجميل . امرأة تشبه الدمية الهولندية ، جامدة ، وخالية من الحياة ـ ومع ذلك ...

فكر بينه وبين نفسه : " لابد أن يكون هناك معنى ما وراء هذا الوجه ، ولكن ليس هناك أى معنى . وهنا يكمن الخطأ . نعم هنا يكمن الخطأ " . ثم قال لكلود ويكهام : " أستميحك عذرًا ؟ ماذا كنت تقول ؟ " .

أعاد كلود ويكهام ـ والذى كان يحب نبرة صوته ـ كلامه من البداية ، قال : " روسيا ، إنها أكثر بلدان العالم إثارة . فهم يجرون التجارب . وربما يجرونها على حياة الآخرين ، ولكن ما العيب فى ذلك طالما أنهما يجرونها على أية حال . شىء رائع ! " . حشر ساندويتشًا داخل فمه بيد واحدة ، ثم تناول قضمة من قالب الشيكولاتة الذى كان يلوح به بيده الأخرى . قال (وفمه ممتلئ عن آخره) : " ولنأخذ الباليه الروسى مثالاً لنا " . وبعد أن تذكر مضيفته استدار إليها . ماذا كان رأيها فى الباليه الروسى ؟

وقد كان هذا السؤال مجرد مقدمة لنقطة مهمة ـ ما رأى كلود ويكهام فى الباليه الروسى ، ولكن إجابتها كانت غير متوقعة تمامًا حتى إنها قامت بتشتيته تمامًا ، حيث قالت :

" أنا لم أره قط " .

حدق فيها وهو فاغر فاه : " ماذا ؟ ولكن بالتأكيد — "

واصلت حديثها بنفس الطريقة الخالية من التعبير :

" قبل زواجى كنت راقصة . لذا أنا الآن — "

قال زوجها : " فى عطلة " .

" الرقص " . هزت رأسها فى غير مبالاة وقالت : " أنا أعرف كل حيلة . إنه لا يثير اهتمامى " .

" حقًا ! " .

وقد تطلب الأمر من كلود دقيقة حتى يستعيد رباطة جأشه .

قال السيد ساترثوايت : " بمناسبة الحديث عن إجراء التجارب على حياة الآخرين ، أتذكر أن روسيا قد أجريت تجربة مكلفة للغاية " .

استدار كلود ويكهام ونظر إليه .

قال : " أعلم ما سوف تقوله . كارزانوفا ! الخالدة كارزانوفا ! هل رأيت رقصها ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " ثلاث مرات . مرتان فى باريس ومرة فى لندن . ولم أنسها قط " .

كان يتحدث بنبرة تبجيل .

قال كلود ويكهام : " أنا رأيتها أيضًا . كنت فى العاشرة من عمرى . فقد اصطحبنى عمى لمشاهدتها . يا إلهى ! أنا لن أنساها أبدًا " .

ألقى بقطعة من الكعكة المحلاة بقوة فى إحدى المزهريات .

قال السيد ساترثوايت : " إن هناك تمثالاً صغيرًا لها فى متحف برلين . إنه رائع . ذلك الإيحاء بسهولة الكسر ـ وكأنما تستطيع كسرها بطرف إصبعك الإبهام . وقد رأيتها وهى تلعب دور الحورية المحتضرة فى بحيرة البجع " . سكت عن الكلام وهز رأسه ، قائلاً : " كانت عبقرية الأداء . وقد مر وقت طويل قبل أن تولد راقصة مثلها . كانت صغيرة أيضًا . وحياتها كانت قد انهارت عن جهل فى الأيام الأولى من الثورة " .

قال كلود ويكهام : " أغبياء ! رجال معتوهون ! قرود ! " . ارتشف رشفة من الشاى سببت له الاختناق .

قالت السيدة دينمان : " لقد درست مع كازرانوفا . أنا أتذكرها جيدًا " .

قال السيد ساترثوايت : " هل كانت رائعة ؟ " .

قالت السيدة دينمان بهدوء : " نعم ، لقد كانت رائعة " .

غادر كلود ويكهام ، وتنهد جون دينمان بشكل ينم عن الارتياح ، مما جعل زوجته تضحك .

أومأ السيد ساترثوايت : " أعلم فيم تفكر . ولكن بالرغم من كل شىء فإن الموسيقى التى يكتبها هذا الفتى رائعة حقًا " .

قال دينمان : " أعتقد هذا " .

" لا شك فى هذا . أما مدة بقائها واستمرارها فهذا أمر مختلف تمامًا " .

نظر إليه جون دينمان فى فضول .

" ماذا تعنى ؟ " .

" أعنى أنه لاقى نجاحًا مبكرًا . وهذا أمر خطير . خطير دائمًا " . نظر إلى السيد كوين وقال : " أنت تتفق معى فى ذلك ؟ " .

قال السيد كوين : " أنت دائمًا محق " .

قالت السيدة دينمان : " سوف نصعد إلى غرفتى بالطابق العلوى . إن جوها مبهج حقًا " .

قادتهم إليهم . أخذ السيد ساترثوايت نفسًا عميقًا حينما رأى البارافان الصينى . نظر إلى السيدة دينمان ليجدها تنظر إليه .

قالت وهى تومئ برأسها ببطء : " إنك محق دومًا . ما رأيك فى هذا البارافان ؟ " .

شعر أن كلماتها كانت بمثابة التحدى له ، وقد أجابها وهو يتلعثم بعض الشىء .

" آه ، حسنًا ـ إنه جميل . والأكثر من ذلك أنه فريد " .

" أنت محق " . أتى دينمان وراءه . " لقد قمنا بشرائه فى بداية زواجنا . وقد حصلنا عليه بحوالى عشر ثمنه الحقيقى ـ ولكنه بالرغم من ذلك شكل عبئًا ماليًا علينا لأكثر من عام . أتذكرين يا آنا ؟ " .

قالت السيدة دينمام : " نعم أتذكر " .

" فى الواقع لم يكن من المفترض أن نشتريه - ليس فى ذلك الوقت . ولكن بالطبع الأمر اختلف الآن . كان هناك بعض الأثاث المطلى باللك المعروض فى كريستى منذ فترة قريبة . فقط ما نحتاجه لجعل هذه الغرفة تبدو مثالية ، وحتى تصبح صينية الطراز مائة بالمائة ، يجب أن نتخلص من كل ما بها من أثاث إنجليزى . ولكن هل تصدق ، يا سيد ساترثوايت ، أن زوجتى رفضت هذه الفكرة تمامًا ؟ " .

قالت السيدة دينمان : " أنا أحب هذه الغرفة كما هى " .

كانت هناك نظرة مثيرة للفضول على وجهها . مرة أخرى شعر السيد ساترثوايت بالتحدى ، وبأن أحدهم قد أوقع به الهزيمة . نظر حوله ، وللمرة الأولى لاحظ غياب اللمسة الشخصية . لم يكن هناك أية صور أو زهور أو حلىّ صغيرة . إنها لم تكن تبدو أنها غرفة امرأة على الإطلاق . فلولا وجود قطعة واحدة من الأثاث وهى البارافان الصينى لبدت الغرفة مثل الغرف المعروضة فى متاجر الأثاث الكبرى .

رآها تبتسم له .

قالت : " أنصت " . مالت للأمام ، وللحظة بدت أنها أجنبية أكثر منها إنجليزية . " أنا أتحدث معك لأننى أعلم أنك ستفهم . لقد اشترينا هذا البارافان بما هو

أكثر من المال - بالحب . لأننا أحببناه ، لأنه جميل وفريد ، فقد قررنا التضحية بأشياء أخرى ، أشياء احتجناها وافتقدناها . أما قطع الأثاث الصينية الأخرى التى يتحدث عنها زوجى ، تلك التى يمكن شراؤها بالمال فقط فلا تستحق أن نضحى بجزء من أنفسنا فى سبيلها " .

ضحك زوجها .

قال ولكن بنبرة صوت يشوبها الاضطراب : " فلتقولى ما تشائين . ولكن هذا البارافان لا يتلاءم مع هذا الأثاث الإنجليزى . وهذا الأثاث الآخر فاخر ، كذلك . وأصلى وصلب ، ولكنه فى ليس مكانه المناسب . إنه من نوع هيبلوايت الفاخر " .

أومأت .

قالت برقة : " إنجليزى أصلى وصلب وجيد " .

حدق فيها السيد ساترثوايت . فقد تراءى له أن كلماتها هذه تخفى وراءها معنى ما . الغرفة الإنجليزية - جمال البارافان الصينى ... لا " . لقد أفلت من بين يديه مرة أخرى .

قال : " لقد قابلت الآنسة ستانويل فى الزقاق .. وقد قالت لى إنها ستكون المهرجة فى حفل الليلة " .

قال دينمان : " نعم ، وهى فتاة بارعة حقًا " . قالت آنا : " إن لديها قدمين غير رشيقتين " .

قال زوجها : " هراء . إن كل النساء متشابهات يا ساترثوايت . فهن لا يطقن أن يسمعن أحدهم يثنى على

امرأة أخرى . إن مولى فتاة جميلة للغاية ، ولهذا فإن أى امرأة أخرى لابد أن تحاول الانتقاص من قدرها وانتقادها " .

قالت آنا دينمان : " أنا أتحدث عن الرقص " . وقد بدت مندهشة بعض الشيء . نعم إنها جميلة للغاية ، أنا لا أنكر هذا ، ولكن قدميها تعوزهما الرشاقة . وأنت لن تستطيع إقناعى بأى شيء آخر ، لأننى خبيرة فى مجال الرقص " .

تدخل السيد ساترثوايت بلباقة .

" إنك ستجلب راقصين محترفين حسبما سمعت ؟ " .

" نعم ، لأداء الباليه بالشكل الصحيح . إن الأمير أورانوف سيحضرهما فى سيارته " .

" سيرجيوس أورانوف ؟ " .

كان من طرحت هذا السؤال هى آنا دينمان . استدار زوجها ونظر إليها .

" أتعرفينه ؟ " .

" نعم كنت أعرفه - فى روسيا " .

تراءى للسيد ساترثوايت أن جون دينمان بدا مرتبكًا .

" هل سيتعرف عليك ؟ " .

" نعم سوف يتعرف علىّ " .

ضحكت ضحكة خافتة تنم عن الانتصار . لم يكن وجهها يشبه وجوه الدمى الهولندية الآن . أومأت لزوجها وقالت :

" سيرجيوس . إذن هو من سيحضر الراقصين . لطالما كان مولعًا بالرقص " .

" أتذكر هذا " .

تحدث جون دينمان فجأة ثم استدار وغادر الغرفة .

تبعه السيد كوين . توجهت آنا دينمان للهاتف وطلبت رقمًا . وقد أوقفت السيد ساترثوايت بإيماءة حينما كان يهم باللحاق بالرجلين الآخرين .

" هل يمكننى التحدث إلى الليدى روشيمر . آه ! إنها أنت . أنا آنا دينمان . هل الأمير أورانوف وصل ؟ ماذا ؟ ماذا ؟ يا إلهى ! يا له من شيء شنيع " .

استمرت فى الإنصات لبضع دقائق أخرى ثم وضعت سماعة الهاتف . استدارت ناحية السيد ساترثوايت قائلة :

" لقد وقع حادث . لقد وقع نتيجة قيادة سيرجيوس إيفانوفيش . يا إلهى ، إن كل هذه السنين لم تغيره . وإصابات الفتاة ليست خطيرة ، ولكنها مصابة بكدمات وصدمة لن تستطيع معها الرقص الليلة . وقد انكسر ذراع الرجل . أما سيرجيوس إيفانوفيتش نفسه فلم يتعرض لأية إصابات . فالشيطان يعتنى بتابعيه على ما أعتقد " .

" وماذا عن حفل الليلة ؟ " .

" نعم يا صديقى . لابد من التصرف بهذا الشأن " .

جلست تفكر ثم نظرت إليه قائلة :

" أنا مضيفة سيئة يا سيد ساترثوايت . أنا لا أحسن استضافتك وتسليتك " .

" أؤكد لك أن هذا ليس ضروريًا . ولكن بالرغم من ذلك فإن هناك شيئًا واحدًا أود معرفته يا سيدة دينمان " .

" نعم ؟ " .

" كيف تعرفتم على السيد كوين ؟ " .

قالت ببطء : " إنه كثيرًا ما يأتي إلى هنا . أعتقد أنه يملك أرضًا فى هذه البلدة " .

قال السيد ساترثوايت : " نعم ، هذا صحيح . لقد أخبرنى بهذا اليوم " .

" إنه ــــ " سكتت عن الكلام . تلاقت عيناها مع عينى السيد ساترثوايت . " أعتقد أنك تعرفه أكثر منى " .

" أنا ؟ " .

" هذا صحيح ، أليس كذلك " .

شعر بالارتباك . فقد أحست روحه البارعة بأنها مزعجة . شعر أنها تود الضغط عليه ودفعه إلى ما لا يرغب فى الخوض فيه ، حيث أرادت منه أن يبوح لها بشيء هو غير مستعد للاعتراف به أمام نفسه .

قالت : " أنت تعرف ! أنت تعرف معظم الأمور يا سيد ساترثوايت " .

كانت تتملقه هنا ، ولكنها لم تستطع خداعه . هز رأسه فى تواضع شديد .

سأل : " ماذا يمكن لأى شخص أن يعرف . القليل . القليل للغاية " .

أومأت بطريقة تنم عن أنها متفقة معه فى الرأى . تحدثت ثانية بصوت غريب وكئيب ودون أن تنظر له :

" لنفترض أننى سأخبرك بشيء ما ـ ألن تسخر منى ؟ لا ، أعتقد أنك ستسخر منى . لنفترض أن شخصًا ما كان يدعى " ـ سكتت قليلاً ـ " كان يَدّعى شغل وظيفة ما ، كان يعيش فى الخيال ـ كان يدعى بينه وبين نفسه شيئًا ليس له وجود ـ كان يتخيل وجود شخص معين ... إنه مجرد إدعاء ـ أتفهمنى ـ خيال ـ ليس أكثر من ذلك . ولكن فى أحد الأيام ــــ " .

قال السيد ساترثوايت : " نعم ؟ " .

" تحول الخيال إلى حقيقة . الشيء الذى تخيله هذا الشخص ـ الشيء المستحيل ، الذى كان من المستحيل أن يتحقق ـ أصبح حقيقة ! هل هذا جنون ؟ أخبرنى يا سيد ساترثوايت . هل يبدو ذلك جنونًا ـ أم أنك تصدق هذا أيضًا ؟ " .

" أنا ــــ " . وكان من الغريب أنه لم يستطع إخراج الكلمات من حلقه . فقد بدا أنها ملتصقة فى مكان ما فى داخل حلقه .

قالت آنا دينمان : " حماقة . حماقة " .

خرجت من الغرفة تاركة وراءها السيد ساترثوايت دون أن يؤكد لها إيمانه بما قالته .

نزل إلى العشاء ليجد السيدة دينمان بصحبة ضيف . كان رجلاً طويلاً وداكن البشرة يناهز الأربعين .

" الأمير أورانوف ـ السيد ساترثوايت " .

انحنى الرجلان . شعر السيد ساترثوايت بأنه قد قطع حوارًا لن يقوما باستكماله الآن . ولكن لم يكن هناك من يشعر بالتوتر . وكان الرجل الروسى يتحدث بتلقائية وطبيعية فى موضوعات قريبة لقلب السيد ساترثوايت . لقد كان رجلا ذا ذوق فنى رفيع ، وسرعان ما اكتشفا أن لديهما العديد من الأصدقاء المشتركين . انضم إليهما جون دينمان وأصبح الحوار منصبًا فى جانب واحد . وقد عبر أورانوف عن أسفه حيال الحادث الذى وقع .

" إنه لم يكن خطئى . نعم أنا أقود بسرعة ، ولكننى قائد ماهر . لقد كان الحظ " ـ قام بهز كتفيه ـ " هذا الشيء الذى لا نملك حيلة أمامه " .

قالت السيدة دينمان : " الجانب الروسى فيك هو الذى يتحدث الآن يا سيرجيوس إيفانوفيتش " .

أجابها سريعًا : " ويجد انعكاسًا له بداخلك يا آنا ميكالوفنا " .

أخذ السيد ساترثوايت ينظر لثلاثتهم : جون دينمان ، أشقر ومتحفظ وإنجليزى ، والاثنان الآخران داكنا البشرة ونحيفان ومتشابهان بطريقة غريبة . شيء ما طرأ فى ذهنه ـ ماذا كان هذا ؟ آه ! لقد عرفه الآن . الفصل الأول من ولكور . سيجموند وسيجلند ـ المتشابهان للغاية ـ والغريب

هاندنج . بدأ عقله يقوم بإحراز بعض الاستنتاجات . هل كان هذا هو معنى وجود السيد كوين ؟ إن هناك شيئًا واحدًا يؤمن به بشدة ـ وهو أنه فى أى مكان يظهر فيه السيد كوين تقع أحداث درامية . فهل كان ما يراه هنا هو تلك الدراما ـ التراجيدية المبتذلة الثلاثية القديمة ؟

شعر بإحباط غامض ، فقد تمنى شيئًا أفضل .

سأل دينمان : " ماذا ستفعلين يا آنا . يجب إلغاء الحفل على ما أعتقد . لقد سمعتك تتصلين بمنزل روشمير " .

هزت رأسها .

" لا ، ليسن هناك حاجة لإلغاء الحفل " .

" ولكن لا يمكن إقامتها بدون الباليه ؟ " .

وافقته آنا دينمان قائلة : " بالطبع لا يمكن تمثيل مسرحية إيمائية بدون وجود مهرج ومهرجة . سوف ألعب دور المهرجة يا جون " .

" أنت ؟ " ، أصيب بالدهشة والارتباك كما لاحظ السيد ساترثوايت .

أومأت بهدوء ، قائلة :

" لا داعى لك للقلق يا جون . أنا لن أخذلك . أنسيت ـ لقد كنت أعمل راقصة ذات مرة " .

فكر السيد ساترثوايت بينه وبين نفسه : " كم يمكن لصوت الإنسان أن يكون غريبًا حقا . الأشياء التى يقولها

ــ والأشياء التى لا يقولها ويعنيها ! أتمنى لو أعلم ... " .

قال جون دينمان متذمرًا : " حسنًا ، إن ذلك يحل نصف المشكلة ؟ ماذا عن الراقص الآخر ؟ فكيف ستجدين مهرجًا ؟ " .

" لقد وجدته ـ هناك ! " .

أشارت ناحية الباب المفتوح حيث ظهر السيد كوين لتوه . وقد ابتسم لها هو أيضًا .

قال جون دينمان : " يا إلهى ، كوين ، هل تعرف أى شىء عن هذه اللعبة ؟ أنا لم أكن أتخيل ذلك قط " .

قالت زوجته : " إن هناك خبيرًا سوف يشهد على كفاءته . فسوف يتحمل السيد ساترثوايت المسئولية كاملة نيابة عنه " .

ابتسمت للسيد ساترثوايت ، وقد وجد الرجل الضئيل نفسه يتمتم قائلاً :

" نعم ، صحيح ، أنا سأتحمل المسئولية كاملة نيابة عن السيد كوين " .

ركز دينمان انتباهه فى مكان آخر .

" هل تعلم أنه ستكون هناك رقصة بالملابس التنكرية بعد ذلك . سوف نضطر إلى إلباسك ملابس معينة يا ساترثوايت " .

هز السيد ساترثوايت رأسه بدون تردد .

" إن شيخوختى ستشفع لى " . خطرت له فكرة عبقرية . فوطة مائدة أسفل ذراعه . " حسنًا ، سوف ألعب دور النادل العجوز الذى كان فيما مضى ميسور الحال " .

ضحك .

قال السيد كوين : " يا لها من مهنة مشوقة . شخص يرى الكثير " .

قال دينمان بحزن : " سوف أضطر إلى ارتداء بعض من ملابس المهرجين الحمقى . سيكون أمرًا لطيفًا على أى حال . ماذا عنك ؟ " . نظر إلى أورانوف .

قال الرجل الروسى : " إن لدىَّ زى مهرجين " . نظر لدقيقة إلى وجه مضيفته .

تساءل السيد ساترثوايت عما إذا كان محقًا فى التخيل الذى راوده بشأن مرور لحظة من الارتباك .

قال دينمان وهو يضحك : " سوف يكون هناك ثلاثة مهرجين . إن لدىّ زى مهرج قديم كانت زوجتى قد صنعته لى فى بداية زواجنا كى أرتديه فى حفل ما " . سكت ثم نظر إلى قميصه الذى يعلو صدره العريض ، وقال : " لا أعتقد أنه سيلائمنى الآن " .

قالت زوجته : " لا . إنه لن يدخل فيك الآن " .

ومرة أخرى قال صوتها شيئًا ما أكثر من الكلمات .

نظرت إلى الساعة .

" إذا لم تأتِ مولى سريعًا ، فنحن لن ننتظرها " .

ولكن فى هذه اللحظة ظهرت مولى . كانت ترتدى بالفعل ثوب المهرج الخاص بها ذى اللونين الأبيض والأخضر ، وكانت تبدو ساحرة للغاية فيه ، كما اعتقد السيد ساترثوايت .

كانت تملؤها الإثارة والحماسة بشأن الأداء المرتقب .

قالت فى أثناء شربهم القهوة بعد العشاء : " أنا مرتبكة للغاية . أنا أعرف أن صوتى سوف يرتعد ، وأننى سوف أنسى الكلمات " .

قالت آنا : " إن صوتك ساحر للغاية . لو كنت مكانك ما كنت سأقلق قط حيال هذا الأمر " .

" ولكننى قلقة بالفعل . الأمر الآخر لا يثير قلقى - أعنى الرقص . فأنا واثقة من أننى سأؤديه بنجاح . أعنى لا يمكن أن يخطئ المرء فى حركات يؤديها بقدميه ، أليس كذلك ؟ " .

كانت تروق لـ " آنا " ، ولكن السيدة الأكبر منها لم تجب على سؤالها . وبدلاً من ذلك قالت :

" غنى شيئًا ما الآن للسيد ساترثوايت . إنه سوف يطمئنك بهذا الصدد " .

ذهبت مولى إلى البيانو . دوى صوتها نقيًا ومتآلف النغمات ، حيث شدت بأغنية أيرلندية بسيطة قديمة :

" شيلا ، شيلا السمراء ، ما هذا الذى ترينه ؟ ما هذا الذى ترينه ، ترينه فى النار ؟ " .

" أرى رجلاً يحبنى . وأرى رجلاً يهجرنى " .

ورجل ثالث ، خيال رجل . وهو الرجل الذى يحزننى " .

استمرت فى الغناء . وفى النهاية أومأ السيد ساترثوايت استحسانًا .

" إن السيدة دينمان محقة . إن صوتك ساحر . ربما لا يكون قد خضع لتدريب كامل ، ولكنه طبيعى ومبهج وتغلفه لمسة شبابية " .

وافقه جون دينمان قائلاً : " هذا صحيح . واصلى المسيرة يا مولى ولا يحبطنك فزع مواجهة الجمهور واعتلاء المسرح . من الأفضل الذهاب لمنزل روشمير الآن " .

انفض الحشد وذهب كل واحد لارتداء ملابسه التنكرية . كانت ليلة رائعة ، وقد اقترحوا القيام بالتمشية حيث إن المنزل المقام به الحفل كان يبعد ، فقط ، بعض مئات الياردات عن الطريق .

وجد السيد ساترثوايت نفسه إلى جوار صديقه .

قال : " إنه شيء غريب ، ولكن هذه الأغنية جعلتنى أفكر فيك . شخص ثالث - خيال رجل - إن هناك غموضًا هنا ، وربما كان هنالك غموض فأنا - حسنًا - فأنا أفكر فيك " .

ابتسم السيد كوين قائلاً : " إذن أنا شديد الغموض ؟ " .

أومأ السيد ساترثوايت بقوة .

" هذا صحيح . فأنا لم أكن أعرف حتى هذه الليلة أنك راقص محترف " .

قال السيد كوين : " حقًا ؟ " .

قال السيد ساترثوايت : " أنصت " . قام بدندنة الجزء الخاص بالحب من مسرحية والكيور . " هذا ما كان يدور فى ذهنى أثناء العشاء عندما كنت أنظر إلى هذين الشخصين " .

" أى شخصين ؟ " .

" الأمير أورانوف والسيدة دينمان . ألا تلحظ اختلافًا بها الليلة ؟ إن الأمر يبدو كأن نافذة انفتحت بها فجأة ، وأخذ البريق يشع من داخلها " .

قال السيد كوين : " نعم ، ربما " .

قال السيد ساترثوايت : " نفس الدراما القديمة . أنا محق ، أليس كذلك ؟ إنهما ينتميان إلى نفس العالم ويفكران بنفس الطريقة ويحملان نفس الأحلام .... يستطيع أن يرى المرء ما حدث . منذ عشرة أعوام مضت لابد أن دينمان كان شابًا وسيمًا ومفعمًا بالحياة ورومانسيًا . وهو قد أنقذ حياتها . كان الأمر رائعًا . ولكن الآن ماذا أصبح ! رجل ميسور الحال وناجح - رجل إنجليزى نزيه ، بضاعة إنجليزية جيدة تمامًا مثل آثار هيبلوايت الموجود بالأعلى . رجل إنجليزى عادى مثل هذه الفتاة الجميلة ذات الصوت النقى غير المدرب جيدًا .

أنت قد تبتسم يا سيد كوين ولكن ليس بإمكانك إنكار ما أقول " .

" أنا لا أنكر شيئًا . إنك تكون دائمًا محقًا فى استنتاجاتك . ولكن — " .

" ولكن ماذا ؟ " .

مال السيد كوين للأمام . نظرت عيناه الحزينتان فى عينى السيد ساترثوايت .

قال هامسًا : " ألم تتعلم سوى هذا القدر الضئيل عن الحياة ؟ " .

ترك السيد ساترثوايت منزعجًا بطريقة غامضة ، فقد تركه ضحية للتأمل حتى إنه وجد أن الآخرين قد غادروا بدونه نتيجة لتأخره فى انتقاء وشاح لرقبته . غادر عبر الحديقة ، وعبر نفس الباب الذى أتى منه فى فترة ما بعد الظهيرة . كان ضوء القمر يغمر الزقاق ، وبينما كان يقف فى الممر ، رأى عاشقين يحتضنان بعضهما البعض .

للحظة فكر —

وبعد ذلك رآهما . جون دينمان وملى ستانويل . وكان بإمكانه سماع صوت دينمان ، أجش وحزينا .

" أنا لا أستطيع أن أعيش بدونك . ماذا سنفعل ؟ " .

استدار السيد ساترثوايت ليذهب من حيث أتى ولكن يدًا أوقفته ؛ حيث كان هناك شخص آخر يقف فى المدخل إلى جواره . شخص آخر رأى ما رآه السيد ساترثوايت .

وكان كل ما عليه القيام به هو إلقاء نظرة واحدة على وجهها ليعرف كم أن جميع استنتاجاته كانت جامحة .

وظلت يدها الحزينة ممسكة به حتى عبر الشخصان الآخران الزقاق واختفيا عن النظر . سمع نفسه يتحدث إليها ويقول أشياء حمقاء بغرض تهدئتها ومواساتها والتى لم تكن كافية بالمرة لمحو الألم الذى تكهن به . وقد تحدثت مرة واحدة .

قالت : " من فضلك لا تتركنى " .

وجد أن ذلك مؤثر بطريقة غريبة . فقد كان مهمًا ومفيدًا لشخص ما . ثم واصل التفوه بهذه الأشياء التى لا تعنى شيئًا على الإطلاق ، ولكنها كانت أفضل من الصمت . توجها إلى روشمير . وبين الحين والآخر كانت تحكم قبضتها على كتفه ؛ الأمر الذى جعله يدرك أنها كانت سعيدة بصحبته . وقد أبعدت يدها عنه حينما وصلا إلى وجهتهما أخيرًا . وقفت منتصبة ورفعت رأسها لأعلى .

قالت : " الآن سوف أرقص . لا تخف علىّ يا صديقى . سوف أرقص " .

تركته فجأة . وقد استقبلته الليدى روشمير تلك السيدة التى تهوى العويل والنواح . قامت ـ بدورها ـ بتسليمه إلى كلود ويكهام .

" لقد ضاع كل شىء رتبت من أجله . إن هذا هو ما يحدث لى دائمًا . إن كل هؤلاء الريفيين يظنون أن

بإمكانهم الرقص . لم يسألنى حتى أحد عن رأيى فى هذا الأمر ــ " . استمر فى الحديث بشكل غير متناه . فإنه قد وجد شخصًا يجيد الإنصات ، شخصًا خبيرًا . ظل يتحدث بأسلوب الشخص المنغمس فى الشفقة على ذاته إلى أن بدأت الموسيقى فى العزف .

أفاق السيد ساترثوايت من أحلامه . فقد أصبح يقظًا ، حيث استيقظ الناقد بداخله . لقد كان ويكهام أحمق حقيقيًا ، ولكنه كان موهوبًا فى كتابة الموسيقى ـ موسيقى رقيقة مثل نسيج العنكبوت ـ ولكنها ليست جميلة للغاية .

كان المسرح جميلاً . فلا تبخل الليدى روشمير ، قط ، بأية نفقات حينما يتعلق الأمر بمساعدة من هم تحت رعايتها . وكان المسرح ذا طابع يونانى ، وكانت الأضواء تضفى عليه لمسة خيالية .

كان هناك شخصان يرقصان كما كانا يرقصان منذ زمن سحيق . شخص مضحك نحيف ينثر الترتر فى ضوء القمر باستخدام صولجان سحرى بينما يرتدى قناعًا .... وراقصة باليه تدور على قدم واحدة كحلم خالد ...

جلس السيد ساترثوايت منتصبًا . لقد رأى هذا المشهد قبل ذلك . نعم ، بالتأكيد ...

الآن غادر جسده حجرة استقبال الليدى روشمير . لقد كان فى متحف برلين حيث يوجد تمثال راقصة خالدة .

رقص المضحك وراقصة الباليه . كانا يرقصان وكأن العالم كله ملك لهما .....

ضوء القمر ـ وشخص . المهرج هائم على وجهه خلال الغابة يغنى للقمر . مهرج كان قدر رأى راقصة وهام بها حبًا . لقد اختفى الشخصان الخالدان ولكن الراقصة تنظر وراءها . لقد سمعت أغنية صادرة من قلب رجل .

يهيم المهرج على وجهه فى الغابة .... والظلام ... ويموت صوته فى مكان بعيد ...

القرية الخضراء ـ رقص الفتيات الريفيات والمهرجين والمهرجات . مولى فى دور المهرجة . إنها لم تكن راقصة بارعة ـ كانت آنا دينمان محقة ـ ولكن صوتها كان جميلاً عندما كانت تشدو بأغنية " المهرجة ترقص على العشب الأخضر " .

نغمات جميلة ـ أومأ السيد ساتريوايت استحسانًا . فكان ويكهام يجيد كتابة النغمات . وقد جعلته أغلبية الفتيات الريفيات يرتعد ، ولكنه أدرك أن الليدى روشمير كانت محبة للخير .

طلبن من المهرج الرقص معهن ، ولكنه رفض . فقد ظل يهيم بوجه شاحب ـ وجه المحب الخالد الذى يبحث عن محبوبته . أسدل الليل ستاره . المضحك والراقصة ـ غير مرئيان ـ يرقصان أمام حشد خيالى . كان المكان مهجورًا ، ليس به سوى مهرج متعب يغط فى النوم على ساحل عشبى . يرقص المضحك والراقصة حوله . يستيقظ ليرى

الراقصة . يتودد إليها ولكن بلا جدوى ، يناشدها ، يتوسل إليها .

تقف دون أن تعرف ماذا تفعل . المضحك يشير لها بأن تتصرف . ولكنها لم تعد تجاهه . إنها تستمع إلى المهرج ، إلى أغنية الحب الذى كان ينشدها عليها مرة أخرى . تسقط بين ذراعيه ثم تنسدل الستار .

كان الفصل الثانى هو كوخ المهرج . تجلس الراقصة بجوار الموقد . تبدو شاحبة ومتعبة . إنها تنصت ـ لماذا ؟ هذا المهرج يغنى لها يستجديها لتفكر فيه ثانية . يخيم الليل . يدوى صوت الرعد .... تضع الراقصة مغزلها جانبًا . إنها متلهفة ومضطربة . إنها لم تعد تستمع إلى المهرج . إنها فقط موسيقاها الخاصة تلك التى كانت فى الهواء ، موسيقى المضحك والراقصة .... لقد أفاقت . لقد تذكرت .

يدوى صوت الرعد ! يقف المضحك فى المدخل . لا يستطيع المهرج رؤيته ، ولكن الراقصة تضحك بسعادة . يأتى الأطفال يركضون ولكنها تدفعهم بعيدًا . يدوى صوت الرعد مرة أخرى ، وتسقط الجدران وترقص الراقصة مع المضحك .

خلال الظلام تدوى النغمة التى شدت بها المهرجة . يتسلل الضوء ببطء . الكوخ مرة أخرى . المهرج والمهرجة يشيخان ويجلسان أمام النار على مقعدين وثيرين . الموسيقى سعيدة ولكن خافتة . تومئ المهرجة وهى تجلس

فى مقعدها . وعبر النافذة يدخل بصيص من أشعة القمر ، ومعه صدى صوت أغنية المهرج القديمة . يضطرب فى مقعده .

موسيقى خافتة ـ موسيقى خيالية ... المضحك والراقصة بالخارج . ينفتح الباب وتدخل الراقصة وهى ترقص . تميل فوق المهرج النائم وتقبله على شفتيه ...

يدوى صوت الرعد . تخرج ثانية فى منتصف المسرح ، توجد النافذة المضاءة ، وعبرها يمكن رؤية المضحك والراقصة يرقصان ببطء وهما يبتعدان إلى أن يختفيا ...

يسقط جذع شجرة . تقفز المهرجة فى غضب وتهرب نحو النافذة وتسدل الستار . وبذلك تنتهى المسرحية بهذا التضارب المفاجئ ...

كان السيد ساترثوايت يجلس بهدوء شديد بين التصفيق والصيحات . فى النهاية نهض وخرج . رأى مولى ستانويل وهى تتلقى عبارات الثناء والمجاملة . ورأى جون دينمان وهو يشق طريقه عبر الحشد ، دافعًا الآخرين بيده ومرفقه وكان بعينيه بريق جديد . ذهبت مولى إليه ولكن بدون وعى تقريبًا ، دفعها جانبًا . لم تكن هى التى يبحث عنها .

" زوجتى ؟ أين هى ؟ " .

" أعتقد أنها خرجت إلى الحديقة " .

ولكن كان السيد ساترثوايت هو من وجدها ، كانت تجلس على مقعد حجرى أسفل شجرة السرو . وحينما

وصل إليها قام بشىء غريب . نزل على ركبته ورفع يدها وقام بتقبيلها .

قالت : " آه ! لقد أعجبك رقصى ؟ " .

" لقد رقصت كما كنت ترقصين دومًا يا مدام كارزانوفا " .

تنهدت بحدة .

" إذن ـ لقد قمت بالتخمين " .

" إن هناك كارزانوفا واحدة . لا يمكن لأحد أن ينساك بعد أن رآكِ ترقصين . ولكن لماذا ـ لماذا ؟ " .

" ماذا كان بوسعى القيام به خلاف ذلك ؟ " .

" ماذا تعنى " .

أخذت تتحدث ببساطة . كانت شديدة البساطة الآن .

" ولكنك تفهم . أنت من بين جميع البشر فى العالم الذى تفهم راقصة عظيمة ـ يمكنها أن تحظى بكثير من المحبين ـ ولكن زوجًا ، كان هذا أمرا مختلفا . وهو ـ وهو لم يرغب فى الأمر الآخر . لقد أراد أن أصبح ملكه هو وحده ـ ولم يكن بإمكان كارزانوفا القيام بهذا " .

قال السيد ساترثوايت : " أتفهم هذا . إذن فقد تخليت عن الرقص ؟ " .

أومأت .

قال السيد ساترثوايت برقة : " لابد أنك أحببته للغاية " .

ضحكت قائلة : " كى أقوم بمثل هذه التضحية ؟ " .

" ليس تمامًا . فقط أخذك للأمور بهذه البساطة " .

" آه نعم ـ ربما تكون محقًا " .

سأل السيد ساترثوايت : " والآن ؟ " .

أصبح وجهها قاتمًا .

" الآن ؟ " ، سكتت ثم ارتفع صوتها وتحدثت ناحية الظلام .

" هل هذا أنت يا سيرجيوس إيفانوفيتش ؟ " .

جاء الأمير أورانوف تحت ضوء القمر . أخذ يدها وابتسم للسيد ساترثوايت دون وعى .

قال ببساطة : " منذ عشرة أعوام مضت أحزننى موت آنا كارزنوفا . فقد كانت نصفى الآخر . واليوم وجدتها ثانية . إننا لن نفترق مرة أخرى " .

قالت آنا : " فى نهاية الزقاق خلال عشر دقائق . أنا لن أخذلك " .

أومأ أورانوف وسار مبتعدًا . استدارت الراقصة ناحية السيد ساترثوايت . ارتسمت ابتسامة على شفتيها .

" حسنًا ، أنت غير شاعر بالرضا يا صديقى ؟ " .

قال السيد ساترثوايت فجأة : " هل تعلمين أن زوجك يبحث عنك ؟ " .

رأى رجفة تعبر وجهها ولكن صوتها كان متزنًا .

قالت : " نعم . إن هذا متوقع " .

" لقد رأيت عينيه . كانا ـــ " . سكت فجأة .

كانت لاتزال هادئة .

" نعم ، ربما . لمدة ساعة . سحر يستمر لساعة ، تمخض عن ذكريات ماضية وعن الموسيقى وضوء القمر ـ هذا هو كل ما فى الأمر " .

" إذن ليس هناك ما أستطيع قوله ؟ " . شعر بأنه عجوز ومحبط .

قال آنا كارزانوفا : " طوال عشرة أعوام وأنا أعيش مع الرجل الذى أحببته . الآن سأذهب إلى الرجل الذى ظل يحبنى طوال عشر سنوات " .

لم يقل السيد ساترثوايت شيئًا . لم يبق لديه شىء ليقوله . علاوة على ذلك ، فقد بدا ذلك أبسط حل ممكن . فقط ، فقط ، لم يكن هذا هو الحل الذى أراده . شعر بيد فوق كتفه .

" أعلم يا صديقى ، أعلم . ولكن ليس هناك طريق ثالث . إن المرء دوما يبحث عن شىء واحد ـ الحبيب ، الحبيب الكامل والخالد .... إنها موسيقى المضحك التى يسمعها . ولكن حتى عند إيجاده هذا الحبيب فإنه لا يرضى ، حيث إن جميع الأطباء غير ذى جدوى . والمضحك ما هو إلا خرافة ـ شخص غير مرئى ... إلا إذا ـــ " .

قال السيد ساترثوايت : " نعم . نعم ؟ " .

" إلا إذا كان اسمه هو ـــ الموت ! " .

ارتعد السيد ساترثوايت . سارت مبتعدة حتى ابتلعها الظلام ...

لم يعرف كم من الوقت ظل جالسًا هناك ، ولكنه أجفل فجأة وهو يشعر أنه يهدر وقتًا ثمينًا . نهض بسرعة وهو يندفع فى اتجاه بعينه رغما عنه تقريبا .

وحينما دخل الزقاق ساوره شعور غريب بعدم الواقعية . سحر ـ السحر وضوء القمر ! وشخصان يأتيان ناحيته ...

أورانوف يرتدى ثوب المضحك . هذا ما اعتقده فى البداية . ولاحقًا حينما مرا أمامه عرف أنه كان مخطئًا . هذا الجسد الرشيق ينتمى لشخص واحد فقط ـ السيد كوين ...

سارا عبر الزقاق ـ كانا يسيران برشاقة وكأنهما يمشيان على الهواء . أدار السيد كوين رأسه ونظر خلفه ، وقد شعر السيد ساترثوايت بالصدمة ، حيث إنه لم يسبق له رؤية وجه السيد كوين بهذه الطريقة . كان وجه شخص غريب ـ لا ، ليس غريبًا تمامًا . آه ! لقد أدرك ما يحدث الآن ، كان وجه جون دينمان كما كان يمكن أن يبدو قبل أن تبتسم له الحياة . وجه مليء بالحيوية والمغامرة ، وجه صبى وعاشق .

تسللت ضحكتها إليه نقية وسعيدة ... نظر إليهما ورأى،عن بعد أضواء كوخ صغير . ظل يحدق فيهما وكأنه رجل يحلم .

أيقظته يد سقطت على كتفه ، استدار ليجد سيرجيوس أورانوف . بدا الرجل شاحبًا ومشتتًا .

" أين هى ؟ أين هى ؟ لقد وعدتنى ـ ولم تأت " .

" لقد دخلت السيدة لتوها فى الزقاق ـ وحدها " .

كانت خادمة السيدة دينمان هى التى تحدثت من خلال ظل الباب خلفه . كانت تنتظر وهى تمسك بمعطف سيدتها .

أضافت : " كنت أقف هنا ورأيتها تمر أمامى " .

تحدث إليها السيد ساترثوايت بحدة .

" وحدها ؟ أتقولين وحدها ؟ " .

اتسعت عينا الخادمة فى دهشة .

" نعم يا سيدى . ألم ترها وهى تغادر ؟ " .

تشبث السيد ساترثوايت بأورانوف .

تمتم قائلاً : " بسرعة . أنا ـ أنا خائف " .

هرعا داخل الزقاق معًا بينما يتحدث الروسى بعبارات سريعة غير مترابطة .

" إنها مخلوقة رائعة . آه ! كان رقصها رائعًا الليلة . وصديقك هذا . من هو ؟ آه ! ولكنه رائع ـ فريد . فى الأيام الخوالى ، حينما كانت تلعب دور ريمسكى كورزاكوف لم تستطع قط إيجاد شخص بارع يلعب دور المضحك . موردوف ، كاسنين ـ لم يكن أى منهما بارعًا . وكانت تعيش هى فى وهم خاص بها . وقد أخبرتنى بشأنه ذات مرة . فقد كانت ترقص دومًا مع مضحك خيالى ـ رجل لم يكن موجودًا حقًا . لقد كان المضحك

الذى تخيلته هو الذى أتى ليرقص معها . وكان خيالها هذا هو الذى يجعل رقصها رائعًا " .

أومأ السيد ساترثوايت . كانت هناك فكرة واحدة تجول بعقله .

قال : " أسرع . يجب أن نصل فى الوقت المناسب . يجب أن نصل فى الوقت المناسب " .

انحرفا عند المنعطف الأخير - ووصلا إلى الحفرة العميقة وإلى شىء يرقد بها لم يكن هناك قبل ذلك ، جسد امرأة ترقد فى وضعية مدهشة ، الذراعان مبسوطتان والرأس مائلة للخلف ، وجه ميت ، وجسد بدا منتصرًا وجميلا فى ضوء القمر .

تذكر السيد ساترثواي كلمات السيد كوين فى حزن : " *أشياء رائعة فوق كومة من القمامة* " ... لقد فهم معنى هذه الكلمات الآن .

كان أورانوف يتمتم بكلمات غير مفهومة . كانت الدموع تنهمر فوق وجهه .

" لقد أحببتها . لقد أحببتها دومًا " . وقد استخدم تقريبًا نفس الكلمات التى خطرت على بال السيد ساترثوايت فى وقت مبكر من هذا اليوم . " نحن كنا ننتمى إلى نفس العالم . هى وأنا . كنا نفكر بنفس الطريقة ونحلم بنفس الأحلام . لقد أحببتها دومًا ... " .

" كيف تعرف هذا ؟ " .

حدق فيه الرجل الروسى - فقد اندهش من نبرة صوته الشاكسة العنيدة .

واصل حديثه قائلاً : " كيف تعرف ؟ إن هذا هو ما يعتقده جميع المحبين - ما يقوله جميع المحبين ... هناك فقط محب واحد — " .

استدار ليجد أمامه السيد كوين . وبشكل هائج أمسك السيد ساترثوايت ذراعه وطرحه جانبًا .

قال : " كان هذا أنت ؟ أنت الذى كنت معها الآن ؟ " .

انتظر السيد كوين دقيقة . ثم قال برفق :

" تستطيع أن تقول هذا إن أردت " .

" والخادمة لم تترك " .

" ولكننى رأيتك . كيف هذا ؟ " .

" ربما يكون ذلك نتيجة للثمن الذى دفعته ، أنت ترى الأشياء التى لا يراها الآخرون " .

نظر إليه السيد ساترثوايت بدون استيعاب لدقيقة أو اثنتين . ثم بدأ يرتعد فجأة مثل شجر الحور الرجراج .

همس قائلاً : " ما هذا المكان ؟ ما هذا المكان ؟ " .

" لقد أخبرتك فى وقت مبكر من اليوم . إنه زقاقى " .

تمتم السيد ساترثوايت : " زقاق العشاق . والناس يعبرونه " .

" معظم الناس ، إن آجلاً أو عاجلاً " .

" وفى نهايته - ماذا يجدون ؟ " .

تمت بحمد الله و توفيقه

ابتسم السيد كوين . كان صوته رقيقًا للغاية . أشار للكوخ المحطم فوقهما .

" منزل أحلامهم - أو كومة من القمامة - من يعرف ؟ " .

نظر إليه السيد ساترثوايت فجأة . اجتاحه غضب عارم . فقد شعر بأنه تعرض للغش والاحتيال .

" ولكن أنا - " كان صوته يرتجف . " أنا لم أعبر قط زقاقك .... "

" وهل ندمت على ذلك ؟ " .

ذبل السيد ساترثوايت . بدا السيد كوين كأنه يسبر أغواره ... تكون فى مخيلة السيد ساترثوايت صورة لشىء مهدد ومرعب ... بهجة ، حزن ، يأس .

وبعد ذلك ارتعدت روحه الصغيرة التى كانت تشعر بالراحة فى رعب .

كرر السيد كوين سؤاله : " هل أنت نادم ؟ " . كان مريعًا حقًا .

تلعثم السيد ساترثوايت : " لا ، لا " .

وفجأة استجمع قواه .

صاح قائلاً : " ولكننى أرى أشياء . ربما لا أكون أكثر من مجرد متفرج بالحياة - ولكننى أرى أشياء لا يراها الآخرون . لقد قلت ذلك بنفسك يا سيد كوين .... "

ولكن السيد كوين كان قد اختفى .

أجاثا كريستي Agatha Christie

السيد كوين الغامض



هارلي كوين من أكثر الشخصيات غموضاً، فحتى صديقه السيد ساترثوايت عاجز عن فهم الطريقة التي يظهر ويختفي بها وكأنه ومضة من الضوء. وعندما يظهر فإنه في العادة إما يكون محاطاً بضوء الشمس الساطع، أو بطيف من الضوء ينفذ عبر زجاج نافذة ملون..

وفي الحقيقة، فإن الشيء الثابت الوحيد فيما يتعلق بالسيد كوين الغامض هو أن ظهوره دائماً يكون بشيراً بالحب.. أو نذيراً بالموت.

«الملكة المتوجة على عرش الروايات البوليسية».

جريدة ذي أوبزرفير




6 281072 057633
282204278